

دَابَّةُ الْمُنْكَ

رواية

أشرف غيث

أشرف غيث: دابة الملك (رواية)

الحضارة للنشر

7 شارع أبو السعود - الدقى 12311 - القاهرة

Al-Hadara Publishing

7 Abou El-Seoud Street

Dokki 12311- Cairo, Egypt

tel.: (20-2) 3761 94 39

mobile: (20-122) 316 48 67

e-mail: elhamy.boulos@gmail.com

www.alhadara.com

الطبعة الأولى: أبريل 2014

رقم الإيداع بدار الكتب 7775 / 2014

ISBN: 978-977-476-198-1

تصميم الغلاف: إسلام الفحام

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

ها هي دابة الملك تخرج من أرض العرب ولا
تُرصَد في سمائمهم كأنها الذهب الأسود لا شعاع
الضوء المحبوس في دهر حضارتهم، أو كأنها
أشباح قتلاهم تخرج من الأجداث لا كلمة الله
النابئة في الأرض لتذكركم بكلمة السماء التي
أنزل وحيها عليهم. ها هي دابة ملك العرب لا
دابة أرضهم تكلمهم بحرف لغتهم: يا عرب، لقد
امتطاني من قتلوا الأنبياء في أور شاليم مدينة
السلام، كما امتطاني من قتلوا أبناء الأنبياء من
منابركم.

obeikandi.com

أين صائد الإطلاق، والمحارب الذي كتب على صخور أودية سيناء يقول: كل من قتلوا في الحروب يحיהم الموت في الضمائر الحرة، ولو كانت ضمائر الأعداء؟ أين قديس الإطلاق الذي حرر نفسه من الأسر ثم حج ماشيا على قدميه، وفي كهوف الرهبان المضطهدين في دولة القياصرة كتب يقول: قد يصير الوطن كهفا ولكن الكهوف لا تصير أوطانا! أين هو؟ وكيف اختفى من جسر الصيد بلا أثر؟ اعتقد معه أن تدفق النهر الجاري يموج، وينغمر في وحشة زوال وصلابة أزل، وعلى ضفافه كان له جنات وعيون، وأوتاد معابد وأوتاد قصور، وسفن للشمس وأخرى للحضارة، وأسباب للعلم وأسباب للكهانة، وكتاب للموتى ومحكمة إلهية للأحياء. تدفق يجري بالموت والحياة ولكنه لا يموت ولا يحيى! والسير بمحاذاته دونه وقفة العدم، وخواء السكون. كان طارق يقول له وهما بالجسر:

- ستقول دول المنبع من أين تبدأ الأنهار، وتقول دول المصب إلى أين تنتهي الأنهار؟
فيقول صائد الإطلاق:

- القارة السمراء ملكت البداية ولكن النهاية لا تزال تملك عليها!
ألا يزال هناك برفقة أسماك القارة يغني لها أغنية الأسطورة الشعبية القديمة منذ آلاف السنين: "الراعي في الماء برفقة الأسماك يتحدث مع سمك البياض، ويحي سمك أبي منقار، أيها الغرب: أين الراعي؟ الراعي ذاهب إلى الغرب..". تابع المسير إليه حتى يلوح بأفق النهر، وقد يبرز على الجسر وآلات الصيد بجانيبه شرعا، أو يبرز

وحيدا في موسم للهجرة، كأنه موسم للحب يترافق فيه عشاق الجسر من حويله. اعتقد معه أنه ينتظر الفيضان النابع من "تون" تلك البداية التي تحف بنهاية القارة السمراء، وتهب لكل شيء الحياة، ويأتي الخير في طريقها منبعا وراء منبع، وشلالا وراء شلال، ومصبا وراء مصب. اعتقد معه أن القتل بالدين قديم قدم القتل بالقبيلة والقتل بالجنس، وأن القتل بالماء قديم قدم القتل بثروات الأرض. قال ذلك في هزيع من الليل القديم وهو يستمع لتلفزيون عربة الذرة المشوية إذ يبث تقريرا إخباريا عن صراعات القارة الأهلية منذ انتهاء الحرب العالمية، وإلى ما بعد الحرب الباردة، بينما حدق بائع الذرة في جهاز عربته المتقلبة يدويا، والرابضة بالجسر أسفل عمود إنارة يمرر منه الكهرباء إلى الجهاز، ثم استهول البائع أن يقتل ما يزيد عن أربعة ملايين نفس في الكونغو وحدها عقب استقلالها عن بلجيكا، فيما عرف بصراع "الماس الملطخ بالدماء" ثم أصغى لتعلق صائد الإطلاق المعمر على التقرير، وما إن تحدث عن القتل بالدين، والقتل بالجنس، والقتل بالماء ناد بائع الذرة قائلا:

- يا أغلى من الماس يا ذرة!

فترامى نداؤه لمن التفت إليه من عشاق الجسر، والصائدين المتوقعين تراميه بخشوعه المتحشرج، وبوادره الموقوتة كأنها حداد الأجراس. التفتوا إليه من جانبي العربة، وهم بين تهامس، وتبسم، ووجوم، وتأهب لبداية السهرة، وتمهلوا حتى جاوبه فتى بيتاع منه الذرة لخطيبته قائلا:

- وأغلى من مهر عرائس النيل!

ولكن البائع الموتور في قتلى الماس لم يصرف نظره عن صائد
الإطلاق الذي يحرر اسماك القارة ولا يصيدها، والمحارب الذي خاض
الحرب والأسر، ويجاوره بالجسر قبل أن ترفع به أعمدة إنارة. خاطبه
مستنجدا:

- أو يمكن أن يُلطخ ماء النيل بدماء كدماء الماس؟
فقال الفتى العاشق:

- المساجد، والأديرة، والأوطان تلطخ بالدماء ألا يلطخ بها النيل؟!
فاستوحشت خطيبته جو الليلة بجسر عشقهما قائلة:

- أدخلوا مصر إن شاء الله آمين!
فطوق الشاب كتفها يقول:

- ذاك في دخول مصر فما بال الخروج منها؟
أستأنف بائع الذرة عمله مؤججا فحم الموقد بالمروحة، وناد منغما
صوته الموحش:

- يا أغلى من النيل يا نيل!

ومن جانبي العربية استأنف الصائدون سهرة الصيد، فقال رضا
مهندس معماري:

- هذا ليس صراع ماس ملطخ بالدماء، هذه دماء اغرق فيها
الصراع، والماس، والنسل!

وتسأل لطفي موظف السكة الحديد مذهولا عن آلة الصيد المائلة
على حديد الجسر كأنها سلاح في صراع:

- أيقتل في استثمار أمريكا ما لا يقتل في استثمار بلجيكا؟!

ويتهكم يكذب ادعائه قال وجدي عازف الكمان، والمعتزل للصيد:

- الآن عرفت الفرق بين الاستثمار والاستثمار!

وعلى غرار تهكمه ادعى أحمد طالب طب بجامعة القاهرة:
- وأنا الآن جهلت الفرق بين الاستقلال والاحتلال، والجلاء والإحلال!

فهتف ياسر زميله، وحامل "مطرقة" مسرح شكسبير في الجامعة:
- وما قارة الجنوب إلا مسرح كبير لقارة الشمال!
وبلهجة احتجاج تام هتف أحمد بزميله:
- وما الغابة إلا مسرح صغير للإنسان!
ثم التفتوا جميعا إلى سمكة مرتعشة في خطاف الصيد قد أخرجها
أحدهم من النهر الجاري بالموت والحياة. تأمل وجدي ارتعاشها قائلاً:
- أليس هذا زمن إطلاق أسماك القارة عسى أن ينتفع بحكمة
هجرتها أمراء الحروب الأهلية والحروب بالوكالة؟
فتسأل طارق:

- وماذا عن أمراء البترول في الخليج الواقع عند بحر الاستثمار
الغربي؟
قال صائد الإطلاق:

- الاستعمار هو آلة الصيد المتطورة التي لا نزال نستخدمها في
جميع حروبنا الأهلية والدينية حتى لو كانت القارة معدمة الثروات!
فقال طارق:

- إنها القارة التي يقصدها كل مقامر كأنها العالم القديم يكتشفه
العالم الجديد، ولكن المستثمرين الجدد سوف يصدرون حروب القارة
الأهلية إلى العرب على أنها ثورات من حقوق الأديان!

ولا يمر الليل القديم على الجسر إلا وطارق يذكر الخمسة ملايين
نفس المباداة في استثمارات أولاد العم سام، ودماءهم الملطخة

بالماس، وهي غير دماء الذهب الأسود -البترول- المجلل بالحداد التي يحسبها المستثمرون في صحراء العرب سرايا من دماء لا يروي عطشهم، وقد جعل من يوم إحلال أمريكا محل بلجيكا في مستعمرة الكونغو؛ جعله يوما تهاجر فيه الخمسة ملايين نفس من مقاطعة "كانتجيا" مستودع الماس إلى نهر الأمازون مستودع المخلوقات، ويدعو العشاق، والصائدين إلى الاعتقاد معه أن أرواحهم المزهقة أسراب طير ترمي الأرض في طريق هجرتها بصخور القارة الأم التي انفصلت عنها قارات الدنيا، وينبه بائع الذرة كل من بالجسر إلى تلفزيون عربته؛ فيشاهدون طفلا راقدا على جنبه، وقد أبكت عظامه البارزة بروز صخور القارة زائرة حقوقية تحمل حقيبة يحلق بجلدها طائر أسترع انتباه الطفل؛ فرفع رأسه نحوه، ولم يخفها والزائرة تبتعد بالطائر كأنما تهاجر به بين عظام الأطفال الراقدون، وعظام الأمهات المرضعات، وعظام الدواب، ثم أصغ بائع الذرة إلى وجدي وهو يقول ويصره معلق بالطفل المعلق بصره بالطائر:

- ألتك العظام الحية كتبة نجا؟

وناشد صائد الإطلاق:

- إذن أولئك هم المهاجرون حقا في ضمير الإنسان!

ويصغي بائع الذرة إلى طارق وهو يقارن بين أشعة العلم الحديثة الكاشفة عن عظام الإنسان وأمراضه، وأشعة المجاعة الكاشفة عن ضراوة الاستثمار وجراثيمه، ويتطلع إليه وهو يقول مخاطبا المستثمرين في قارة الطمي، والمعادن، والبترول:

- أيها المستثمرون، لو كان هذا الطفل يفكر في الجوع ما رفع رأسه لطائر الهجرة حتى غام البصر في سراب الحرية، وحقيبة حقوق الإنسان!

ويتأثر بائع الذرة أيما تأثر، ووجدي جالب النساء الجميلات إلى عربة الذرة ينادي على أمراء الحروب الأهلية والحروب بالوكالة:
- يا أمراء حروبنا، أين هو القاتل الذي يضمّر القتل والطير فوقنا صافات ويقبضن؟

ثم يعطي كل من بالجسر أذنه لبائع الذرة وهو ينادي على الطفل الرائد على جنبه، أو عظامه البارزة ولا يزال يتطلع إلى الطائر:
- يا طفلنا الصائم، لا صيامك مجاعة ولا استثمار الناس شبع حتى لو حلق الطير في حقيبة تلك الزائرة الباكية؟
بينما استعرض صائد الإطلاق ببصره آلات الصيد المنصوبة على حديد الجسر، وقال:

- لو أن آلات الصيد المتطورة أشرع للهجرة، لو سبق الإنسان الصيد، ولكن الصيد سبق الإنسان فصنع له آلة! أين هو الصائد الذي يستخفه غرور الصيد وأمام ناظريه الأسراب المهاجرة إن فتحت لها بوابة الكون عبرت بالحياة والموت، كأنما تعبر بهما بوابة الأبد إلى حيث يكون اليقين هو الحق المهاجر بجناح الموت، وجناح الحياة؟
وكما يحدق بائع الذرة بشاشة تلفزيونه حدق بطارق وهو يقرأ على عشاق الجسر بحثاً عن اكتشاف القارات، يتحدث عن وثيقة نقب عنها في صخور سفح جبل السكر على مدخل عاصمة البرازيل، تثبت اكتشاف العرب لأمريكا قبل كولومبس الذي عاد منها بذهب مخلوط بالناحاس على النحو الذي يخلطونه به في "غانا".. ثم ذكر لهم ما ورد

في كتاب نزهة المشتاق للإدريسي وهو من رسم لملك صقلية الخرائط،
وصور الكرة الأرضية من الفضة، وفي الكتاب رواية عن أولئك
الملاحين الذين سماهم المغررين أنهم وصلوا إلى جزيرة في بحر
الظلمات سماها جزيرة الغنم ولقيهم فيها من يكلمونهم باللغة العربية،
ثم ناد منادي من العشاق على بحر الهوى، وما لبث أن جاوبه سائر
العشاق:

- يا بحر الهوى، أين جزيرتك؟
- بل أين ملاحك يا هوى؟
- الملاح دخل الجزيرة ولم يعد!
- دخلها للنزهة أم للاشتياق؟
- كل نزهة اشتياق وليس كل اشتياق نزهة!
- العرب تكلموا في بحر الظلمات وفي ظلمات الخليج الكلمة كانت
لغيرهم!

- يا ظلمات الكويت، اكتشافك مقبرة للعرب، أم مقبرة قارية؟
- هل كان دخول صدام إليها اكتشافاً، أم إخراجها منها هو
الاكتشاف؟

- كل شيء عند العرب مكشوف لا اكتشاف فيه!
- إنهم كالصحراء تيه لغيرهم فوق الرمال، وما تحت الرمال تيه
لهم!

ثم قال صائد الإطلاق من فوق جسر القارات:
- كانوا يهتدون بالنجم والآن تضللهم أقمار صناعية!

ها أنت والخيط الأبيض من الفجر..

سكون غيم ندي تخلله مناجاة صلاة، ثم ثورة عصافير كأنها
أجنحة الصباح تنفض نعاس من حياة، ونعاس من سماء لا تزال
تتأهب بما يتكالب من السحب، وبما يندح منها ويتلاشى. فرغت أمه
من صلاتها، ووجدتها داخل الحجرة بكوب اللبن المطعم بالقرفة.
وضعت على المكتب الملاصق للفرش، وقد بدا لها في استلقائه
المستديم، وتواري وجهه خلف الكتب كمدعي رهبة، ولم يبلغ به شطط
الترهب ادعاء الرسالة فيما يكتبه من قصص، وروايات أدبية؛ فكانت
نظراتها تراوح نور الأمل وظلام اليأس، وجزع الرحمة ونقمة الصبر،
وأحيانا تتندر بحاله، ويلمح السخرية المريرة في نظرتها فيذكر الكاتب
"روي" في دواوين مصر القديمة، وهو شخص لا يطيق الناس غروره،
وترفعه، ويتندرون بحاله قائلين: "لم يتحرك قط، ولم يُجر بقدميه منذ
ولادته"، ولكنه ذلك الذي يكتب، أو "تحوت" الكاتب الإلهي المدرب على
الأسرار العظمى، وثقافته منقوشة على قلبه، وعبرة من لسانه أنقل
من ذهب الناس، فهو الكاتب الموهوب، والأكثر اجتهادا. ولته ظهرها،
وهي تخاطبه بنبرات محايدة:

- الأستاذ سليم اتصل بك أكثر من مرة يتعجل حضورك إلى
المكتب!

واستدارت بباب الحجرة تقول بلهجة الخطبة:

- والأستاذة فايذة عاودت الاتصال تقول: إن حضور طارق إلى
المكتب ضروري!

محاماة مرة أخرى! وأشهر من العزوف، والسقم، والفراغ قد رانت على بواعثها، وطموحها، ورونقها، بل وحركتها الحيوية. حركة العدالة التي يتشعب بمساراتها رجال القانون، ورجال الجريمة، كأنهم على قلب رجل واحد يقف بالعدالة على مفترق من النوايا الغامضة، غموض الظلم، والعدل! ألا تعلم الأم أن المحاماة بعد قليلا من التمرين عليها قد تبدت له "روبا" يرتديه خيال مآته متحرك في حقول غابة من القوانين، وليس ساحات للعدالة؟ لم تشاطره زميلته فائزة العزاء وهو يقول لها:

- أنا، وأنت خيال مآته طارد لطبور العدالة!

فضحكت قائلا:

- أنت المطارد يا زميلي، من خيالات كثيرة لمآته الفن لا علاقة لها بواقعية القانون. القانون يعني أن خنجرًا سيطعنك، ولا يعنيه ما إذا كان الخنجر في يد ظالمة، أو يد عادلة. الطعنة هي ما تعني القانون الذي يعمل على توقيها، وليس تأملها حتى تنفذ في أحشائنا. أنت تنسى دائما أن القانون لا يحمي المغفلين يا زميلي، لا يحميهم سواء في الفن، أو في مهنة القانون!

هو ذاك "خيال مآته" الفن الذي حملته على أن يودع الأستاذ سليم في ساحة المحكمة وداعا باتا مؤثرا، وقد يعد طرفة فنية في مهنة المحاماة، كان بصره يتتبع زملاءه المحامين إذ يتحرك بهم الروب أينما ظهروا في ساحة محكمة شمال القاهرة؛ وعلى حين غرة من بوارده التي تشبه تلك التعاويذ والتمايم التي يتحصن بها أصحاب الهواتف الغيبية قال له:

- نحن يا أستاذ، كخيالات مآته تحرث حقول القوانين وهي واقفة في مكانها دون حراك، فلا طيور أبقت ولا أرض أثمرت، ولم يعد السؤال: كيف نرتدي الروب؟ وإنما السؤال: كيف نخلعه ونحن خيالات مآته لقوانين تسمى عادلة وهي التي جعلت الذي يسجن هو نفسه من يضبط، ومن يحقق، ومن يتهم، ومن يحاكم، ومن يترافع؟! أنا المرتدي روب الدفاع هو أنا المساهم في سجن المتهم المكفول له البراءة بنص القانون. القانونيون هم الذين قالوا أن القوانين لا تطفئ في مجتمع إلا وطفئ معها الظلم، حتى ولو كانت قوانين العدالة. المتهم يا أستاذ، مثل القوانين لم يعد بريئاً حتى تثبت إدانته!

نبرات الأم محايدة ولكن حركتها الحيوية ليست كذلك، فقد ولته ظهرها كأنها العدالة الساخطة. محاماة كرة أخرى! ألا تعلم الأم أن خيال مآته الفن عجيب في خيالاته التي تبدي له جميع قاعات المحاكم قضباناً من قوانين لا قضباناً من حديد، ومن دخلها فهو سجين سجننا احتياطياً على ذمة العدالة؟ رجال القانون، ورجال الجريمة، ورجال الأمن، وكل من دخلها من الناس، حتى هؤلاء الأطفال قد سجنتهم نظرات أبائهم من خلف قضبان المحاكم. بين قضبان منصة القضاء وقضبان قفص الاتهام لا يزال المتهم هو العريان الوحيد والكل متشح. من قبض عليه، ومن اتهمه، ومن حقق معه، ومن ترافع عنه، ومن قضى عليه. الكل مستور بالسلطات إلا المتهم العار، وكذلك الجريمة بين المنصة والقفص لا تزال حرة، ويحرسها ذلك الحاجب، وما يزيدها صياحه المجلجل: "محكمة" إلا زهوا بحريتها بين قضبان العدل، وقضبان الاتهام! الأستاذ سليم المحامي الألمعي وقف

أمام مرآة المكتب يعاين روبه الجديد في هدامه، ومقاسه، ووجاهته،
ثم فاجئني بنظرة محفزة في المرآة تسألني:

- ما رأيك يا أديب المحاماة؟

فقلت:

- ما أروعه من "روب" إن ظل في قضبان المرآة!

فهتف بي في المرآة:

- أليس في خيالك إلا قضبان الخيالات؟! أي نعم يا سيدي، أنت

أديب واعد، ولكن أديبا على نفسك وليس علينا!

ثم صرف نظرتي الصابرة عني ليعاين من جديد روبه الجديد، ولم
يطل به الصبر حتى تململ في المرآة كأنه يرى ما يراه أديب المحاماة،
أو "تحت" ذلك الذي يكتب، ويعلم من أسرار العدالة سرها الأعظم،
والذي يقسمها نصفين: نصف يعرف حكمته الإنسان، ونصف يعرف
حكمته آلهة العدالة، ودون أن يشعر تباعد عن المرآة، وقضى نحو
ساعة خلف المكتب مدثرا بالروب الجديد، ثم قام إلي المرآة في كرة
حاسمة، ووقف أمامها هنيهة يعاين خيالا مجهولا ما لبث أن تجسد له
في خيال مآته فني مصلوبا في وشاحه الأسود، ويقول له: أنا ضمير
المهنة! ويظهر أن الأستاذ صدقه فعلى غير المعتاد ظل مرتديا الروب
حتى غادر به المكتب، ولا يدري أحد إن كان قد عاود المعاينة في مرآة
بيته. نبرات الأم المحايدة صبرها لك وليس عليك. محاماة مرة أخرى!
لا يا أمه، رغم قهر البطالة، ورغم قهر الفراغ. أجل، ليس أقهر من
فاقة البطالة، ولا أقهر من الفراغ الذي يملكنها فهو الفراغ الذي تعدم
فيه الوسيلة، وتفقدنا فيه الغاية كأننا عدم من عدم الفراغ. حتى الفراغ
لا يملكه عاطل، ولا يملكه محامي مع إيقاف التنفيذ، أو محامي

محبوسا احتياطيا على ذمة الترافع وذمة العدل. وهو في إحدى جلسات المرافعة التي أخذ فيها الأستاذ سليم مبلغا لأتعاب تناسب الجريمة ولا تناسب حكم البراءة مال على أذن زميلته فائزة يقول لها:

- خطر لي الساعة أن المحاماة في أنسب تعريف لها: "رفع كلفة مع الجريمة".

فقالت ضاحكة:

- أنا سمعتها رفع كلفة مع فستان الزفاف!

فتبسم معتدلا ليعاين الأستاذ سليم الذي تشبث بحماسة المرافعة، وتقمصها السافر العنيد، والمتجاهل في إصرار متعمد شخص المتهم المائل عن يمينه في قفص الاتهام كما لو كان الأستاذ يترافع عن نفسه، أو يمثلها، ويتقمصها، وإنه لن ينتهي حتى تغتصب حيلة الجريمة حكم البراءة فيما بين قضبان المنصة وقضبان قفص الاتهام، ولما انتظروا النطق بالحكم؛ قال للأستاذ:

- المتهم الذي يطمئن لحكم البراءة متى ترافع وكيله عن نفسه مثل القاضي الذي يطمئن لحكم الإدانة متى ترافع المحامي عن نفسه وليس عن المتهم!

فضحك الأستاذ واثقا من منطوق الحكم، وقال:

- المرافعة ليست وشاحا أسود يصلبه خيال الفن المثالي، بل هي "روب" وراءه شخصية ملموسة الأثر نافذة المنطق؛ فإن لم تستطع أن تلبس روبك للقاضي، فلا أقل من أن تفصله على نفسك، وضميرك مستغرقا في حماسة المرافعة، ونشوتها الساطية بك وبالقاضي وبالمتهم حتى ولو كان متهما مشكوكا في براءته، وإذا كان القاضي يعتصم باليقين، فالمحامي البارز يعتصم بالشك متى كان الشك في

صالح المتهم، أو كان في اتهامه شبهة تدراً الحد عنه كما هو معلوم
فيما درست من الشريعة!

ذلك الدجال الذي يظهر لي في قاعات الجلسات ما إن يلقي روب
المرافعة على السادة المحامين يختفون كأشباح تسمع أصواتها
الرتبية، وكلماتها المحفوظة عن ظهر إجراءات جنائية، لا عن ظهر
قلب بشري. كلماتهم مستنسخة استنساخ أدلة الاتهام، وأدلة البراءة،
واستنساخ أسباب الحكم، ومنطوقه، وتستطيع وأنت محامي مستنسخ
أن تنطق بكل ما ينطق به داخل القاعة رجال القانون من محامين،
ونياية، وقضاء ولو كنت غائبا في مخدع غرام. ذلك الدجال الذي
يظهر لي داخل القاعات هو نفسه ذلك الحاجب الذي يظهر لي خارج
القاعات، ويمشي إلى جوارى، وهو يصيح في الناس بكلمته المهيبة:
"محكمة". لما قرأ في المكتب على زملائه المحامين قصة: "الحاجب
والدجال" استملح الأستاذ سليم بعض عبارتها من أديب ناشئ، ثم حكي
لهم حكاية الأستاذ مظلوم الشناوي صديق عمره، وزميله القدير الذي
بلغ من اقتداره أن امتنها التسول بديلا عن المحاماة على سبيل
التجربة العقلية المشاعة بينه، وبين الناس؛ إي أن تسوله ليس مد يد
للناس، بل تخلص من مرض معدي، ومن ثم هجر مكتبه ليظهر لهم
في الشوارع وهو يتناوب ارتداء روب المحاماة تارة، ووشح النياية تارة
أخرى، ووشح القضاء تارة ثالثة؛ فإذا بهم يحملون فيه حلقة من
يتهمونه بالجنون، ولكن ماذا لو حمل سماعة طبيب، أو عصا مدرس،
أو مسدس ضابط؟ أكانون يحملون فيه حلقة الجنون؟ ما لبث
الجنون في أعين الناس أن تحول إلى عاطفة متبادلة، ثم تحولت
العاطفة إلى إعجاب، ثم تحول الإعجاب إلى تقدير لشخص مظلوم

الشناوي، وبين نور وظلام للعدالة رجع الأستاذ مظلوم إلى مكتبه، وفتحه للناس، وقد داوم على انتظارهم ما بقى له من أعوام في حياته المتهالكة الوجيزة، ولكن أحدا من الناس لم يطرق باب مكتبه كأن المكتب لم يفتح بعد إغلاق، وكلما ظهر لهم في الحي وهو يرتدي روب الحمامة القديم نظروا إليه بعقولهم الباطنية إي باعتباره "مرض العدالة" الذي نقل وبائه إليهم، وكما عاين الأستاذ سليم قضبان المرأة وهو مرتدي روبه الجديد فقد كان الأستاذ مظلوم يعاين نفس القضبان في امرأة بيته وهو يرتدي روبه القديم، ولما باعد مرض العدالة بينه وبين ساحات المحاكم، ثم باعد بينه وبين الناس بهجرهم لمكتبه؛ ختم حياته مرتديا روبه، ووقوف أمام قضبان المرأة مدافعا عن ذلك المظلوم المائل فيها، واستهل مرافعته الختامية هاتفا في مظلوم يسأله: ماذا تكون المرافعة بغير روب؟ وماذا يكون الروب بغير مرافعة؟ وناده نداء المحتضر: يا مظلوم، إن للحق صوت هو المرافعة، وإن للحق رداء هو الروب!

وقد وصف جنازته أحد المحامين قائلا: "تلك الجنازة الغفيرة ترشحه للفوز بمنصب النقيب!" ولم ينسى الأستاذ سليم وهو يتقدم الجنازة أن يحمل روب زميله وصديق عمره، ثم اتشح به والجنمان يتهيا لوداع القبور، وناد على زميله: يا مظلوم، من ذا الذي ينكر أنك صوت من أصوات العدالة ورداء من رداؤها؟ ألم تحمل روب الحمامة على يدك كما يحمل كفته المطارد من ثار؟ ولكن رجال القانون لم يفقدوك بذبح ضئيل! يا مظلوم، سوف تظل العدالة مجردة المشاعر، أو فكرة عامة ملقاة على قارعة الناس، وقارعة القضاء، ولكنها لن تكون عملا نافذا إلا إذا حملنا العدالة على أيدينا ككفن نفتدي به ضمائرنا، فكلنا مطارد

بكفنه، وكلنا مطارِد بكفن العدالة، وإن لم يُفتدى الثأر بذبح عظيم حفر الناس قبر العدالة بأيديهم! يا مظلوم، العدالة كالسيف في يد الفارس فإن سقط الفارس سيجد السيف من الفرسان من يحمله متى كان صراع العدالة قائما على قارعة الناس، وقارعة القضاء. يا مظلوم، لم يختار أسمك والد ولا والدة، وإنما اختاره القدر حتى ترق لأسمك أفئدة الناس، وأفئدة القضاة. من منهم سمع ذلك النداء عليك بتلك العبارة الطريفة الشهيرة: "الأستاذ مظلوم المحامي"، من منهم سمعها ولم يرق قلبه لك، ولم يستبشر بما حملته من ظلم منذ خرجت إلي الدنيا رضيعا؟ وداعا يا رضيع الظلم! وداعا يا من حمل كفته للناس والقضاة ليفتدوه بذبح العدالة العظيم!

3

لم ير طارق قط "الأستاذ مظلوم المحامي"، ولكنه رأى روبه القديم يحمله الأستاذ سليم، ثم رآه معلقا في حافظة على حمالة تلي أرفف المكتبة العامة يكتب القانون، والدساتير، والسياسة، والتاريخ، والاجتماع.. ولعل الأستاذ لم يرتده ثانيا بعد الجنازة، وكان ينفذ التراب عنه كلما سهت عاملة المكتب عن تنظيفه، وكان زملاء المكتب يتحينون في مناسبات وخواطر متباعدة النظر إلى الروب، وقد يتحينون الفرصة لارتدائه إذا ما داهمتهم هواجس الظلم، أو رقة قلوبهم لأسم الأستاذ مظلوم، وناجت أرواحهم روحه المشرفة من عالم الغيب، وربما هيجت فاجعة الرجل أعصابهم فجنح بهم الهياج إلى تعاطي الهزل كمُسكن، وإذا بأحدهم يقوم للروب ويخاطبه خطاب

الجثث، وأن تحاشى لمسه، أو ارتدأه تحسبا من غضبة الأستاذ سليم، ويوسوس له آخر بارتدائه قائلا:

- الأستاذ سليم دفن الأستاذ مظلوم مرتين: مرة في القرافة، ومرة في مكتبه!

فسأله زميل يحسن الظن بالزملاء:

- أو تقصد أن الأستاذ يحيى ذكرى الرجل بتعليق روبه في مكتبه وبين كتبه؟

فمضى مع سوء وساوسه غير متريث وقال:

- أو جعل من روب مظلوم مزارا لعملاء المكتب!

ثم سكت من سكت، وترافع من ترافع عن الأستاذ. كان بيت طارق يقع من الحي العتيق في نطق أبواب القاهرة الثمانية. من جهة الجنوب باب قبيلة زويل وباب الفرج، ومن جهة الشمال باب النصر وباب الفتوح، ومن جهة الشرق أدنى تلال المقطم باب قبيلة البرقة والباب المحروق الذي يُسمى به الآن درب سكنه، ومن جهة الغرب باب القنطرة وباب سعادة. تلك هي أبواب القاهرة الثمانية منذ بنائها في ولاية قائد المعز لدين الله الفاطمي إذ يرصد لها المريخ النجم القاهر، وهي غير الأبواب الواحد والسبعون التي أحصتها الحملة الفرنسية إذ ترصد للشرق نجم الاستعمار، وكما انحصرت أبواب القاهرة في خيال طارق التاريخي، فقد انحصرت في خياله الفني محاكمها، ولم يبق منها إلا محكمة جنوب القاهرة القريبة من بيته، ويمكنه الوصول إليها من دروب وشوارع عديدة، ولكن خياله الفني قد آثر للعبور إليها بابا سفليا يقابل به الباب العالي في اسطنبول، ويبدءا شارع الباب السفلي من حوض، وسبيل، ومقعد، ومنزل، ومسجد "أبو الذهب" الذي

كوفى بولاية مصر بعد أن نثر ذهبه للعامة والفقراء، ثم رفع سيف الغدر على صهره، ووليى نعمته، ومن أخرجه من السجن علي بك الكبير وهو يكاد ينفصل عن الدولة الخلافة! كان يخرج من البيت في غاشية الصباح، أو غاشية ثقب حضاري تتراء فيه المحكمة الباقية كأفق فتنة يقف عندها زمن العرب، ويستحيل عليهم عبور الأفق حتى يروا بضائهم ضوء البداية، أو سواد النهاية، ويصلصل الذهب المنتثر، والمتساقط من ذلغ مئذنة أبو الذهب مع نداء الصلاة المرفوع من مئذنة الأزهر؛ فلا يحرك الناس ساكنا من شهوة وخشوع أو طمع وتعفف، وكأن تصلصل الذهب قد ضرب على آذانهم وقلوبهم. ما الذي يسمعه أبو الذهب الساعة من قبر مسجده: تصلصل الذهب، أم صوت الأذان؟ ولا يكاد يهبط إلى بوابة الشارع السفلي إلا وريح يأتيه من مشهد "حسين". ريح من نخوة الإنسان وقلبه الحي، لا هي شيعية أو سنية، ولا هي عربية أو فارسية، ولا هي هوس من دين أو طمع من ملك. هي ريح الإنسان المهاجر لفداء الإنسان. التفت يمينا يتنسمها، ويلقي التحية على آل البيت، وقد تهب لمح مشهد أبي الشهداء حتى لا يرى رأسه الشريف في يد ذلك الأبرص الذي قطعها مكبرا: "الله أكبر الله أكبر"، ثم نكروا مدفن الرأس للناس كما تنكر السياسة الحق والباطل، وتنكر صلصلة الذهب وصوت الآذان، ويجتاز مشهد أبي الشهداء ليصلصل الذهب المنتثر، وتبدو ذلغ المئذنة في أفق العرب طافحة بدماء كالمهل. كيف جمع التاريخ بين مئذنة الذلغ ومئذنة الشهداء على ناصية شارع بوابته سفلية، وفتنته ثقب حضاري كلما سقط فيه العرب توقف بهم الزمن، كأن وحيا لم ينزل، وقرآنا لم يُتل؟ في تلك الغاشية من الصباح طالما سقط في ثقب الحضارة الأسود غير

أنه لم يكن يعبر إلى حضارة أخرى، وإنما كان يرجع إلى ناصية الشارع بين الذلوع والمشهد، ولا يجتاز بوابته السفلية حتى يسمع صلصلة الذهب، وهناك تخرج له من الأرض "دابة المُلْك" وتكلمه باللغة الضاد. حرف العرب الذي تكلمت به رسالات السماء، ولما تكلم به سيف العرب سفكت دماء أبناء أصحاب الرسالات. ها هي دابة المُلْك تخرج من أرض العرب ولا ترصد في سمائم كأنها الذهب الأسود لا شعاع الضوء المحبوس في دهر حضارتهم، أو كأنها أشباح قتلاهم تخرج من الأجداث لا كلمة الله النابتة في الأرض لتذكهم بكلمة السماء التي أنزل وحيتها عليهم. ها هي دابة ملك العرب لا دابة أرضهم تكلمهم بحرف لغتهم: يا عرب، لقد امتطاني من قتلوا الأنبياء في أور شاليم مدينة السلام، كما امتطاني من قتلوا أبناء الأنبياء من منابرهم. هي صيحة البرية ورعدها المسموع: يا أور شاليم، يا أور شاليم، يا قتلة الأنبياء والمرسلين، هي تلك الصيحة، وذلك الرعد المسموع: يا منابر العرب، يا منابر العرب يا قتلة أبناء الأنبياء والمرسلين! ويغشاه الأفق ومهل دمائه فيسأل دابة المُلْك: أين رأس حسين؟ فتكلمه: في سبيلي قتل حسين، وفي سبيلي تنقلت رأسه في بلاد العرب ما بين كربلاء، وسورية، وفلسطين، ومصر. أنا من نكرت قتله للناس، وأنا من نكرت مدفن رأسه للناس. أنا من جعلت للحقيقة شهودا من القتلة، وجعلت للشهداء مدافن في قصور الخلفاء، والملوك، والسلاطين. من امتطاني حمل له التاريخ سيفا وقلما، ونفخ له الناس بوقا، ودقوا أجراسا، واعتلوا منابر، وإذا ما دخلت بوابة للنصر تركت خلفي بوابة للشهداء، وتسبقه دابة المُلْك إلى شارع كل العصور، وتزين له امتطائها قائلة: هذا شارعي الأعظم لم يرفع فيه آذان إلا

وسبقه الدعاء لمن امتطاني! فيصرف بصره عن غوايتها ناظرا إلى يساره حيث وكالة، وكتاب، ومسجد الغوري الذي غدر به وإلى حلب، وحماه، ولكنه لم يستطع أن يغدر بأيامه المتداولة في صلاة الناس، فتتظر دابة المثلث إلى حيث ينظر، وتكلمه: أنا خيال الحقيقة وواقعها الذي يفتر عنده قلب الإنسان، أنا القدر الذي يُعرف بأيام الناس المتداولة بينهم!، وكما خرجت الدبة من الأرض عادت إلى الأرض بينما سحب سماوية مخضبة بدماء الشهداء تهبط إلى الشارع السفلي، وعند تقاطع شارع بور سعيد، أو ملتقى السوريين: سور بدر الجمالي، وسور صلاح الدين. داهمه وجه المتواري خلف كتاب يتكلم عن الحروب الأهلية في القارة السمراء، ويرجح من أسبابها: "صراع الذكور والأنوثة"، وأن الرجل الأفريقي، واليهودي مثل الأنوثة المجني عليها عبر التاريخ الذكوري، ويفرق الكتاب بين حركة تحرير المرأة التي تطالب بحقوقها السياسية والاجتماعية والمدنية، وعلى الإجمال مساواتها بالرجل في كل شيء، وحركة التمرکز حول الأنوثة التي تطالب بتفكيك كل ما صنعه الرجل: التاريخ، واللغة، والرموز، وتطالب بعزل الرجل عن المرأة، أو بحلول كل منهما في الآخر حتى ولو كان الآخر مختثا، أو سحاقيًا، أو مثلي الجنسية؛ فلا يترك طارق خلفه تلك السحب المخضبة بدماء الشهداء حتى يغشها، ويعبرها إلى حيث يرى أفريقيا امرأة فجاءها المخاض إلى شجرة تجردت أغصانها من الثمار بينما مطر وبيبل يغمرها، ولا يزال رعد مسموعا: "ربي إني نذرت لك ما في بطني محررا" ويجاوب صوت الرعد كلمة للإبادة "سربرنيتشا" فيرى مآذن الأزهر فوق قمم جبال البوسنة، ويرى أول بيت وضع للناس لا يطوف به إلا ذقون الجاهلية، ويرى القدس في متحف بصحراء تغزلها

ريح عاتية، وتنعب أشباح الموتى فيراها تحرس جامعة العرب وسط مقابر المجاورين!

ما أقرب تاريخ الإنسان من تاريخ الأحجار. فجاج للزمن في كل ما يتخلل بيته، ويحيط به من آثار. بوابات، وقلاع، وأديرة، ومساجد، وبقايا قصور، وخرائب بيوت عريقة، وأبراج سور لا يتهدم في مكان إلا وبرز في مكان، وقد يلتقي سوران في ثقب حضاري متباعد الأزمان، كالتقاء سور صلاح الدين في القرن الثاني عشر، وسور جوهر الصقلي في القرن العاشر الذي شاهد المقرئزي جزءا طويلا منه على بعد خمسين ذراعا من سور صلاح الدين. ها هو يترك ورائه ملتقى سور الناصر وسور الجمالي، وينعطف إلى محكمة الفن لا العدالة، أو محكمة الإنسان لا القانون، ثم توسط أعمدتها الهائلة ودوي من الجدل البيزنطي يُسمع بين فراغها، وتلاه صيحة غاضبة من قضاة اليونان تطلب من المحامين المصريين الخروج من القاعات بما يشيعونه داخلها من هرج التنكيت، ونكاته اللواذع. هنا أسفل ذلك العمود طالما استلق للخيال، كما كان يقضي معظم الليل مستلقيا يوارى وجهه خلف الكتب كأنه يتوارى من الحق متى كان الدفاع عن الحق "حرفة" في عرف أرباب المهنة، فيقول للأستاذ سليم:

- إن كان الحق حرفة، ولو كان شمساً مشرقة فهذا يعني أن الإنسان يروق له الظلم!
فيجيبه ضاحكا:

- ولا نور الباطل يروق الإنسان يا أديب المحاماة!
فيحدثه بحديث صائد الإطلاق:

- كثير من الأسماك تنير ظلمات الماء بأضواء يخجل من حديثها الإنسان، إذ أن كلماتها موجات ضوء لا تخطئ معناها أسماك اليرقات التي خرجت من توها إلى ظلام الأعماق!

فيقارن له الأستاذ بين احتيال الافتراس في الأسماك، واحتيال الافتراس في الإنسان قائلا:

- أحقاب الزمن لم تضيف لاحتيال سمكة الحبار إلا أصباغ وألوان، وبقي احتياله الأول كاحتياله الأخير في الافتراس، ودفاعه عن نفسه، وكذلك الإنسان لم يضيف إليه التاريخ صفة جديدة ليست من صفاته القديمة!

فلم يخيب ظن الأستاذ فيه كأديب للأسماك أيضا، كما وصفه ضاحكا بعد فراغه من كلماته. قال طارق:

- الضوء لا يكاد تحصر موجاته وألوانه وكلماته، وما يستنير به الإنسان من تلك الكلمات حرف كحرف الضاد من لغة العرب. من أرد أن يكون عاشقا للحق وليس سمسارا له فليهبط إلى عمق الظلام فهناك أضواء للنفس تشبه أضواء الأسماك التي تتكلم بها!

لعله كان يهتك حُجب الواقع، وحُجب التاريخ بتواري وجهه خلف الكتب، أو باستلقائه أسفل أعمدة الخيال؛ فيخوض في ظلام الحُجب بضوء سمكة صاعق، وقد تعلم من الكتب: أن لا جديد تحت شمس التاريخ، ولا فوق ظلامه، وتعلم من الفن أن التاريخ لا يكتبه القدر وحده، ولا الإنسان وحده! أين روب الأستاذ مظلوم المحامي؟ لو أنه يظهر ويلبسك روبه، كما يلبس الأستاذ سليم روبه للقضاة. لو أنه يظهر ويشاهد مرافعة الفن بين أعمدة العدالة الهائلة، أو يدترك بروبه فيغمرك المطر الوبيل كأنه لافتات انتخابات النقابة تدفك حيا أسفلها،

ويرتل عليك آية القرآن "إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون"، ولكنه يسمع مناجاة كمناجاة الإثم والعدوان من وراء حجرات النقابة: الإسلام هو الحل، وكأن لا إسلام قبل الحل! الإسلام هو الحل لضمير الإنسان لا لشكل الدولة، وكأن لا ضمير قبل الدولة! نحن قضاة من أجل مصر، وكأن أغلب القضاة لا يعملون من أجل مصر! نحن الإخوان المسلمون، وكأن أغلب الناس ليسوا بمسلمين! نحن السلفيون، وكأن أغلب الناس غير مقتدين! نحن الصوفيون، وكأن أغلب الناس لا تصفوا قلوبهم لله! نحن المجاهدون، وكأن خير أجناد الأرض الذين خاضوا الحروب ليسوا بمجاهدين! نحن العلمانيون، وكأن أغلب المجتمع متطرفين! نحن النخبة، وكأن أغلب المثقفين ليسوا بنخبة! نحن، ونحن، ونحن، وما نحن هذه إلا القلة القليلة التي تملأ البلاد لغطا، وتشنيعا، وعبثا، وغرورا. أين أبو العلاء ليردد مع مصر الوطن: كلهم عابث كلهم مغرور؟! ويقولون في جحور الوطن:

- رأس الفتنة رجوع المرشد إلى أمريكا!

- أما أزار الفتنة فهي ثروات البترول في يد سفهاء العرب!

- أما سماء الفتنة فهي النظام المنبثق من الخراب أو الفوضى

الخلاقة!

- وأما مستنقع الفتنة فهو السلام البارد مع من يُقدون نيران

الحروب!

يا دابة الملك، أين رأس حسين؟ ونكرت مدفنها للناس ليعززون

ملكا، أم ليهدمون بيوتا و صوامع يُذكر فيها اسم الله؟

يا دابة الملك، أين بقايا عظام حسين في حوافر الخيل، أم شبه

لهم؟

وتسحقه لافتات الانتخابات أسفلها فيحتضر به النعاس، ويرى المحكمة الإلهية في ضمير الفراغة وكتاب موتاهم تظللها سحب الشهداء المخضبة بالدماء. تلك الأسطورة هي هي الحقيقة التي جعلت لها دابة الملوك شهودا من القتلة، وجعل لها حرف الضاد من لغة العرب فتاوى فضائية يقتل بها أبناء المرسلين والأنبياء.

4

لم يشتري طارق "روبا" للمحامة، ولا يذكر أنه توشح به يوما أمام القضاة، وكما استلم "كارنيه" المهنة من النقابة سلمه إلى النقابة، وليلتها ودعه زملاؤه في المكتب، وبمباركة صامته من الأستاذ سليم كادوا أن يلبسوه عنوة روب الأستاذ مظلوم، ولكن الروب المفرد الذراعين، والمعلق بين كتب القوانين، والدساتير، والسياسة، والاجتماع، والتاريخ لم يبدو له كخيال مآته طاردا للطيور، وإنما بدا في ثوب للعدالة اسود مهيب، وفي سكون للحياة لا يشبه الموت ولكنه رمزه الذي يُبعث لحسابه من كانوا أحياء. شخص طارق لروب الأستاذ مظلوم، وقال للأستاذ سليم:

- العدالة ديانة لا تموت إلا حين يرتدي ثوبها الإنسان!
فحابه بنظرة طويلة، وقال:

- العدالة ديانة لا تموت ولو ارتدى ثوبها شياطين الأنس والجان!
ومضت أشهر من البطالة في مطالعة الكتب، وفي هجرته اليومية على النيل كعلائق الماء، وبالتفاتة حانية كان صائد الإطلاق يستشعر قدومه وهو يصعد منحدر الجسر كأنما يستشعر سمكة الإطلاق

المهاجرة، وقد يتلقاه ملتفتا إلى عشاق الجسر، ويبسم له تبسم من يسأله عن رفيقته التي: "تأخذ قلبه وسمعه"، وتشاركه مسيره الواصب بجانب النهر، أو يبسم له تبسم من يحذره مصيرا كمصير من بلغ به الكبر عتيا، ولا يزال برفقة الأسماك، كأنه سيدها الخرافي يخرج إليها من كهف "حعبي" خالق نفسه، وواهب الخلد للزمن، ويحزنه تركه للمحامية فيبسم له تبسم الإشفاق من "عزلة الموهبة، ومن عبثية فراغها".. فيردد له طارق عبارة أينشتاين: "إذا لم تبد الفكرة من البداية عبثية فلا أما فيها"، فيصارحه: أينشتاين كان في معمل العبقرية بينما أنت في عزلة الموهبة، ولعله فراغها المستعصي عليك! ولكن فراغ الموهبة المعزولة قد حاذ إعجابه حين قرأ عليه وهما بالجسر قصة: "الدجال والحاجب" ورأى كيف جمعهما فراغ الفن في ظل يبيلب الناس؛ إذا ما اقتربوا منه رأوا أنفسهم فيه، وإذا ما ابتعدوا عنه تلون بتلون واقعهم، وقد يظهر لهم كمرشح لانتخابات النقابات، والنجوع، وحدود الدم، وقد يظهر كمهدي منتظر يستقبل موجات الغرب الالكترونية كأنها وحي السماء، أو يظهر "كمامون" إله المال، وربما البترول الذي تشعبت فيه الشعوب تشعب فرق الدين المتناحرة، وقد يظهر كجاسوس يشيد حوائط غريان بين شلالات أفريقيا، وصحراء العرب، وقد يظهر كمواطن في طابور خامس يجعل من الوطن وطنين، وقد يظهر راكبا "دابة المُلْك" ويكلم الناس بحرف من لغة المُلْك كحرف لغة العرب الذي تكلمت به رسالات السماء، وقد يختفي ظل "الدجال والحاجب" ولا يظهر إلا أمام كاميرات الإعلام الفضائي، وتتسلط عليه الأضواء المبهرة فيتلون بظلام العمل السري، وحيل السياسة، وأهواء رأس المال، ولوثة الدين، ثم يلتصق بالناس كظلمهم، أو كشبح يأتيهم أينما ولوا وجههم،

وإذا تذكروا أنه حاجب ابتليت قلوبهم بكلمة العدالة، وإذا تذكروا أنه دجال ابتليت ضمائرهم بكلمة الدين، وإذا دخلوا بيوتهم صاروا أمة في ظل كاهن دجل بالدين، أو صاروا دولة في ظل حاجب يُججمع بهيبة القانون! أشهر من البطالة انصرمت، ولولا أن توسط له قريب لأبيه من القرية ما توظف في الأزهر، ودرس العلوم الشرعية لتلاميذه المهاجرين مثله من شتى بقاع الأرض، ومن توفيقات التعارف بين طارق وقديس الإطلاق أن عرفه على الجسر بتلاميذه المهاجرين، والذين تعددت جنسياتهم، وأوطانهم: "من المحيطات المفتوحة إلى الأنهار الممتدة" كما هول عليه أحدهم، فمنهم النيجيري، والأمريكي، والهندي، والإيراني، والبريطاني.. عاد المصريين، ومنهم قاهريان من مواليد حي طارق العتيق في محيط سور القاهرة، عاكف تخرج معه من كلية الشريعة والقانون، والشريف وهو من وقف بعلم الشهادات عند الثانوية العامة، وكان ثلاثتهم يتوسطون لزملائهم المهاجرين في استئجار الشقق بحيهم قرب الجامعة، ما لم يكن زملاؤهم من سكان مدينة البعوث الإسلامية، أو إحدى شقق القاهرة القريبة أيضا من الجامعة بمدينة نصر، ولما شاهدتهم قديس الإطلاق وهم يصعدون مع طارق في الجسر التفت إليهم أو إلى جنسياتهم، و أزيائهم المختلفة، وتعجب في نفسه: كيف تكبر الإنسان على الإنسان، واستعلت الشعوب على الشعوب؟! فالجنس الأصفر يحسب وطنه هو مركز العالم ومحوره، والأمم الأخرى متطفلين مشردين، والجنس الأسود يعيب على الأمم أنها لا تأخذ بعاداته ومراسه، واليونان الأقدمون يحسبون الشعوب دونهم من البرابرة، والمصريون يحسبون الناس واليونان منهم أجلافا مستوحشين، والعرب يسمون غيرهم عجما، والعجم يأنفون من

عيشة الصحراء! وتساءل صائد الإطلاق وبينه وبين سرب الأمم المهاجر جسر من حضارات لم تصطدم إحداها بالأخرى عبر الأزمان المتعاقبة: كيف حارب الإنسان الإنسان؟! وكيف استعمرت الشعوب الشعوب بينما الإنسان هو المهاجر إلى الإنسان، والشعوب هي الهاجرة إلى الشعوب؟! ويعدد أسباب هجرة الكائنات فيجدها متقاربة حتى يشبه الإنسان الخفاش، والحمام الزاجل، والنمل، ولكن لا هجرة تشبه هجرة الإنسان إلى المعرفة، أو هجرة الضمير التي حمل رسالتها الأنبياء، ثم حملها من بعدهم الإنسان ذلك المهاجر في ضمير الإنسان، ود لو استطاع القيام من مقعده إذ يضافحهم تباعا، فكان يشد على أيديهم، ويبسم لهم في حفاوة كأنه سيد الأسماك يستقبل سريا مهاجرا من الحيتان، ولكنهم حيتان من نسل ذلك الحوت الذي التقم يونس عليه السلام؛ فلم يستقروا على الجسر إلا وهو يقول لهم: حوت يونس هاجر به وهو يُسبح في الظلمات! فاستثارت الفكرة خيالهم، وأيقظت قلوبهم، وطفقوا يستشهدون عليها بأن الريح العاصف الذي ضرب السفينة والقوا يونس منها لا يكون إلا في البحار المفتوحة! وتسبيحه في الظلمات الثلاث: ظلمة بطن الحوت، وظلمة الليل، وظلمة البحر لا يكون إلا في مجاهدة هجرة، وكذلك نبذه بالعراء وهو سقيم لتنتب له شجرة اليقطين! ثم انصرفوا من الجسر وهم يعاهدون قديس الإطلاق على العودة إليه، بينما قال لهم طارق:

– لا تنسوا حين العودة ثمار شجرة اليقطين!

ثم بقى برفقة صائد الإطلاق يحدثه عن تلاميذه المهاجرين، وعن حنينهم للعودة إلى أوطانهم بانتهاء العام الدراسي، غير أنهم لا يشرعون في توديع بلد الأزهر إلا بعد تجمعهم في بقعة لها تاريخ، أو

معنى من معاني الحضارة، سواء في ازدهارها وأفولها، أو في حربها وسلامها؛ وغالبا ما يصطحبهم القاهريون الثلاثة: طارق، وعاكف، والشريف، وقد يكون الوداع من رمال الأهرامات، وهناك يتسائلون عن الموت الذي سخر علوم الحضارة القديمة من فلك، وطب، وهندسة، وسحر، وكهانة، ولا يكادون يفرقون بين الموت في الأهرامات، والموت في معمل الفيزياء الحديثة، يقول مالك الأمريكي: - الفيزياء الحديثة جعلت للموت أكونا متوازية كأنها بديل الأهرامات، لو لا أن الإنسان يجد نفسه مكررا غير متناهي في تلك الأكوان الغير متناهية!

فقال الحج على من إيران ساخرا:

- هذه الفيزياء جعلت الحياة تبحث الموت كي تكرره، أو تسخره في السموات بعد عجزها عن تسخيره في الأرض!
وقال مبارك أحمد من قرى الهند:

- أو هي استبدلت تناسخ الأرواح بتناسخ الأجسام في عصر الضوء الذهبي الذي يرى الأجسام في المعمل أرواحا من جسيمات، والكترونيات، ونتر ونيات، أو يرها ضوءا!
فقال طارق:

- نحن نهاجر بالحياة والموت يهاجر بنا!

وقد يصطحبهم القاهريون الثلاثة إلى شارع كل العصور بآثاره الفاطمية، والأيوبية، والمملوكية، والعثمانية، أو الشارع الذي وصفه الرحالة والمؤرخون: "بالشارع الأعظم" بين بوابتي الفتوح وقبيلة زويل، ولما وقفوا أمام مسجد قلاوون بعمارته الفريدة قال مالك:

- نحن الساعة نسير في كل عصور الإسلام من خلال مرآة الحضارة!

وشرح ذلك برواية من الخيال العلمي بعنوان: "من خلال المرآة" كتبها الرياضي تشارلز دود جسون، وكانت المرآة "ثقباً دودياً" من يضع يده خلالها ينتقل فوراً من حقبة زمنية إلى حقبة زمنية، أو ينتقل من كون إلى كون، أو من فضاء إلى فضاء متصلين.. وكان طارق يسبق تلاميذه في التخرج من كلية الشريعة والقانون بأعوام قليلة، ومعظمهم درس عليه المواد الشرعية في المرحلة الثانوية، ولم تنقطع علاقته بهم إلى ما بعد تخرجهم، ونادراً ما تخلف طارق عن ليلة الهجرة، أو نهارها، فأستمع إلى مالك وهو يقيس عصور الحضارة الإسلامية في فجواتها الزمنية على فرض الفيزياء الزمني والمعروف بالثقب الدودي، أو جسر آينشتاين الذي ينقلنا من كون إلى كون بمجرد سقوطنا في نجم أسود. استمع إليه وجاره في قياسه متحدثاً عن النجوم السوداء، وما يحيط بها من حقول للجاذبية، وهي عبارة عن دوائر غير مرئية بها أفق يسمونه "أفق الحدث" أو نقطة اللا عودة؛ فإذا عبرنا أفق الحدث هذا لن نعود أبداً، إلا إذا سافرنا بأسرع من الضوء، وذلك مستحيل فيزيائياً، غير أننا لا نكاد نقترّب من أفق الحدث حتى يتوقف الزمن.. ثم قال لمالك:

- المراقب الخارجي لعصور الحضارة الإسلامية سيجد الزمن قد توقف بنا عند أفق الحدث، أو أفق الحضارة، وقد يتندر متندر، ويقول أننا دخلنا زمن الحضارة ولم نخرج منه!

فقال الشيخ مالك جاداً:

- أو دخلنا فخ الصراصير حيث لا شيء يمكنه الخروج منه!

فضجوا الطلاب المهاجرون بالضحك إلى أن قال عاكف:
- أي نعم! فح الصراصير الذي تفخخه بلدك أمريكا للأنظمة
الحاكمة في قارات الأرض!

وقال طارق:

- لحضارتنا نجم لم يمت. قد تستنزف طاقته أما ضوؤه فلا، وقد
نعبر أفق الحضارة لنرى الضوء المحبوس من مئات السنين وهو يدور
حول نجم الحضارة حتى يرجع بدايته الأولى!

وقال الشريف:

- أنهم يتحدثون عن أكوان غير متناهية كل منها فوق الآخر،
والقرآن الكريم يقول: " أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا".

ولما وصلوا إلى بوابتي الفتوح والنصر استعرض مبارك أحمد ذلك
الحين من الدهر الذي لم تكن فيه الأمة الإسلامية شيئا مذكورا؛ لا
هيبة، ولا قوة، ولا أموال، ولا علم، وإنما جهالة من ظلمة، أو ظلمة من
جهالة، فبعد أربعة قرون في حروب صليبية خرجت منها أمة الإسلام
غالبة قوية، ومرتفعة ترفع بناء الحضارة عن تخلف أعدائها،
وهمجيتهم؛ وإذ بها تنعزل عن العلوم العصرية، ثم تتوال عليها
الضربات من غارات مغول، وتتار، وحروب المسألة الشرقية التي
انتهت باقتسام تركية دولة الخلافة، أو الرجل المريض، ثم حملات
الشركات وأصحاب الديون، ثم حملات الاستعمار، والتبشير، ثم حملات
الاستثمار الدموية، ثم مشروع حروب بلا عنف، أو الفوضى الخلاقة
التي يتوارث فيها المتقاتلون الصراع على السلطة حتى آخر قتيل..
عشرة قرون من الضربات المهلكة وهي صامدة فحين تهلك بأحدها
الأمم! ثم قال مبارك:

- لم يعد السؤال كيف تخلفت هذه الأمة عن العلوم العصرية وإنما
السؤال كيف صمدت لتلك المهالك؟!
فأجابه طارق:

- صمدت بقوة الدين لذا وجب قتلها بالدين، وهذا ما تعمل له
أجهزة المخابرات، وربما سموا قتل هذه الأمة بالقتل الرحيم للمريض
المسلم، كما نهبوا من قبل تركة المريض التركي وهو بقيد الحياة!
واتفق الطلاب المهاجرون على أن الإسلام دين جميع الأجناس،
وان دولته هي دولة الأرض المتعاونة على البر والتقوى، وليس دولة
السياسة الزائلة، أو دولة الخلافة الموتورة الممزقة، أو دولة الملك
المتناحرة، أو دولة المنظمات العمياء بظلام السرية، أو دولة
الإمبراطوريات التي تخرج ولا تعود.

5

كان عماد يجلس بزملائه خارج الجامعة على الحيز الضيق من
سورها، والذي يضيق رصيفه بثلاثة من المشاة متجاورين، ولم تكن
هذه "بدعة" ابتدعها، وحجة عماد أن حرم الأزهر يتخطى قارات الدنيا
في تقسيمها الطبيعي، والسياسي، والمذهبي، والجنسي، والتصادمي،
ومنه تخرج رؤساء دول، ووزراء، ونوابغ في كافة العلوم، وكانون
يشاهدون ما يكتنف جامعتهم من آثار تشمل معظم العصور قديمها
وحديثها، وما يجذب لها من سائحين يكادون يمثلون العالم تمثيلا
حضاريا كما يمثلونه هم تمثيلا روحيا، وينظرون مع عماد إلى الشارع
المندثر في أفقه سور القاهرة وهو يقول: هذه البقعة التي تطل عليها

تلال المقطم يجتمع فيها ما قام عليه تاريخ البشرية: الحضارة، والدين، وعلى رأي المؤرخ توينبي: "التاريخ هو طريق الإنسانية إلى الله...". فما خارج الجامعة آثار حضارة أخذت مثل ما أعطت من حضارات الأمم، وما داخل الجامعة طلاب "دين" ربهم رب العالمين، فتوافدوا من بقاع الأرض توافد الحجاج ليعاودوا الهجرة برسالة التعارف، والضمير، ويستملحون "تخریجة" الشيخ موافي إذ ينفي البدعة عن جلوسهم خارج الجامعة على حيز سورها الضيق، ويقول لهم: بل جلوسكم خارج الجامعة وقد اختلفت أجناسكم، وقاراتكم "حجة" تشبه إجماع الفقهاء على أن حرم الأزهر يتخطى قارات الدنيا السبع! ومن وطأة التاريخ وتجلياته عليهم أن ارتجلوا لأنفسهم أسماء من ملاسبات التاريخ، وهي على نحو ما قصاص عادل مغفور الذنب عطوف السخرية؛ فمالك هو "الأمريكي الفصيح"، والشيخ موافي من قرى المنوفية هو الشيخ "أف لكم"، وآدم النيجيري هو "جحا النيجيري"، واحمد من قرى الصعيد وهو "الحفيد" لإمام من أئمة مشيخة الأزهر، وعمر من ريف بريطانيا هو "القروي شو" نسبة إلى برنارد شو الأديب البريطاني الأيرلندي الساخر، وعماد هو "هامان" من أبلغ فرعون الأسباب، وقد كان الأمريكي الفصيح أكثرهم فصاحة في "تحضير الأسماء" من مسها التاريخي كما تحضر الأرواح من مس الشعوذة، فهو يرجع بالأسماء إلى نقط مظلمة في تاريخ الإسلام، ويسميتها نقطة اللا عودة التاريخية التي توقظ في ظلامها الضمائر، وتلهم البصائر، وتستجيب فيها أمة الإسلام لدواعي النهوض، والإصلاح؛ فيسمي مبارك أحمد من قرى الهند "المهدي المنتظر ميرز" ويعني ميرز غلام أحمد إمام القاديانية، ويلخص سيرته حيث نشأ منقبضا عن الناس،

ومنصرفا إلى مطالعة الأسفار القديمة من كتب الشيعة، والسنة، وكتب الأديان الأخرى، حتى اعتقد في نفسه كما اعتقد أتباعه أنه هو صاحب الزمن الموعود، وجعل من علامات ظهور المهدي المنتظر خسوف القمر، وكسوف الشمس، وانتشار الوباء، وخروجه من الشرق، وسبق الدعاة الكذابين لدعوته، وقد زعم أنه المسيح المنتظر.. وقال أنه محدث، وليس مدعي النبوة، وإن كان في كلامه ما يشبه القول بالحلول فهو يتلبس بروح السيد المسيح، وروح "كرشنا" رب الخير عند البراهمة، ويسمي الأمريكي الفصيح الحاج علي من إيران "باب الدين" ويعني صاحب الدعوة البابية المنتسك الذي كانت تعاوده حالات الوجوم والغيوبة، والذي زعم أن جسده يستنزل إليه الروح المتشبه به من الشهداء والقدسين.. وزعم أصحابه أنه تلبس بروح الإمام علي رضي الله عنه؛ فنادي من ثم بأنه هو المهدي الموعود، وقد شغل الباب في حياته بالرياضيات الصوفية، وتسخير روحانيات الكواكب، وقد أمعن في هذه الرياضيات الشاقة حتى تراءت له الأشباح في الخلوات، ثم استفحل أمره، وهبت الثورة باسمه حتى سجن، ثم قتل، وألقيت جثته في خندق فأكلته السباع!

وكان عماد أقرب زملائه لمالك، ولا تمر أيام إلا وهو في شقته بالدقي، أو يأتي مالك إلى منزله بالدرب الأحمر، وقد خاض الاثنان في كل دعوة، أو جماعة، أو تنظيم، أو حركة، أو بدعة، أما بالمطالعة، أو التجربة الواقعية، ولا يكف مالك عن تعريف زملائه بتلك التنظيمات السرية، أو الباطنية في أمريكا، وأوروبا، إذ كانوا يظنون أن ظهور تلك التنظيمات مقصورا على الشرق! ولمالك ثلاثة أجداد لأبيه اعتنقوا الإسلام، وجميعهم متشيعون للفاطميين من آل البيت، وقد درس

الهندسة في بلده أمريكا، ثم عزم على أن يكون أول الدارسين في أسرته لعلوم الشريعة فالتحق بالأزهر، وهو متزوج من أمريكية مسيحية، وله منها ثلاثة أولاد، ورغم أن الهجرة من الأوطان إلى الأزهر تعدو كما يقول عمر أو القروي شو: شعيرة من شعائر التعليم الأزهري إلا أن للغربيين أمثالي أنا، والشيخ مالك عطف استثنائي هو عطف شبهة الإلحاد!

وبحق كان لهما في نفوس زملائهما عطفًا استثنائيًا، كما كان لفارق السن بالنسبة لمالك أثرًا في تطويع أي خلاف بينه، وبين زملائه، بل كانوا يقدرون توسعه في الثقافة، وتجرده في حب الدين، فأحبوا الجلوس إليه سوء في حرم الجامعة، أو المدرجات، أو جامع الأزهر، ولهم عبارة يرددونها كلما سأل سائل منهم: أين الشيخ مالك؟ فيقال للسائل: في حلقته بين مريده، أو يقال له: في حلقته السرية! إذا ما كان حديثه عن التنظيمات السرية، ثم صاروا هم من يبادرون بالسؤال، والبحث، ويؤكدون له ما سبق أن أكده لهم فيما هو متداول بين الباحثين: أن عالمنا تقوده من الباطن منظمات عالمية سرية، أو شبه سرية، وربما كانت الحكومات، والمؤسسات، والأحزاب العلنية الرسمية تابعة لتلك المنظمات في تأثيرها المباشر على السياسة العالمية، إذ أنها تؤمن، وتدعو إلى توحيد العالم تحت راية مبادئها، ونشر فروع تنظيماتها في أنحاء العالم.. وكم كانت دهشتهم ليس لأنها منظمات سرية تتوسل بالسياسة، وإنما دهشتهم من "باطنية" تلك المنظمات واعتقادها في الروحانية ورموز الإلهام، بل وصلتها العقائدية بالطوائف الدينية الباطنية الشرقية القديمة: مصرية، وعراقية، ومسيحية ويهودية وإسلامية.. والمثل الأبرز تنظيم "اتحاد الإخوة

العالمية" وهو اتحاد فدرالي يضم ممثلين من منظمات سرية، وشبه سرية فاعلة في أمريكا، وأوروبا، وسائر العالم، ومن أهدافه السيطرة على قيادات أمريكا، والكثير من قيادات الدول الغربية، ومن ثم السيطرة والتحكم في العالم، ولم يدهش أحد من الطلاب أن يكون تنظيم الإخوة العالمي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، كان له مشروع سري يخص الشرق الأوسط، وتتلخص أهدافه في الآتي: منع أي استقرار، أو سلام، أو تطور في المنطقة تطبيقاً للمبدأ المعروف: النظام ينبثق من الخراب! ثم لم يعد طالب من دفعة الشيخ مالك يجهل منظمة الوردة الصليب، والماسونية أو البنائين، وجمعية المتنورين أو المستنيرين، وجمعية الجمجمة والعظام، والنادي البوهيمي، وبلاد ووتر، وعائلة روتشيلد.. وكان عماد ينبه زملائه إلى أن مثله الأعلى في استقلال الرأي وحرية الضمير - الأستاذ العقاد - هو ما يعتمد عليه فيما يكتبه في الإسلاميات، وهو أول من أشار إلى تلك التنظيمات، ومنها منظمة "كو كلوكس كلان" والاسم على الأرجح من كلمة يونانية بمعنى الدائرة، أو عصابة من الإخوة. أعضاؤها من المحاربين القدماء في الجيش الأمريكي، وقد عرفت هذه الجماعة لفترة قصيرة باسم "عشيرة"، وإخفاء هوية أعضائها كانون يرتدون الأقنعة والعباءات، و"كلان" تنظيم عنصري يؤمن بتفوق الرجل الأبيض، وأساليبه في العنف لا حصر لها منها الإحراق على الصليب، والاختيال، والقتل الجماعي.. وكان لهذا التنظيم أكثر من ظهور نتيجة تدميره بالكامل نظراً لكثرة أعدائه من الساميين، والسود، وخصومه السياسيين، والمثقفين.. كما أحال عماد زملاءه إلى كتابات الدكتور المسييري في موسوعاته عن اليهودية، وكتابه اليد الخفية، ومن

المعروف أن المسيري كان عضوا في حركة "كفاية" وهي نفسها حركة أو تنظيم "كمارا" الجو روجي بمعنى "كفى" المكون من طلاب الجامعات، ويعز إليه إسقاط حكومة بلده فيما عرف بثورة الورود، أو ثورة الزهور، و كان للحركة اتصالات بحركة "أوتبور" الصربية وتعني "المقاومة" وهي الأخرى كان لها دورا رئيسيا في إسقاط سلوبودان ميلوسيفيتش، وكلتا الحركتان على اتصال بمنظمات غربية تساندهما، وتمدهما بالمال ومنها منظمة "بيت الحرية"، وكلتاهما حركة تتكون من خلايا ليس لها تنظيما مركزيا تخوفا من أن انحلالها قد يؤدي إلى تفكيك الحركة بجميع خلاياها..

وقد شارك عماد ومالك بعض زملائهما المنضمين لحركة "كفاية" في ندواتها، ووقفاتها الاحتجاجية، ولكنهما لم ينضما إليها، وعرف الاثنان بين زملائهما بتوافقهما الثقافي، والفكري، وبمجازفة الفضول، ولكن ما أكثر اختلافهما الباطني، وقد لخصه القروي شو بقوله: أنه خلاف بين من يمثل أمة من المهاجرين يغلب عليها هوى المقامرة، ومن يمثل أمة صبورة مستقرة، زرعت الأرض، وبنيت أول بيت في تاريخ الحضارة على النيل! وفيما كان مالك يغرق في ذكر المصلحين من المهديين، والثائرين، والسياسيين كان عماد يذكر المتطهرين، والمعلمين لأن أثارهم أبقى، وأوفق لكل زمان ومكان، ويقول له في حلقته بحرم الجامعة كلما أغرق في ذكر تلبس المهديين بأرواح الأئمة:

- والله! أننا لا نتخرج في أن نلبس أيا من طلاب الأزهر النابيين روح الأستاذ الإمام محمد عبده حتى يتموا رسالته في حرية الفكر، وتحرير العقول، وكشف عبث السياسة وفسادها!

وينظر إلى الشيخ مبارك أحمد الذي دعاه مالك "بالمهدي المنتظر ميرز"، وقال ضاحكا:

- كما أننا لا نخرج في أن نلبس الشيخ مبارك أحمد روح السيد أحمد خان الهندي الذي جمع ما ينتفع به من الحضارة الأوربية في كلمتين: العلم والخلق، وجعل شعاره كله في الدين المستنير كلمة واحدة يعيدها مرات وهي: علم، ثم علم، ثم علم، أو تعلم، ثم تعلم، ثم تعلم بغير انقطاع عن التعلم، أو التعليم!

وينظر إلى الشيخ "أف لكم" أو الشيخ موافي وهو من المأتمين بالسيد جمال الدين الأفغاني، ويقول:

- كما أننا لا نخرج في أن نلبس روح السيد جمال الدين الأفغاني أيا من تلاميذه النابهين حتى يكملوا حلمه في الجامعة الإسلامية، والتوفيق بين دولها، وكف مطامع ودسائس المستعمرين الجدد عنها!

فيقاطعه الشيخ موافي قائلا، أو مرددا عبارة السيد التي قالها في دول الأمة التي جمع عزمه في حياته كلها على التوفيق بينها:

- إنهم متحدين على الاختلاف مختلفين على الاتحاد مطاوعين للمستعمرين، والمستغلين جادين في خدمتهم كأنها فريضة من فرائض الدين!

وقد تعرف عماد في شقة الدقي على شاب في نحو الأربعين سعودي، اسمه عمر الشهري يدرس بالأزهر، وله رسالة دكتوراه بعنوان: "الفرق الإسلامية بين الدين والسياسة"، وكان الدكتور الشهري يعيب على صديقه مالك التناقض فيما يعتقدده، وفيما يرجوه من المصلحين، فهو لا ينفك يذكر الثائرين من مهديين، وغير مهديين، ثم ينحي على الشيخ محمد ابن عبد الوهاب صاحب الدعوة الوهابية الذي

أنكر على الناس البدع، والخرافات، والمغالاة بتعظيم الأبحار، والأولياء، كما أنكر عليهم رفع البلاء أو دفعه بلبس الحلقة، والخيط، واتخاذ الرقى والتمايم للوقاية، والتبرك بالشجر، والحجر، والذبح لغير الله، والنذر لغير الله، والاستعاذة بغير الله، والعبادة عند القبور، وأن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانا تعبد من دون الله، وأن الكهانة والعيافة والتطير والتنجيم من الشيطان، وأنكر على المتصوفة تأويلاتهم وخوارقهم.. واستشهد الشيخ بقول النبي عليه السلام: إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو، وقوله عليه السلام: هلك المتنطعون. هلك المتنطعون. هلك المتنطعون.

فيقول مالك لصديقه:

- نحن ننكر علي الشيخ تكفيره للناس، ودعوى الجهاد، ومبايعة محمد ابن سعود له بيعة الجاهلية: الدم بالدم، والهدم بالهدم.. أي دمي دمك، وهدمي هدمك!

فيقول له الشهري:

- ألم تسمع بهروب الشيخ من البصرة بعد أن آذاه الناس، وأخرجوه وقت الهجيرة؟ ألم تسمع بنجاته من عبيد الحريمة الفاسقين، وقد هموا بقتله ليلا، ثم نجاته من الفارس الذي سلطه عليه صاحب الإحساء، والقطيف؟ ألم تكن دعوة الشيخ هي: "لا الله إلا الله"؟ فماذا كانت دعوى ذوي النفوذ، والجهالة إلا تقديس الشجر، وتوثين الأولياء، والأبحار؟!

قال مالك:

- والله! ما أنكرنا علي الشيخ شيئا لم ينكره عليه أخوه سليمان صاحب كتاب الصواعق الإلهية!

فقال الدكتور:

- ولكن الشيخ سليمان لم يعمل عمل أخيه في نبذ البدع،
والخرافات!

فلم يسلم له مالك بذلك، وطلب رأي عماد، فقال:

- أظن أن الناس في البادية كانوا في حاجة لمن يزيل عنها
الجهالة، ويبدو لي أن الشيخ أعلن الجهاد على ذوي النفوذ ولم يعلنه
على الناس، وأنه غلا في التكفير لغلوهم في التوثين!
ويعرف الدكتور الشهري عن صديقه الأمريكي ما كان يعتذر به من
أعذار للحاكم بأمر الله فقال:

- أو تعتذر للحاكم فيما هدم، ولا تعتذر للشيخ فيما أصلح؟!
وخشي عماد على الخلاف الفكري أن تنحرف به المقارنة بين
الحاكم، والشيخ إلى خلاف مذهبي بين سني وشيعي، فقال يمازح
مالكا، ويحذر الشهري من المغالاة:
- أو تعرف أن الشيخ مالكا مهووس بأسرار الغموض مثل الخليفة
الحاكم؟!

فقال الشهري ضاحكا:

- أنا اعرف ما هو اخطر!

فحوقل فيه مالك بلحيته البنية الهشة، ولمعة عينيه من وراء
النظارة الطبية، كأنما يستحثه على ذكر ما عنده من خطر يجهله، فلم
يمهله الشهري أن قال لعماد:

- أو تعرف أن الشيخ مالكا ينتظر المهدي الموعود هو وشيوخه
المنتظرون في أنحاء كثيرة من العالم، وقد جعلوا من علامات ظهوره

خروجه من الكعبة، وابتلع الأرض لجيشه، ومحاربة القرشيون معه،
وجفاف بحيرة طبرية، وحكم إسرائيل للعالم، والكسوف، والخسوف!
فلم يكذبه الشيخ مالك وقال يذكره بما نسيه:

- ومن تلك العلامات إتمام المسيح الدجال لفتنته!

فقال الدكتور ضاحكا:

- والله! إنني كلما صعدت معه إلى جبل المقطم ظننته ينتظر
المهدي الموعود في ذات المكان المجهول الذي اختفى عنده الخليفة
الذي خرج ولم يعد!

وبالكاد تبسم مالك، وهام يشرح سيرة الحاكم كأنه مريد من مريده
ينتظر نزوله من السماء، ومما قاله مالك:

- أي عجب في أن يظهر من الباطنيين حاكم بأمر الله هو خلاصة
ما اعتقدوه في تجليات الأسرار، والرموز وهو مائل القوم فيما انتظروه
من الغيب في عصر التنجيم؟ شهيد من شهداء الحقيقة الذين علقوا
على صليبها، وصليب دسائس الملك، وهوس الاعتقاد.. فهذا برجوان
دساس القصور، والوصي على الخليفة الطفل يغمره غمسا في
شبهات الدسائس، وهامها الدردزي، والأخرم من حاشية الخليفة
المقربين يوسفوسان له بمذهب الحلول، ويخاطبونه مخاطبة الأرباب؛
فسكن الطفل المتشنج لمناظر الليل، ووحدة الخلوات، ويلمح الغيب في
الحوادث المشهوددة كأنه الحقيقة التي لا تزال تفتقد لمزيد من الإيمان!

وقد اتفق لمالك نادرة من نواذر رصيف الجامعة القاري حيث يبيع
"عم الشيمي" الكتب على سورها، ثم أنه ينافس طلاب الأزهر في قراءة
الكتب الغير أزهرية، ويشاهدونه منهمكا دون أن تصدر عنه بادرة من
تلفت لمن عساه يشهد له بثقافته الرصيفية، ولما كان التنافس يقتضي

التعرف على ما يقرأ يومياً، أو شبه يومي؛ فقد وقفوا إزائه وهو منهمك في كتاب مترجم بعنوان: "ألف باء النسبية" لاينشتاين.. سأله عماد مناديا:

- يا ترى يا عم الشيمي، أهو الزمن فوق الرصيف مثل الزمن تحت الرصيف؟

فسأله الشيمي من تحت نظارة القراءة:

- تفكر أنت أن الزمن داخل الأرض مثل الزمن خارج الأرض؟

فبسم الشيخ مالك للرجل، وقال يؤيده:

- ولا الزمن داخل صاروخ يسافر بسرعة فائقة مثل الزمن خارج الصاروخ!

فقال عم الشيمي هو في سكونية البديهة:

- الله هو خالق الزمن سواء تحرك الكون أو لم يتحرك، وسواء فهم الإنسان أو لم يفهم!

فقل الحج علي قوله تعالى: "وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر"، وقال:

- كاف التشبيه في قوله "كلمح" لتقريب المعنى إلى الأذهان، والمتصور أن أمر الخلق، وأمر الساعة لا يحدثان في زمن، أو أن زمنهما غير زمننا!

فأيده عماد مستشهدا بقول الإمام الغزالي أن الزمن وهم من أوهام الإنسان، كوهم السبب والمسبب؛ كوهم الماء الذي نظنه سبب الارتواء، وكوهم النار الذي نظنه سبب الإحراق، وكوهم الاحتكاك الذي نظنه سبب إشعال النار، في حين أننا لو أفرغنا حجرة من الأكسجين فلن يحدث الاشتعال أبدا؛ ولو تكرر الاحتكاك بالكبريت إلى ما شاءت

التجربة! وكذلك قد يوجد الماء دون ارتواء مثل ماء البحر، أو توجد النار بدون إحراق، أو يحدث الإحراق بدون نار.. المهم ألا يكون للمواد خواص خالدة تأثر في بعضها وقد تستغني عن الخالق، ثم استشهد أيضا بمثل من عنده قائلا:

- فضاء الذرة على ضآلته مثل فضاء المجموعة الشمسية على اتساعه؛ في فضاء الذرة بروتينات، ونيترونات، وكهارب، أو فوتونات تدور بسرعة ضوئية، وللكواكب، والنجوم سرعتها المعروفة في فضاء المجموعة الشمسية!
ويتساءل عماد:

- أين الفضاء في قلب الذرة الضئيل كقطر شعرة الرأس حتى يستوعب السرعات الضوئية؟ بل أين الفراغ، أو المكان ما لم يكن وهما من الأوهام؟! أو علاقة ذهنية كإشارة الضوء للمخ التي تصور لنا هذا قلما، أو هذه سماء، أو تلك قذيفة! لا فضاء في الكون، أو فراغ، أو مكان وإنما هي علاقة عقلية بيننا وبين المكان والزمان!
ثم ردد عبارته المعروفة لزملائه:

- من نسي حقيقة الموت لم يتقدم بنا خطوة واحدة في فهم الزمن سواء كان فيزيائيا أو غير فيزيائي!

ومال على عم الشيمي يفشي له سرا قد أفشاه من قبل لصديقه الشريف. قال لمثقف الرصيف مشيرا إلى الكتاب:

- آينشتاين كان حاخام طريق مثل شيوخ الطرق عندما فقد أحنى لنا طرائق السماء، وحبكها لننجو من كون إلى كون، كأنه المخلص الذي آت راكبا شعاع ضوء وليس حمار ابن أتان كم يعتقد بني إسرائيل!

فأحنى عم الشيمي رأسه على أسم آينشتاين بالكتاب، وذهل فيه
كمن يتبرك به، ولم يرفعه حتى ظهر خلفهم سائحان: رجل وامرأة في
منتصف الأربعين.. سألهم الرجل بالإنجليزية:

- من فضلكم أين مسجد الحاكم بأمر الله؟

فشخصوا إلى الشيخ مالك وكأن روح الحاكم قد تلبست به على
رصيف الجامعة القاري، وأوشكوا على الضحك لولا أنهم انتظروا لعل
الشيخ يكشف لهم عن سر الخليفة، فيما إذا كان قد قتل، أو مات، أو
رفع؟ ولكن حجا النيجيري افسد عليهم روعة الانتظار، وكصاحب
رصيف بيت الجامعة خطى إلى السائحين بجسده البني الضخم، واجتاز
بهما كشك السجائر، ثم أشار إلى مبنى شيخ الأزهر، وتركهما وهما لا
يصدقانه، بل ويكذبه كتاب الإرشاد السياحي في يد المرأة، والمصور
فيه مباخر المسجد الأربع التي كان الحاكم بأمر الله يبخر بها القاهرة.
تبادلا السائحان نظرة متسائلة: أين المباخر من هذه البناية؟! والتفتا
مبتسمين لهرج الضحك المركب من هيام الشيخ مالك في السؤال،
والتقاط جحا له، والصادر عفوا من الطلاب حاملي الكتب، والمختلفة
جنسياتهم، وألوانهم، وأزيائهم كأنهم مثال أفلاطوني لصورة العالم، وهم
من توسما فيهم الاسترشاد، والحفاظ على وقت السياحة. أوشك
السائحان على مغادرة الرصيف، أو الانصراف عن صورة العالم في
مثاله الضاحك المضحك؛ لولا أن جحا تطوع مرة أخرى في الرجوع
إليهما هربا من هرج الضحك، ولكنه خاطبهما بلهجته النيجرية
المحلية، كأنما يلومهما على أحجامهما عن مخاطبته بها حتى
يفهمهما جيدا، أو كأنما تذكر الرجوع إلى نيجريا، أو كأنما يخاطبهما
بما لا يفهمان حتى يستريح، ويريح، وإذا بهما ينصرفان عنه،

ويرجعان إلى صورة العالم في مثالها الأفلاطوني؛ مما أغر الضحك المركب، والشامل بالمزيد، ولكن عماد أشفق على السائحين رغم تضاحكهما، وبفراسته المكتسبة من عمله في بازار عاكف سألها بثقة:

- أنتما ألمان؟!!

فهشأ له، وسألته المرأة بجدية تتفرس جحا:

- وأنت مثله مصري أيضا؟

قال مجاوبا لبققتها:

- يظهر أن سؤالك يشكك في انتمائي أنا وهو لمصر!

فقالت:

- ويظهر أن إجابتك لا تنفي الشك!

وتدخل صاحبها قائلا بانفعال ظاهر:

- يظهر أننا قد أخطئنا بلد الحاكم بأمر الله!

فتدخل القروي شو، و سألها:

- أتريدان مسجد الحاكم بأمره؟

فسكت الرجل متعمدا بينما قالت المرأة باسمه لشو الأوربي مثلها:

- أو نريد الحاكم نفسه!

فقهقه جحا وحده لامحا الشيخ مالك كأنما يريد تسليمه لهما.

تمهل "شو" حتى فرغ جحا من قهقهته الجهورية، والمتلاحقة في

انفلات، ثم عاد يسأل المرأة مختبرا اطلاعها على سيرة الحاكم بأمر

الله:

- لم؟ أهو الحاكم نزل من السماء؟

فراقها استدرارك شو قائلة:

- لهذا النزول المرتقب جئنا من بلدنا!
فسألها شو:

- لكي ترفعينه ثانية إلى السماء؟
فضحكت مع قهقهة جحا التي استأنفها تحية لشو، ثم قالت:
- وربما أخذناه معنا إلى ألمانيا!
فأعاق الحج على رد شو إذ قال لها:
- حسبكما هتلر!

ولم يمهل المرأة، ولا أمهل الشيخ مالك، وقال ناظرا إليه في حدة
كمن يتذكر قنبلتي هيروشيما، وناجازاكي، أو البرنامج النووي لبلده
إيران:

- حسبكما هذا!
فضحك الشيخ مالك مرددا:
- أنا حسبكما.. أنا حسبكما!
وعرض على السائحين أن يكون دليلهما إلى مسجد الخليفة الحاكم
بأمر الله، ثم صاحبهما ملقيا السلام على الحاج علي وحده، وقال
للسائحين مزيئا لهما زيارته في إيران:
- إنه من طائفة "البهرة" الذين ينتظرون نزول الحاكم من السماء!

6

هم من علمهم طارق في المرحلة الثانوية كيف يختلفون معه،
وترك لهم كيفية الاتفاق في الرأي، ثم تعلم هو منهم بعد تخرجهم كيف
يكون الاختلاف والاتفاق في الرأي ثمرة الإخلاص، وتحية شكر

وإعجاب، فلا يزالون يتوافدون إليه وهم أوائل كليتهم، ويدخلون عليه نفس الفصول التي شاركوه فيها الإخلاص في الاختلاف، والإخلاص في الاتفاق، ومنهم من يؤثر تحية يده بتقبيلها قبل تحيته رغم تقارب السن، ورغم أنه لا يطلق لحيته مثلهم، ولم يرتدي ثوب الأزهر الفخور به، وكان يعتذر لهم عن ذلك بأنه لم يعتاد ارتدائه، وكما استقلوا في أرائهم استقلوا في تحيتهم، فتحية مالك لأستاذه رزمة كتب كأن تحيته منزلة ثقافية، وتحية الشيخ موافي تقبيل اليد عرفانا، وتحية القروي شو كلمات مأثورة تبقى بعد الهجرة، وتحية الشيخ آدم أستلم اليد بين كفيه مع انحناء كاملة كأنها التواضع الذي يذكي صاحبه، وتحية الحاج علي مصافحة طويلة كأنها الوفاق السياسي، وتحية الشيخ مبارك احمد حفاوة أرواح لا تخشى الحلول، وتحية عماد مودة خالصة لأخ اكبر يزينها احترام من نشأ معه في حي واحد، ومن مودته الخالصة لأستاذه أنه طالما نبهه، وحشه على استخدام وسائل "الإنترنت" التي صرفته عنها أولفته للكتب، ومن تلقاء نفسه حسم الأمر، وزاره في بيته مصطحبا معه مالكا وعمرا، ثم شرع في عمل "إيميل" لأستاذه، وصفحة على "الفايس بوك"، وموقعا لنشر كتاباته الأدبية، ثم أبدي رأيه في أهميتها كوسيلة لتيسير البحث، وللتواصل، أو التعارف بين الشعوب، والأهم خطورتها كوسيلة ليست بمنأى عن اليد الخفية لأجهزة المخابرات، سواء في بلبله المجتمعات، والتأثير عليها، أو تقرير مصيرها، ووافقه مالك، وشو، وأشار مالك إلى الشيخ "عمران" المولود بجزيرة ترينيداد في البحر الكاريبي، والمتخرج من جامعة الأزهر، وغيرها من الجامعات، والمعاهدة العلمية، وعمل في السلك الدبلوماسي، ثم رئيسا للدراسات الإسلامية لدى اللجنة المشتركة

للمنظمات الإسلامية بنيويورك، واستشهد مالك بمحاضرة الشيخ عمران الشهيرة في أستراليا عام 2003 ، والتي تحدث فيها عن سقوط الأنظمة العربية كقطع "الدومينو"، وخاطب أجهزة المخابرات الغربية قائلا: إنني الآن افشي أسراركم، وأتحدث عن الفن الذي تتقنونه، وهو فن أخرج الجماهير، وسوف تخرجونها لتهتف: الثورة، الثورة، الثورة.. ولأن الشيخ تحدث في السياسة فقد استهدفه، أو أجمع فيه النقيضان، يقول محبيه: أن فصاحة الشيخ هذه نابعة من هبة طبيعية تفاعلت مع عمله الذي لا يعرف الكلل كواعظ، وداعية، و"بركة إلهية بإخلاصه"، وقالوا: إن فراسة الشيخ عمران، وتبصره بالأحداث الآخذة في الظهور في عالم اليوم مصدر إلهام للمسلمين؛ بينما يصفه منتقدوه: "بالمعمم"، ويقول احدهم: هذا الرجل متأثراً جداً بنظرية المؤامرة وعالمها الخيالي الذي يستهوي عادة البسطاء، وأنَّ ما ادَّعاه لم يكن سوى ضرب من الخيال الذي كذبه الواقع! وتحدث القروي شو عن فنتين يصفهما: "بالفاشليين داخل أوطانهم، والمستخدمين خارج أوطانهم"، وأولهما فئة الدعاة من غير الأزهرين المبتوثين في العواصم الأوروبية، والذين تصنفهم حكومات تلك العواصم كلاجئين سياسيين، أو ألغام مفخخة سوف يفجرونها يوما "بالريموت" في بلادهم التي جاءوا منها، وثانيهما فئة النشطاء كيفما صنفوا: سياسيين، حقوقيين، مدنيين، وهم من يصفون أنفسهم بالنخبة حتى لا يصفهم الآخرون بالمستخدمين، أو الفاشليين! ويقول القروي شو: وهكذا يضع الغرب يده الخفية، أو يده السافرة على الدين والدولة في بلاد العرب الإسلامية! دين يمثل دعاة لا غاية لهم من الدعوة إلا السطو على الدولة، وعلمانية يمثلها نشطاء لا يعينهم دين ولا دولة، وإن عناهم أن

يكونوا هم النخبة لا العبيد كما أفهمهم، أو صق عقولهم عملاء شواذ يمثلون أجهزة المخابرات، وتقتصر مهمتهم على تجنيد: "فئرانا للتجارب" أو "عبيدا لقطار الحرية الأمريكي" الذي يسير بصق العقول من خلال منظمات حقوق الإنسان الغير حكومية التي يرتمي في أحضانها دعاة النخبة، أو فئران التجارب، وعبيد قطار الحرية الأمريكي، ثم ياستهويهم الظهور مع المشرفين على تلك المنظمات من قادة أمريكا! ويمثل شو: بمنظمة: فريدوم هاوس، وموفمنتس، وأكاديمية التغير، ورائدو كارنيفي، ومي بيس، وجلوبال فويسيس، وجوجل، وصندوق الديمقراطية.. ثم سأل شو الأستاذ الذي اجمع طلابه على اختلاف جنسياتهم، وثقافتهم على مخاطبته بالأستاذ لا الشيخ:

- أأست معي أن الغرب الأمريكي قد ملك على العرب دينهم، ودينهم؟

فقال طارق:

- سياسة الخراب الخلاق، بمعنى أن خراب الصراع على السلطة في منطقة حيوية لمصالح العالم قد يؤدي بالضرورة إلى خلق بدائل سحرية لأمريكا؛ حتى تأخر من أقول نجمها كقوة عظمى، فذاك هو الخراب الذي سيرتد على أمريكا، ويعجل بالقضاء على نفوذها، أو على ما تبقى من نفوذها، ورجال مخابراتها يعرفون أن العالم قد تهيئ للاستغناء عن أمريكا، ولولا أنهم يعرفون ذلك معرفة الحتمية التاريخية لخطر لهم البناء لا الهدم، فالعلاقات الدولية بين الأمم لا تبنى على الخراب إلا في سياسية الدول الشائخة، والتي سوف يستغني عنها العالم في الأمد القريب!

فقال عماد:

- ثمة حملات منظمة يستخدمون فيها كافة وسائل الاتصالات الحديثة حتى يمهّدوا لسياسة الخراب الخلاق، ومنها حملة تسفيه القادة العرب، والتشنيع عليهم بالخيانة، والعمالة، والفساد، والطغيان، والفجور، وحملة الترصّد بالجيوش العربية، ووصفهم بالعسكر، وحملة بتر أذرع سلطات الأمن، وغيرها من حملات الأمراض، والفقر، والجوع، والبطالة، والفساد، ونهب الأموال!

فقال طارق يطمئنّه:

- سيعلّم دجالون الدين عندنا وأبالسة السياسة عندهم أن الشعوب العريقة لا تفرز بنيتها السموم حتى تتداوى بها، ولا تستقبل بديتها الفتن حتى تتعظّ بغيرها، وقد تصنع تلك الشعوب الدجالين والأبالسة وهي مضطّرة ولكنها لا تصنع الأبطال إلا وهي حرة، أو متحفزة للحرية! وعاد مالك لبلده أمريكا قائلا:

- قد يعطي العالم ظهره لأمريكا وتظل أمريكا قوة عظمى بسلاحها لا نفوذها، ولكن ما أخشاه أن رأس المال الذي بنا أمريكا هو نفسه ما يهدمها من الداخل!

فقال طارق:

- أظن أن هذه مرحلة اجتماعية تالية على مرحلة أخرى، وهي حتمية الصراع بين من يملكون المال في أمريكا، فهو صراع الطبقة الواحدة الذي سينتفض على أثره كافة الطبقات!

وقال شو:

- وأنا لا استبعد ترحيب أوربا بالاستغناء عن أمريكا، ولعل الاتحاد الأوروبي أول من سيولي أمريكا ظهره، وقد يفتح ملف جرائمها باسم

الحرية والديمقراطية، وباسم حقوق الإنسان ومحاربة الإرهاب، وباسم
حروب الرد على شبهات السلاح النووي والكيماوي!
فقال عماد:

- من يصدق أن أمريكا ستكون عبرة لأوروبا في صراع الطبقة
الواحدة؟ طبقة رأس المال! من يصدق أن شعوب العالم الحر ستكفر
بديمقراطية رأس المال؟

ثم تواصل العائدون إلى أوطانهم مع أستاذهم عبر وسائل
"الإنترنت" المتحفظ عليها كأدوات لجريمة غير مكتملة، ولا يزال البحث
فيها جاريا، وقد انشغل طارق بما يبث في هواء بلاد العرب، أو ما
يسمونه بالشرق الأوسط الجديد، ثم أنه كان له مآرب أخرى أطالت
جلوسه على صفحات الفيس، ومساجلات الإميل، وذاك ما لاحظته
صائد الإطلاق إذ أنه لم يعتاد تغيبه عن الجسر، أو عزوفه عن هجرته
اليومية بمحاذاة النيل منذ أن كان طالبا بالثانوي، أو برعما من براعم
زهرة اللوتس تطفو به التدفقات الجارية في ظلال الليل القديم إلى أن
يقفل وريقاته على النجم المضيء، ولما تغيب عن إحدى مواسم
الهجرة ترقب عودته، ثم التفت إليه وهو يصعد في الجسر، ورد تحيته
قائلا:

- ماذا لو عرفت أن أحد عشاق الجسر صور بهاتفه المحمول
لحظة إطلاق سمكة الهجرة الصائمة إلا عن شعور صائدها؟
فسأله طارق سؤال من عاش لحظة للإطلاق لا مثيل لها:

- وأين هذا الكليب؟

فقال باللهجة تلومه على التغيب:

- سيعود به عاشق الجسر كما وعدني!

ثم فاجأه قائلا:

- عشاق الجسر راقهم أن ينشروا كليب السمكة الصائمة على صفحات الفيس، واتفقوا على أن يزيله بكلماتي: الصيد غايته الإطلاق!

فقال طارق:

- ولكي نفتح شهية العشاق، وغير العشاق على التعليقات سنعلق عليه قائلين: المطاردون للحقيقة هم من يطلقون الكائنات الحية بعد صيدها، ولكن هذه السمكة المهاجرة قد أطلقها صائد محترف تطارده الحقيقة!

فضحك صائد الإطلاق قائلا:

- صائد محترف تطارده الحقيقة حتى تطلقه كما تطاردنا الحقيقة في القارة السمراء! وسكت ليقول:

- ولم لا؟! فالحقيقة تطاردنا في قارتنا السمراء دون أن نسأل أنفسنا: لماذا نهرب من الحقيقة التي تطاردنا ولا غاية لها إلا إطلاقنا كصيد صائم مهاجر!

ثم قال لجليس "الإنترنت":

- عشاق الجسر يتحدثون عما تتحدث عنه! سأله باسم:

- وعما يتحدثون؟

قال واجما:

- إنهم يتحدثون عن حملات يستخدم فيها كافة وسائل الإنترنت، وتنذر بسقوط الأنظمة!

فنظر طارق إلى ندى الليل القديم المتراكم في أفق النهر، وقال:
- لقد مرت بنا الحملات الصليبية، وحملات التبشير، وحملات
الاستعمار، وحملات شركات الديون، وحملات تقسيم تركة الخلافة
المريضة، وحملات الاستثمار الملطخ بدماء الماس، ودماء البترول،
وها نحن نعيش حملة الاستخبارات الصاعقة لعقول الشعوب!
وتريث طارق، وقال:

- ولكن المناعة في الصعق، فالشباب الجالس الآن على صفحات
الفيس والتويتر هو الذي يبحث، ويحقق، ويتحمل مسؤولية وطنه،
وينشر ما يستقصيه من حقائق، وما يفضحه من أكاذيب، وقد
استوعب عن جدارة أسلوب الدعاية الشيطاني في "قلب الحقائق" فيما
ينشر من رسومات تسيء للنبي الكريم، وهي من أسرارهم المعلنه،
ويستهدفون بها القضاء على رموز العرب الروحية، وذلك ما وعاه
الشباب. فقد نشر تلميذي عماد تعليقا بصفحته على هذه الرسومات
يقول فيه: قالوا لنا الإسلام انتشر بالسيف حتى لا نقول لهم أن
الإسلام انتشر بالأسوة الحسنة.. لقد قلبوا لنا الحقيقة، أو المعجزة
التي ستبقى ما بقى الإسلام!، فتبار زملاؤه في الجامعة وغير الجامعة
يعلقون، وقال أحدهم: لا الدول، ولا الجماعات سواء كانت مسلحة، أو
غير مسلحة ساهمة في انتشار الإسلام.. هي القدوة الحسنة التي
أسلام بها جارودي، ومشاهير العالم! وآخر علق يقول: كلمة واحدة
موصوفة هي معجزة الدين في بساطته وإيجازه "أسوة حسنة" لنا في
الأنبياء! وعلق آخر: لقد جعلوا من تلك الحقيقة منقلبا لا وسط فيه
يسمح للعقل أن يسأل: كيف انتشر الإسلام بالسيف، والقرآن يقول: "لا
أكره في الدين قد تبين الرشد من الغي"؟ أو يسأل العقل: كيف انتشر

الإسلام بالسيف في قارات لم يغزوها، أو يرد عدوانها، أو يؤمن حدوده معها؟! ثم مشى طارق إلى السيارة، واحضر المقعد، وجلس لسمع صائد الإطلاق يقول:

- عشاق الجسر قلقون من عواقب التغير، ولا سيما أنهم يجهلون دعاته، وقد سألوني، وأنا الشيخ الفاني: هل مصر في حاجة إلى تغير، أو ثورة؟! فقلت لهم أن الثورات تقوم حين يئأس الناس من السؤال، وأنتم ما برحتم تتساءلون! والتفت إلى طارق يقول:

- أنا أسن من الرئيس مبارك وما يربيني في دعوة التغير، أو الانقلاب عليه بدعوى التوريث أن ما تبقى للرجل في الحكم أشهر قليلة، والرجل لم يحدث أي تغيرات في أجهزة الدولة السيادية حتى نقول أنه يمهد لأبنه.. كل من في الحكم مع مبارك شيوخ سيأخذهم معه بعد أشهر ويرحل، ففيم العجلة إن كانت النوايا حسنة، ففيم العجلة والمخاطر ومقامرات الشرق الأوسط الجديد تحيط بالأوطان؟! قال طارق فاحصا صلابة الزمن لا وهنه في وجه المقاتل الذي

حرر نفسه من الأسر وهو وحيد في رمال سيناء:

- من أسرارهم المعلنة القضاء على رموز العرب الروحية، ورموزهم القومية، وقد يفعلون بقيادة العرب ما فعلوه بصادام، ومن أسرارهم المعلنة أن يثيروا غرائز الجماهير لتخرج هاتفة: الثورة، الثورة، الثورة.. وقد نبكي على الشهداء، ونغني للثورات، وقد نرفع رايات للنصر، وننكس رايات للهزيمة، وقد يستعلي السني، ويستضعف الشيعي، وقد تسقط الأنظمة، وتصعد الذقون، وقد ينتقم كل طامع، أو موتور، أو مقامر، ويستذل كل خصم، وقد نؤله الكذب، ونشيطن

الصدق، وقد نجعل الباطل حقا، ونعجز عن جعل الحق باطلا، وقد
نزيف التاريخ، ونزري بأبطاله، ولكن الحقيقة سوف تطاردنا ولو كنا
في مقابر الثورات الفاضلة، أو كنا في أغلال الذقون مُحرم علينا
الإطلاق!

فبثه حزنه:

- لا شيء يؤرقني فيما تبقى لي من العمر إلا القضاء على
الجوش العربية بمرتزة الدين، ثم القضاء على مرتزة الدين بمرتزة
الدين!

قال طارق:

- أمريكا والغرب يظنان أن مرتزة الدين مثل عصابت الهجانه
الصهيونية يمكن اتقاء شرها بتوطنها في الأرض!
فقال يستأنس برأي معلم لجيل ثالث قد شاهد كيف يختلف الطلاب
في الفصول، ومدرجات الجامعات، وعلى صفحات الفيس:
- ثلثي المجتمع من الشباب!

قال طارق:

- اطمئن، الشباب يختلفون في ميولهم العقائدية، ونزعاتهم
الوجدانية بين أزهرى، وسنى، وشيعى، وصوفى، وسلفى، وإخوانى،
ولبرالى، ومتفرنج، ولكنهم متفقون بغير اتفاق على مبدأين، وهما: لا
تكفير، ولا حمل سلاح!
فسأله:

- وشباب الإخوان؟

قال:

- شبابهم في مرحلة التعليم الثانوي يستحون من الجهر بالتكفير،
وحمل السلاح!

فسأله:

- أليست هذه هي التقية لحين تتمكن؟

قال:

- التقية نفاق سوف يفضحه الاصطدام بالواقع لا محالة، وأظن أن
الاستحياء من الجهر بالتكفير وحمل السلاح شعور لا يهمله باحث!
وافقه قائلا:

- أجل! فالتعود على الاستماع لمن يختلفون معنا يزكي في النفس
خلق الحياء من الحق، والتسامح مع الباطل!
فقال طارق:

- شباب الإخوان سيخرج إلى النور حتما بعد جيل، أو جيلين،
ولكن ماذا سيكون ثقل الإخوان السياسي إن تجردوا من بركة الدين بعد
جيل، أو جيلين؟!

فأجال صائد الإطلاق بصره في عشاق الجسر المزدهم بهم
الرصيف المقابل، ثم سأله:

- متى تتزوج أنت؟ ومتى يتزوج هذا الجيل من العشاق؟

وسكت طويلا ليقول:

- إن ضاقت الأعوام بين الأجيال ضاقت بهم جميعا علوم
الاقتصاد، وقد تضيع الأجيال بين دجل السياسة، ودجل الدين، ودجل
الإعلام!

ولاحظ في يده الهاتف المحمول الذي لم يحمله من قبل، ولم
يبتاعه يوما، وإنما ابتاعته أخته لتطمئن عليه غير أنه كان يسهو

عنه حتى عرف تلك الفتاة، وكتب عنها تغريداته على صفحة الفيس
بغنوان: "أنا وهي على أثير الهوى". تبسم صائد الإطلاق، وسأله:

- ما الجديد عن فتاة الجزيرة العربية؟

بسم طارق قائلا:

- إن شاء الله سأعتمر، وربما التقى بها في الحرم المكي!

سأله بلهجة محفزة:

- ومتى ستكون هجرة الروح والقلب؟

قال كطائر صائم صيام الهجرة:

- إن شاء الله في شهر الصيام!

7

منذ أنشاء عماد لأستاذه صفحة على "الفيس" وهو يوالي نشر ما
سبق نشره في الصحف من أعماله الأدبية، ومنها قصة: "عصا
سليمان" التي نالت أعجب قراء الفيس. بطلها شاب سكندري ولدا
بالقاهرة، أو بحي جدته القرير في هالة القدم حيث تحيط به أسوار
القاهر، ومآذنها، وقبابها، ومناراتها كأن أحجارها مادة مخروطة من
أحجار سماوية، وتقول له جدته: أنت مولود هنا في حي السيدة
النوبية، جاءت أمك من الإسكندرية وهي تحملك في بطنها، ويوم مولد
"ستنا فاطمة" حفيدة النبي استقبلت دنيتك! فالقاهرة هي بدايته المقترنة
بتلك البداية المباركة، وما فيها من تجليات لأهل البيت على ربوع
مصر وأهلها، فكان يسافر كل مولد إليها، ويحس بهددة القطار كأنها
الحياة تحمله صوب غايتها، فيما كان الواقع خارج نافذة القطار وعلى

مرمى البصر يطويه السفر كما يطوي الزمن قرص الشمس القاني،
والجاري في استباق مع القطار، ثم يطوي السفر عمر الطفولة، وعمر
المراهقة، ولا يمنعه عن مولد السيدة النبوية إلا المرض، وترتفع درجة
حرارته إلى جحيم، وتهبط إلى هاوية، ثم تعتدل كأن المرض شفاء؛
ويجد نفسه محصورا داخل شارع النبي دانيال، وفيما كان يبحث عن
منفذ للخروج يهتف به هاتف يستحثه على التنقيب في بطن الشارع
حتى يجد الشاطئ، فيشرع في الحفر، وينزل إلى سرداب يفضي إلى
مغارة، ثم يخرج من المغارة إلى بيت صغير يشبه المعبد يحيط بقبر،
وقد أجمع عنده أناس يكرمون ذا القرنين، وأناس يمجدون النبي
دانيال، فيسألهم عن موكب المولد؟ فيستحثه المكرمون، والممجدون:
على السير إلى الشاطئ!

ويطوي شفاء المرض المغارات، والسرايب ولكنه لا يصل إلى
الشاطئ، ويخرج من سرداب إلى ضريح فخم مكتوبا بأعلى بابه:
"السوما" أي الجسد، وتأتيه أصوات من الناحية الغربية للشمس،
فيسعى إليها ليجد المحنطين يبذلون غاية جهدهم في حفظ، وتطيب
رفات دب فيه التعفن! يسألهم:

- لمن هذا الرفات؟

فيجيبه محنطون مصر وبابل:

- هذا رفات الفاتح العظيم!

وكالصدى لعبارة المحنطين يُسمع صيحة تهون من مجد الجبابرة،
وتأتي من الناحية الشرقية للشمس: "أين ضريح الإسكندر اليوم؟
خبروني!"، فيسأل الشاب المحنطين:

- صيحة من هذه؟

فيقولون:

- هو صوت يوحنا فم الذهب!

ويطوي شفاء المرض مغارات الفتوح وسرايب المدن الغابرة، ثم يسمع هديرا للشاطئ، فيتبع صداه إلى أن يصعد درجات رخامية فوقها درجات، ولما يدنو من هدير الشاطئ إذ به يعود إلى شارع النبي دانيال، ويجد أدوات الحفر كأنه لم يتركها، ولم يفتر قلبه عن التنقيب، وفيما يشبه الهاتف الأول يلتف إلى فتاة تخرج من الكنسية المرقسية، وتأتيه وهي في وهج من الشمس يتخلله المطر، ويراه في ثنايا الوهج تصعد أدوار بيت جدته، ثم تدخل إلى حجرة الصور المعلقة بجوانبها، وما إن تجلس على كنبه جدته تفعل مثلها، وتقص عليه مناسبات الصور. في هذه الصورة الشيخ فتحي رفيق جده في الحج يتقدم جمل المحمل بينما كان الزعيم سعد زغلول، ورفقاؤه بالمنفى والشعب كله متوحدا على كلمة واحدة هي "الثورة"، وعلى فداء زعيم واحد هو "سعد"، وتنددن الفتاة بأغنية الشعب للزعيم: "يا بلح زغلول يا بلح.."، وبهذه الصورة أبنيتها نبيلة وزوجها عبد الحكم شاب من الإخوان، والده من تجار زاد موكب المحمل، وتردد الفتاة ما قصته جدته: عبد الحكم تزوج نبيلة قبل حريق القاهرة بأيام! وبهذه الصورة أمه تجلسه أمامها على سور شاطئ جليم الخشبي، لم تقص جدته مناسبة هذه الصورة، ولم تكن بقيد الحياة لتسمع أمه وهي تقول له:

- في شتاء هذا العام اغتيل السادات!

فقال لها:

- ولكنه لم يميت!

سألتها الفتاة من ثنايا الوهج:

- وماذا قالت والدتك؟

قال:

- صمتت صمت الاغتيال!

سألته:

- هل صدقت يوما أن السادات مات؟!

قال:

- في كل يوم كنت أصدق أنه اغتيل عند رمز الجندي المجهول.

اغتالوه هناك حتى لا يكون لنا رموزا!

فتسأله:

- ومن هؤلاء الذين يغتالون رموزنا؟

قال:

- سيظل اغتيال السادات من أسرارهم المعلنّة، أم موته فهو سر

الشهادة الذي يجهلونه!

ويخفي الوهج والمطر وجه الفتاة، ولا يدري أن كانت تسمعه وهو

يقول لها:

- دائما ما أرى السادات جالسا في رمال سيناء على عرش من

صخورها، وقد اسند رأسه على عصاه بينما اكتنف كرسي العرش ناصر

ومبارك، وهما يؤديان التحية العسكرية إلى أولئك الجنود الذين يحملون

على أكتافهم رمز الجندي المجهول، ولا يكادون ينصبونه في مقامه

برمال سيناء حتى يظهر الجان وهم يحملون تابوت الاغتيال!

فيسمع صوت الفتاة يسأله:

- أتريد أن تقول أن اغتيال القادة سيعود بالجان إلى سيناء؟

فأكد لها:

- لن تأكل دابة سيناء عصا السادات!

ثم يشف الوهج، ويصف المطر بوجه الفتاة فيعرفها.. أنها فتاة مكتبة الدير التي استلمت منه الكتاب المستعار، ووقفت معه بحديقة الدير تتأمل أشعة المطر في أضواء المصابيح، ثم أنشدته بعضاً من أشعارها، ولكنه كان يبتعد عن كلمات شعرها كلما حال جمالها بينه وبين التأمل فيه، وكلما عاود النظر إليه نظر إليه جمالها ولا يعطيه فرصة للتأمل، أو حتى النظر كأن جمالها معنى من وراء الحواس! لم يعكس الضوء شيئاً من ملامحها، وإنما في ملامحها ضوء يعكس معنا فريدا ودوداً من معاني الجمال! سمعته يهمس:

- ما ألطف بنات شعر الشتاء!

فتبسمت، ولكنها قبضت تبسمها من إن لمحت تأمله الشره المخيف. قالت تحيل بينه وبين التأمل:

- وما أعبت بنات الشعر شتاءً وصيفاً!

قال:

- في العبوس إغراء!

فلم تعبئ بخطر التأمل وشره قائلة:

- إغراء بماذا يا متهور؟!

شجعت كلمة التهور ودلال نبراتها فقال:

- بالصعود ورائهن!

فحذرت بدلال تبسمها قائلة:

- منهن من تسكن الغابات!

كاد يدور حول عمود الإنارة وحولها وهو يقول:

- هنالك تكون المغامرة بطولة!

فتأملت أشعة المطر في أضواء المصابيح، وقالت متوددة:

- ومنهن من تسكن الدير!

فسكن مغمما:

- أنت! أنت أقوى من "جولدا مائير"!

ضحكت تسأله:

- ولماذا جولدا مائير؟

قال:

- لأنها أقوى رجل في إسرائيل كما داعبها السادات وهي تستقبله

في مطار بن جوريون!

8

تعرف طارق على نشاط الفيس، والتويتر، وغرف المحادثات، ويتعبير وجودي فلسفي وصف ذلك النشاط الإنساني العابر للقارات: "بالمجتمع المضاف إلى غيره" ؛ أي مضافا إلى الواقع، وإن كان الواقع كاذبا، أو مشوها، أو باطلا، أو متناقضا في وفاقه وشتاته. مجتمع مضاف إلى غيره، وموجود هناك كنشاط إنساني قد يصدر من نفس أسقمها الواقع، وقد يصدر من نفس مبهجة بالواقع، وقد يستوي لدى العابر إلى مجتمعه الافتراض الدخول فيه، أو الخروج، وإن كان الخروج منه أصعب لمن دخله غير مختار، ومن الذين دخلوا إلى ذلك المجتمع العابر للقارات وهم مختارون ما يصفهم طارق: "الذين لا ينتظرون هناك"، أو قراء الفيس والتويتر، فهم رحالة مستكشفون، همهم الأكبر المعرفة: معرفة النفس، أو معرفة الإنسان. كلهم يرحل

بهمه إلى همك، ويحلّمه إلى حلمك، وكلهم ينشد أفضل ما فيك لتعرف أفضل ما فيه، وكلهم يقربون إليك المجهول حتى تقربهم إلى نفسك، وقد يمرون على صفحتك وتحية إعجابهم وداعا إلى لقاء لا وداعا إلى فراق، وقد يمرون على صفحتك وكلمتهم المكتوبة نقدا يعيدك إلى نفسك، أو إطرءا يكمل معك الطريق إذ أنهم لا ينتظرون هناك. هؤلاء القراء الرحالة المستكشفون هم الذين صنعوا مجتمع الفيس العابر للقارات، ولم يصنعهم يوما ذلك العالم الأثري، ولكن قليلون هم أولئك القراء الذين لا ينتظرون هناك، ويأتون إليك من قارات الدنيا السبع. كان طارق على صفحته يقرأ الرسائل، والتعليقات، والخواطر، والمقتبسات، وما ينشر من أخبار العالم، والعرب في السياسة، والفن، والثقافة، والغرائب، ثم ظهر له طلب صداقة، وكالمعتاد وافق عليه غير حافل لمن هو، وانقضت لحظة، وفتح الخاص عنده وإذا بصاحبة الطلب تشكره على قبول الصداقة، ثم يدور بينهما حوار بالغة فصيحة إلا ما ندر، وكلما استرسل طارق معها شعر أنه يتذكر ذلك الحوار ولا يرتجله في لحظته. حوار حدث، ويأتي من زمن لا مكان له، أو يأتي من ماضي حاضره تذكر، ومستقبله حلم، ويتفقد قلبه فلا يجده، ويرجع أنه قد أسلمه هذه الفتاة من لحظة موافقته على صداقتها. ما ذاك العنفوان الساطي بالقلب؟ وما ذاك الحضور الذي يرق بالقلب، ويبعثه روحا تصبو إلى تيه الرمال؟ شعور لا عهد لك به فكيف يأتي من مناط القلب البعيد؟ هو الشعور الأول، ولعله الأخير. أنت في سماء الهجرة إلي هذه الفتاة. يقين من الحب لا يكذب القلب عنفوان سطوه، ولا يكذب حضورها الذي يبعثه روحا، ولا يكذب شعوره الأول بها، ولا هجرته كطائر يهتدي بجاذبية الحب كأن القلب يعرف من هي، ومن

تكون. كأنه شاهد جبال "قريتها" وهي تنشق عن روحها لتجذب طائر الهجرة إلى موضع البعث. كأنه شغف بقلبها وهو يطوي رمال الجزيرة ليخبره بالنبا في كلمتين: أنا قلبك، أو أنا خيال الحب وجناحان الحقيقة! ويتجدد الحوار بين قلبيهما تجدد الليل والنهار، أو تجدد شلال النهر من مصابه، أو تجدد البداية التي لا نهاية لها. ترحب به قائلة:

- مرحبا!

فيقول:

- أهلا بنقاء القلوب!

- أهلا! أهلا!

فيسألها، أو يسأل قلبها:

- ما أخبار قلبك؟

- الحمد لله! بخير، وأنت ما أخبار قلبك؟

- يهفو إلى دياركم!

- جميل! ثم كيف تكون مغرورا غرور الطائر والبحر؟

- من حق الطائر أن يزهو بطيرانه لأنه حين يطير فهو يطير من

اجلنا، ويظهر أن الحرية غريزة لا نختارها إلا حين نراها في غيرنا لذلك

غرور الطائر بحريته يجعلنا أحرارا مثله، أما غرور الصلف، والادعاء

فهو غرور النقص، أو غرور الاستحواذ على الآخرين!

- أنت مغرور بحريتك إذن؟

- أجل! لأنني مثل الطائر أحب أن أرى الحرية في غيري!

- تعبيرك عن غرورك بهذا الشكل رائع!

- لأنني مغرور بغيري إن صح هذا التعبير لذا يجب غير غروري
كما تحبينه أنت! أليس كذلك يا ابنة تلك القرية المظلة على الجبال،
أو التي تظل عليها الجبال؟

- هذا النوع من الغرور جميل!

- قلت أنك ستراجعين حوار الأمس.. فهل فعلت؟

- نعم فعلت!

- وبما خرجت من المراجعة؟

- خطر في بالي أسئلة لك، وعنك لكن لا اعرف كيف أصيغها
بطريقة مناسبة؟

- هات ما في قلبك، وحسبك من الصياغة العفوية!

- الممتع في حوارنا رؤيتك للمستور، وإحساسك بقلبي، وحديث
الروح الذي دار في لحظات بيننا! فهل استمتعت ب حوار الأمس؟

- نعم! كل هذا استمتعت به مثلك!

- ولا أنسى أيضا معرفتك بقلبي في لحظات قليلة جدا!

- لم يعد قلبك لوحدك. لا تنسي أنني حارسه!

- وكيف أنسى أنك حارس قلبي الأمين؟ ولكن ما سر ارتباطك

بقلبي؟

- والله! لا ادري سر ارتباطي بقلبك، ويبدو أنه النقاء. قلب نقى

كريم!

- مثل قلبك تماما نقى وكريم!

وتودعه ليتجدد المساء، وتترك له رسالة تقول فيها: "أين أنت يا

حارس قلبي الأمين.؟" فيجيبها في المساء التالي برسالة قائلا: "أنا لا

أبرح مكاني منه لو تشعرين؟". فتجيبه في المساء الذي يليه: "والله!

كان حارسه الأمين فعلا! نعم شعرت به!"، وتنتظر المساء الجديد
لتسمعه يقول لها: " إذن لا خوف عليك ولا عليه.. ولك مني مودة
وإخلاص الحارس الأمين!"

ثم يغيبان عن المساء المتجدد أياها؛ فيسألها:

- فيم غيابك؟

فتقول كالمعتذرة:

- غيابي! لا اعلم أكان لشعوري بأنني قد أثقلت عليك، أم أنني

هربت من شيء ما!؟

- شيء ما؟ يا ترى ما هو، وهل هو في القلب أم خارج القلب؟

- في القلب!

- مسكين هذا القلب النقي! ما هو يا بنية، ذلك الشيء الذي

تهربين منه؟

- لا اعلم!

- كيف؟! أمازلت في حالة هروب؟

- لا!

- لا تهربي منه؟

- اهرب منه وإليه! على أي حال الهروب منه وإليه جميل!

- إذن أنت تعرفين ما تهربين منه؟

- ربما!

- هات ما عندك!

- ما عندي انك شخص لطيف يفهمني، وافتقدتك في الأيام الفائتة

لذا وجب عليك أن لا تغيب كثيرا!

- أنا لم اغب، وأنت أيضا لم تغيب عن البال، ولو أردت أعمق من ذلك أقول لك أن ما كان في قلبك من حنين كان في قلبي، وكأن لقتنا كان على موعد، أو على دقة قلب، ولا تنسي أن قلبي مولود بأرضكم مولد من يهاجر إلى موطن نحبه!

- طبعا لا أنسى ذلك!

- هل تصدقين أن كل كلمة قلتها لك كانت من ذلك الحنين، ويكفي أن تذكرني مدى يقظة قلبي معك، أو يقظته لحراسة قلبك، كنت أشعر بأنك تتعرضين لمؤامرة، أو كأني اختارك لقلبي، ولست اعمل على نجاتك من شخص آخر!

- أجل! شعورك في محله!

- كنت أخاف من هجوم قلبي على قلبك وليس هجومه عليك، أنت لم تمثلي لي صورة في أول حديث معك ولكنك كنت ولا زلت قلبا! كيف ذلك لا أدري؟ هل تذكرين ذلك الحنين الذي خاطبتك به أول مرة؟ هل تذكرين ذلك الطائر المهاجر إليكم؟

- أذكره!

- راجعي تلك الكلمات ربما وجدت أننا كنا في سماء واحدة للهجرة، وأرجوك احتفظي بكل كلمة نقولها هنا؛ وستجدين لها روحا غريبا ألسنت معي؟

- معك!

- إن لم يخفق قلبك معي من أول لحظة فأنت إنسانة أخرى لا اعرفها؛ هذا ما قلته لنفسى: إنها سماء الهجرة، هي مرعى ذلك القلب، ما ظنك بقلب مرعاه سماء للهجرة؟ هل كنت تتوقعين منه لغة غير تلك اللغة، وحنينا غير ذلك الحنين؟ والله يا بنية، أنا لم اقل في الحب غير

سطر واحد من كتابك، وإني لأخاف علي قلبك من ذلك القلب المهاجر،
هل فهمت؟

- نعم فهمت!
- لماذا تتأخرين في الرد؟
- اقرأ كلامك فأرجعه مرة أخرى!
- وخفق قلبك؟
- نعم خفق! ولكن لماذا تخاف على قلبي من قلبك المهاجر؟
- وكيف لا أخاف عليه من لهيب الحنين، من ذلك الماء الذي
ينتظر العودة إلى الأرض؟ أنه الظمأ يا بنية! فهل تشعرين به؟
- أشعر به!
- رأيت كيف نرغب في صمت عند ذكر الظمأ؟!
- رأيت!
- أين قلبك الآن؟
- كيف لا تعلم أين هو وأنت حارسه؟!
- هذا سؤال يحمل لنا الحقيقة بدون جواب لهذا نسأله لكي نرى
الحقيقة!

- أجل!
- ماذا ننتظر؟ بل ماذا تنتظر قلوبنا؟ أليس هو اللقاء؟ كنا هناك
في تلك السماء التي كتبت علينا الهجرة فيها، وها نحن في حنين إلى
الأرض، نعم! هي الأرض!

- قلوبنا كتبت عليها الهجرة في السماء وهناك كان اللقاء!
- ممكن سؤال!
- تفضل!

- أنت معي؟ كوني معي من فضلك ولو لحظة! أين أنت يا بنية؟!
- معك!

- ولماذا تتأخرين في الرد؟

- قلت كوني معي من فضلك ولو لحظة ألا تشعر أنني معك؟

- ألا تشعرين بأنني في حاجة إلى لمسك؟

- أجل أشعر!

- أين أنت مرة أخرى؟ أين أنت؟!

- شعرت بأنك تلمسني الآن ألم تشعر بأنك لمستني؟!

- أنا يا بنية، احتوى كل حاضر فيك، وكل غائب!

- أين قلبك الآن؟

- هو هناك! هذه هي الحقيقة مذ عرف انك من تلك الديار، فقد

خطر بقلبي أن ما سبقك موصول بك، أو أنه ممهد لك. كنت أعرف

أنك هي.. نعم! هي بضمير الغائب!

- أقسم أنك تبعثني، وتلملمني الآن!

- أجل! يا لهفة قلبي عليك!

- ويا حارس قلبي! هل هدئت من رجف قلبي؟

- إنني احتوي كل ما فيك يا بنية! ما ظنك بطائرين قد خلت لهما

سماء الهجرة؟ ربما علمت أنهما كانا في طريقين متقابلين، لم يهاجرا

من نفس المكان، وإنما هاجرا ليلتقيا.. أنها هجرة اللقاء وليست هجرة

السفر! كنت أريد أن أسألك حين التقيت بك في تلك السماء: إلى أين؟

نعم إلى أين وليس من أين أتيت لأنني كنت اعرف من أين أتيت!

فماذا تنتظرين؟

- لا أعلم من أين أتيت ولا كيف أتيت؟ قلبي وقلبك في سماء الهجرة على لقاء ولا أعلم إلى أين؟
- أين أنت يا بنية؟ ما أحب ندائي عليك! أين أنت؟ إذا ما ناديتك! فقولني: نعم!
- نعم!
- أسمعت كلمات كتلك الكلمات؟ وهل فهمت منها غير البيان والغموض والسحر!
- لا! لم اسمع مثل ما سمعت منك الآن!
- هذا هو حديث القلوب، وإن شئت فهو حديث الأرواح!
- كما قلت هو البيان، والغموض، والسحر!
- و لم هذه الصورة بصفحتك في ذلك التوقيت؟
- لأنها تشبه حالاتي في الأيام الماضية.. فتاة تضع يدها على قلبها وحارسه! وترجوا شيئاً من رب السماء!
- ولم لا تعطي وجهها لحبيبها؟
- لا أعلم!
- وإلى متى لا تعلمين؟! ربما هو الصمت المريع أو الصمت الجاني!
- والله! هو بذاته!
- ذلك صمت لا يليق بالقلوب. أنه العبث بأعلى ما نملك، وما نعيش من أجله. بنيتي!
- نعم!
- أثقلت عليك أم أنت التي أثقلت على القلب بصمتك؟

- لا! لم تثقل على هو الصمت الجاني، لا أريد من صمتي أن يجني على. أنت قلت عبارة جميلة: آن لقلوبنا أن ترتاح.. نعم! قلوب مثل التي بصدرك وصدري آن لها أن ترتاح، وما كان لهذا الارتياح أن يكون لو لم ألتقي وقلبك في سماء اللقاء!

- ربما علمت ما هو حالي!

- علمت! لأنه حالي!

- كانت كلمة على وتين القلب لنواصل الهجرة معا، ولكني لن ابحث عن ذلك النهر. ربما تعرفين ماذا يفعل الظمان إذا صفا الماء العليل، هل تعرفين؟ قول معي: لا اعرف!

- لا أعرف! ولكني اعرف أن قلبا آخر هنا ظمان، وإذا صفا الماء العليل يرتوي العطشان! وما أحوج الظمأ من أمثالنا إلى صفاء الماء العليل، وما أحوجهم إلى الارتواء!

ويتجدد المساء فيترك لها هذه الرسالة: "أنا بجوار النهر احرس ذلك القلب النقي!" فتجيبه في المساء التالي بعد تحيتها له:

- كم أنا سعيدة بك يا اسم قلبي النبيل! طاب مساءك بكل جميل!

- اعم الله مساءك!

فتسأله أو تسأل قلبه:

- ما أخبار قلبك؟

- إنه مسكين! الكون له متسع.. إنه مغرور بمن يحب، هل رأيت قلبا مثل هذا القلب المغرور بمن يحب؟

- لا! ولماذا هو مغرور بمن يحب؟

- أليس الكون متسعا له ويصدق حبه في اللحاق بحبيبته؟ آه!
من ذلك اللحاق. انه المتسع من الكون والخيال.. على لسان قلبي
أمنية لا أريد أن أثقل بها عليك!

- ما هي؟

- ملامحك، قسماتك، طلعتك، وأشياء أخرى لها خيال لا يكف عن
التحليق! سؤال أسأله لنفسي أتدريين ما هو؟

- ما هو؟

- أين قلبك يا مسكين؟ هذا هو السؤال الذي تردد في الحلم وأنت
هناك. نعم أنت! بجسدك النحيل الذي لم أره في الواقع، وقد تواريت به
في ظلال من الحلم؛ فخلت إني عاجز عن الوصول إليك.. ظلال. ليس
إلا ظلال كأنها طيف من القلب، وطيف من مكان اعرفه، وتاريخ أمة
وعيته! هل كنت هناك؟

- كنت هناك!

- آه يا بنية! من غربة المكان الذي نعرفه!
- وأخشى أنني سأكون هناك دائما وأتوارى خلف الظلال!
- أجل! لذلك أقول: آه من غربة المكان الذي نعرفه، ها أنا أأخذ
كلمات قلبك ووعيك قبل أن تنطقي بها!

- أجل! تأخذها قبل أن انطق بها.. أنت مكشوف عنك حجاب
الحب، وأنا لا أنسى هذا!

- آه! من ذلك المتسع، الكون مفتوح للقلب المهاجر، أنها الهجرة
المتواصلة.. آن لهذا القلب أن يستأنف المسير. سوف أتركك هناك!
- وحنينك، وظمأك للماء الصافي العليل؟ ستستمر إذن بالهجرة!

- هناك في أقرب مكان من القلب، آه من غربة المكان الذي نعرفه!

- آه منه!

- إنه الصمت الراهب الذي أريده. أين عينيك يا بنية؟ بل أين أنت من ذلك القلب؟ هل تصدقين أنني لمستك الآن؟

- اصدق!

- آه! من غربة الحب الذي نحياه. نعم نحياه. ابنة الجزيرة!

- نعم!

- هل علمت فيما أتمثلك الساعة؟

- فيم؟

- أتمثلك طيفا له قوام أنثى لا يشغلني شيء منها إلا شعرها، لا

أدري ما حكاية شعرك معي وأنا لم أراه قط؟ قل لي أنت لماذا تخاليني بشعرك في الحلم وهنا؟ بالله عليك قل لي!

- أنت تجعلني ابتسم بكلامك هذا!

- ابنة الجزيرة!

- نعم أيها الجميل!

- لم بالله عليك، قل لي لم حتى أصدق أنني أراك بقلبي؟

- والله! لا أعلم لكن شعري هو أكثر شيء أحبه بي!

- أرايت! ما أجدراني بكلمة حبيبك لا تماري في ذلك! فأنا هناك

بأقرب مكان من قلبك!

- نعم! أنت هنا في أقرب مكان من قلبي!

- لا! هناك! أتدريين لم أستخدم كلمة هناك؟

- لم؟

- لأشعرك بالهجرة ومن ثم استعطفك، إنه الاستعطاف يا ابنة أبها،
- مفهوم محسوس متخيل، هل تخيلت الهجرة؟
- تخيلتها!
- ماذا فعلت بحديثنا مسائنا السابق؟
- لم أنم قبل أن أعيد قراءته كله من أوله حتى آخره!
- أكان ممتعا؟
- بل فوق الممتع!
- وماذا فعل بقلبك؟
- كان كتعويذات على قلبي!
- الله! أي والله! إنها التعاويز!
- أجل!
- ألم يأتي بك الخيال إلي؟
- يأتي، ويذهب، ولا يستقر على صورة واحدة!
- إنها الظلال أيتها الحبيبة! كنا هناك أنت وأنا.. كنا في تلك
- الظلال أمس وأول أمس، فهل رأيت غموضا وبيانا كهذا الغموض
- والبيان الذي تلقنا به تلك الظلال؟
- لا!
- انه السحر وتعاويزه! إنها طقس الحب، ويخوره أين عشاق
- الجسر ليتعلموا كلمات الحب وشعائره؟ لا تنسي أبدا تلك الظلال!
- وكيف لي أن أنساها؟
- أنت سعيدة بقلبك وقلبي يا ابنة الجزيرة؟
- جدا! جدا يا ابن القاهرة!

- بما تكافئين ذلك القلب الذي هو قلبك، أو ظل من قلبك؟ نعم ظل من قلبك، الحارس الأمين صار ظلاً لقلبك. إنه النهر الآن الذي نسير فيه. نهر ويا له من نهر! نهر الظماً لا الارتواء!

- النهر الصافي العليل!

- اذكري هذه الكلمة التي سوف تروينا، فنحن من يروينا الظماً!

- نعم يروينا!

- أتسمعين دقات الظماً؟

- أسمعها!

- القلب ظمآن، يدق ظمأنا! أنا لا اسمع سوى دقات الظماً. أين

قلبك؟

- في النهر عند حارسه الأمين!

- متمتع من الكون، ومتسع من الدقات تندح بماء الظماً! بنيتي!

- نعم!

- لو كنت إلى جوارك بما تكافئيني؟ وهل شعرت بذلك الذي فعلته

وأنت مطمئنة لما أفعله؟

- ماذا فعلت يا ابن القاهرة؟!

- آه يا بنية! من خصلات شعرك في ظلال الحلم، والتي تحول

بيني وبينك، وبينني وبين ثغرك! فهل امتلأت شفاك بالتفاني، والحنين،

وماء الظماً؟

- صدقاً؟ ليس بعد!

- أغمض جفونك نحن في النهر!

- فعلت!

- آه! من غربة المكان الذي نعرفه، بل آه من غربة الظلال التي
تحتوي قلوبنا! أنه الظمأ لا شيء يساوي الظمأ في انجراف رغبته،
المزيد.. المزيد! آن لذلك القلب أن يضرم بماء الارتواء، فلا تطالبيني
بالكف عن الظمأ.. لي أمنية يا بنية، أخاف عليها منك!

- ما هي؟ ولماذا تخاف عليها مني؟

- تمنيت رؤيتك بعد رؤيتك في ظلال ذلك الحلم!

- أتعلم؟

- ماذا أعلم؟

- أريد ذلك! طارق!

- نعم!

- أسرتي سوف تعتمر الشهر القادم.. فما رأيك لو تراني وأنت

معتمر؟

9

"سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ"

النفس الفزعة من ركوب الطائرة تتفقد الفزع في سكينة الدعاء،
وفي رهبة الإقلاع، وتتفقد بين ضباب السحب، ومنخفضات الهواء
وتياراته العنيفة، أين الفزع المحتوم من "فوبيا" الطائرات؟! لا ذكرى
للفزع في ماضي الحب البعيد، ولا في زمنه الذي كان حيث لا مكان،
اقترب من ذكرى الحب، واستمر زمنها كله فهل تجد للفزع شعورا، أو
هاجسا من شعور؟ القلب في سماء هجرته يتذكر متسع الكون،
وتخفق به دقات الظمأ، وكما تهاجر الضمائر تهاجر القلوب، اللهم إني

احبك وأحب من يحبك، وذاك نصيبي من الحب أن أرك في جميع خلقك، وأصل إليك من حيثما احبك خلقك، وكيفما ردودا مع ابن عربي: أدين بدين الحب أني توجهت ركانبه فالحب ديني وإيماني، ويشخص إلى السحب السيارة، والضباب الممتزج بوهج الشمس كأنما كلها تردد مع ذي النون: وأقضي وما ماتت إليك صبابتي ولا قضيت من صدق حبك أوطاري، ويردد لها من نافذة الطائرة قول الياضي: فلو شاهدت ذاك الجمال عيوننا سكرنا وغبنا عن جميع العوالم، ويردد مع ابن الفارض: شربنا على ذكر الحبيب مدامةً سكرنا بها من قبل أن يُخلق الكرم، ومع رابعة ردد لوهج الشمس المتعدد الضياء: أحبك حبين حُب الهوى وحبا لأنك أهل لذاكا..

حلول محبة، ووحدة فضائل، وفناء تسبيح.. اللهم ذاك نصيب من الهجرة. ضمير يخشع لك، وقلب يصبو إلى من احبك، ويهاجر في متسع من المحبة، وتخفق به دقات الظمأ. نام به سهر الارتواء فوجد ابنة الجزيرة في ظلال من الحلم، وظلال من الحرم، ثم لاح بينهما حمام الحرم يرنق بأجنحته، ويتصاعد مقربا ما بينهما حتى اخل لهما بقعة اللقاء، ولا يبرح فاردا أجنحته فوقهما.. لا شيء من الواقع يذكره حتى مغادرته للمطار، واصطحاب ابن خالته له إلى مسكن أسرته. لا شيء يذكره من الواقع إلا ظهورها بساحة الحرم الخارجية وهي تطوق بذراعا أخاها ذلك الطفل العزيز: "سأنتظرك أنا وهو.. إن عرفتني أغمض عينيك على حلمك الذي رأيتني فيه بين الظلال!" ها هي ولا حجاب بينكما من حلم ولا واقع. شكرا لقلبك الذي أحبني، ولذلك الحلم الذي جاء بك إلى حضورك الأبدي، كوني كالأبد، كوني كتلك اللحظة التي تخلد ذكرى لقائنا هذا. ها أنت بجوار قلبي وإلى الأبد، إنه

المتسع، والنهر، وأنا وأنت، ولا شيء آخر سونا، آه! من دقائق
الانتظار، بل من دقائق الحضور! قلبي يلهث في ذلك المتسع الكوني
وذلك الحول من المحبة، وفضائل الإيثار، وفناء الجمال.. قلبي يبن
ظلالك! ابقني هنا إلى جوار قلبي، هنا وليس هناك، ابقني حتى أكتشف
ملاحك في القلب، وفي ذكر الحب البعيدة! الحنين في عينيها شلال
من نهر الظمأ يهدر في مصابه، آه! من حنين المصعب، وحنين البداية
التي لا ينتهي شوقها. الحب يُبعث في عينيها كما تبعث البراعم
المهاجرة. في حضرة القلوب لا يد تصافح وإنما صدى من قلبها همس
به، وهي تبسم:

- حمد لله على السلامة!

انحنى يقبل يد الطفل العزيز، واعتدل يهمس لها:

- غفوت في الطائرة فلاح بيننا حمام الحرم، وما برح يتصاعد
بأجنحته، ولما اخل لنا بقعة اللقاء رأيت تبسمك ذاك كما هو في ظلال
الحلم!

تساءلت:

- هو! هو؟

- أجل! هو بروحه.. ما أجمل تبسمك، وأنبل عطائه، واتساع
عالمه! ها أنا أرى نقاء قلبك في طلعت محياك، لجمالك نبيل وكرم يا
ابنة الجزيرة، أين السعادة لتعرف مني معناها، ورسمها، وسرها؟ جمال
اقرب للمودة. جمال ودود، نعم ودود! مسكين من ينظر إليك نظرة
واحدة، هذا سر ذاك الوجه انه لا يعطي كل ما عنده في لحظة. ما
أسعدني بوجهك وقسمات ملاحك! كيف يحتوي ذراعك طفلنا العزيز
هذا؟ لجمالك ذلك الاحتواء. لقد احتواني جمالك هنا كما احتواني بين

ظلال الحلم، وأدنى حمام الحرم، شكرا أيتها الحبيبة! شكرا لك ولي،
ولتلك المصادفة التي جمعت بيننا. كان القلب يتعجب: ما أقصى
المكان! ولماذا أنت هناك؟ ما أحوجني الآن إلى جوارك، ما أحوجني
الآن إلى نبل جمالك، فهل احتويت ذلك القلب الآن يا ابنة الجزيرة؟

- أجل! إني احتوي قلبك يا ابن القاهرة!

- كنت أهاجر إليك، والآن أهاجر فيك! بما تشعرين الآن أيتها

الروح؟

- تحتويني بطريقة عجيبة، اشعر بهذا الاحتواء، احتواء لا مثيل

له!

- سوف تقصر المسافات حتما. عطاؤك في القرب لا يقارن بذلك

العطاء!

- وأنت أيضا عطاؤك بالقرب لن يقارن بذلك العطاء!

- شكرا لك! ولكن هل لمست منك أشياء؟

- نعم! لمست روحي وقلبي! وخاصة ما ذكرت من الوداد!

- جمالك ودود، لا نبعد عنه كثيرا، فهو لا يبهتنا إلا بصدقه،

وعطائه!

- عمتي تقول لي أن ابتسامتي جميلة ولا يجب أن تغيب عني

لأنها تجلب السعادة لها!

- صدقت! لأنه تبسم ودود صادق يسمو بحضورك!

ثم التفت إلى الطفل العزيز، وانحنى على يده يعيد تقبلها، واعتدل

ينظر في عينيها ليتذكرا معا مرضه الذي يرهقه كل سنة بعملية يسافر

من اجلها إلى باريس، ولا يزال له في إرهاق المرض عمليتين! قال

لها:

- أشكرك لأنك بجواره الآن.. سبحان الله! انه كرسول لحبنا! لا ادري كيف سيكون شعوري بإلقاءك لو لم يكن ذلك العزيز معك؟ أرجوك لا تنسي أن عزيزي هذا هو رسول حبنا؟
- لن أنسى!
- تذكرني ذلك اللفظ الجليل رسول حبنا!
- لماذا اخترت هذا اللفظ الجليل؟
- يا حبيبتي! أنا لا اختار، أنا لا أتدخل فيما بين قلوبنا، قلبي الآن هو الذي يخاطب قلبك، هل أقول لك شيئاً؟
- قول!
- من ينظر إليك يستحيل عليه الكذب!
- لم؟
- ما أروع حضورك! لك حضور من الصدق، والسمو.. يا سبحان الله! ما أحب النظر إليك!
- شكرا لك أيها الجميل!
- فهمست عيناه بكلمة الحب فجاءت الهمس بالهمس.. وشغف بصره بالطفل العزيز قائلا:
- طفلي هذا يحمل كلمة من الله. كلمة قد حملها أيوب عليه السلام فكان نعم العبد! كم من العمر سألقي في ظلال وداك ومع تبسمك النبيل؟ آه! من رهب الصمت، وما روع من الوداد! أنت وداك قلبي، ومثال خيالي، أنت وداك النهر والرحلة، إن استطعت أن تقول كلمة الحب لغيري ففعلي، ولكن تذكرني أن لحبنا رسولا!
- لن أنسى!

- أجل! رسول يحمل كلمة من الله وإن كانت هي المرض، ويحمل
كلمات من وحي حبنا. لن أحاسب قلبي فيما يريده منك، وهو يسألك
الساعة: أين سيكون لقاءنا الجديد؟
فقلت:
- داخل الحرم!

10

ها هو حمام الحرم كما رآه في ظلال الحلم، وأدنى سحب الهجرة.
ها هو يصدق بأصداء قلبها المرسله عبر أثير هاتفها المحمول: "أنت
كحمام الحرم محرم علي الاقتراب منه، ولكن هو الذي سيقرب ما
بيننا.. لقائنا بعد ساعة من الآن حتى نشاهد معا ما يفعله بنا حمام
الحرم!"، فأرسل إليها يقول: "سأنتظرك انتظار الحمام للحجيج!". ودنى
من الحجر الأسود ليرى اليد الشريفة تضعه في محرمه من البيت
العتيق؛ بعدما تناولته من ثوب القبائل المتنازعة على حرمة، ويسنج
له ما في البتراء من محاريب الأحجار السوداء المتساقطة من
السماء، والتي شاهد الخليل عصر رجومها في مدن فلسطين الجنوبية،
وعند بناء الكعبة حمل معه من نيزك قضاء الله ذاك الحجر، أكانت
مصادفة أن تتنازع القبائل على قداسته وحرمة، فتتناوله اليد الشريفة
من الثوب كأنما تتناوله من يد الخليل؟ ويكمل دعاءه، وطوافه،
وتسبيحه، ثم جلس ليرى قواعد البيت إذ يرفعها إبراهيم وإسماعيل
عليهما السلام، وتذكر ما رواه التقي الفاسي صاحب كتاب "شفاء
الغرام" أن الكعبة بنيت عشر مرات، وأن بناءها قبل إبراهيم لم يأت به

خبر ثابت.. وقال المسعودي أن بناء الملائكة وآدم وشيث لم يصح، وأما بناء جرهم والعمالقة وقصي فهو ترميم.. ويسمع هديل حمام الحرم يرتل القرآن: "إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ". مكة، وبكة اسم البيت الذي بني فيها، والبك، والبكة في اللغة السامية الأولى يطلقان على البيت، ومنها بعلبك بمعنى بيت البعل، ويسمع الهديل مرتلا: " لإيلاف قريش إتلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ". هي مكة منذ أقدم عهودها ملتقى القوافل بين الشمال والجنوب، وبين الشرق والغرب، فهي مثابة عبادة وتجارة. عربية لجميع العرب، ثم إسلامية لجميع المسلمين ولا سلطان عليها لملك، أو صاحب عرش. قديمة سابقة لكتابة أسفار العهد القديم في التوراة، فأنها هي "ميشة" المشار إليها في سفر التكوين، وهي "ميشا" بمعنى البيت الذي قصده للعبادة أبناء الهند، والصابئون، وأبناء خليج فارس حيث وجدوا فيها سماحة لعبادة أربابهم العلوية، وأفلاك السماء.. وهي "الحمساء" المنتسب إليها الخمس أولئك المتشددون في فرائضهم، وأخلاقهم، وملابسهم، ويجعلون المطاف بالليل للنساء، وهي مكة التي حاولت الدول الكبرى أن تستغني عنها بتحويل الطريق منها، أو هدم كعبتها، وقد جريت في ذلك مكيدة الحرب، ومكيدة السياسة؛ فالغزو اليمن وهزيمة ملكها ذا نواس، ثم غرقه في البحر أخرجت دولة الروم جيوش الحبشة بقيادة أبرهة، وأرياط، وبعد التمكين من اليمن وشواطئها بنى أبرهة "القليس" في صنعاء، أو الكليس اليونانية بمعنى المعبد، والمجمع، أو من كلمة الكلس بمعنى التكليس، أو الطلاء، ثم أمر بتحويل الحج إليها، وكتب إلى النجاشي: "إنه ليس بمنته حتى

يصرف إليها جميع العرب"، ومن ثم كان هجومه على مكة لهدم بيتها في عام الفيل، ومن مكائد السياسة أن ملك قيصر رجلا من سادات العرب عليهم، وهو عثمان بن الحويرث، فجمع القوم إليه يرغبهم في حسن الجزاء من قيصر، وينذرهم سوء العاقبة في الشام إذا هم عصوه.. وهي مكة التي يريدون لها أن تكون "فاتيكانا" ثانية، ويضم إليها المدينة ثم تتفرق الجزيرة قبائل جاهلية! ويسمع هديل حمام الحرم يردد باللغة بغير لغة العرب: " ما كان محمد سنيا ولا شيعيا وإنما كان حنيفا مسلما "، ثم ظهرت له ابنة الجزيرة بين أسرتها وقد شرعوا في الطواف. شغف نظرتها لا يبرح القلب وهو صدى قلبها المتهدج: "أنت كحمام الحرم محرم علي الاقتراب منه" شغف راهبة على حبها في عزلة الإحرام وأنت في تيه الرمال، ولكن بيننا نور ممزوج بسكينة العبادة، ووداد الحب. لوجهها حضور عميق، ولطوافها تسبيح أحبه واسمعه، أجل! لوجهها حضور عميق بقلبي أشعر معه أن لقاءنا خارج الزمان والمكان وداخل النور. نحن في ظلال الحلم. أرواحنا هي الحاضرة، وقلوبنا تجري فيها مشاعر واحدة، أكاد أؤمن أن ما يتحرك داخلي من مشاعر هي نفسها مشاعرها، ألم أقول لها: قلبك هو قلبي ولكنني أخاف على قلوبنا من المجهول؟ فتوسلت: أرجوك! لا تذكر المجهول، فأنا لا أفكر فيه مهما حاول إزعاجي! ألم تقل أننا سنفترق، وسنعود مرة أخرى في حياة هي نور الأبد؟ كم أحب هذا الوجه الفريد؟ وجه تنطلق فيه حرية التعبير، أو هو حريتك، ماذا فيه ساكن؟ لا شيء! ملامح كلها حياة في سباق إلى الحرية، والعجيب أن ما توحيه إليك يشبه الشاطئ، فلا بد من السباحة منه ابعد، وابعد إذا ما أردت المزيد، هي حقا شاطئ ولكنه شاطئ لبحر من المعاني. لحضورها

متعة، وعذوبة، وحلم، وشوق، ووداد، واغتراب، أنا المغترب فيك وفي ملامحك، وفي حبك وفي كل شيء هو لك ومنك، حتى طريقتك في التعبير وارتجالها تؤنسني في وحشتي، أنت كلمة للحب، ورسم للحياة. ملامحك الراهبة الحاملة هي صورة أخرى لحياة ذلك الذي يهاجر إليك، ورب هذا الحرم! إني لفي حيرة من القدر، فإذا كان هذا هو الحب فكيف تفتننين بغيري؟ يا حمام الحرم، قل لها: لقد أطلقت العنان لقلبي لكنه الآن يخاف الحرية لا الأسر! ماذا قالت لك يا حمام؟ أتقول: قد ركبتم زورق حبنا وأنا الحرة الأسيرة! يا حيرة الشوق! وتعود إلي ملامحها كأنها ما تفتقده من الحياة، بل هي هي الحياة التي يخفق لها قلبي كل لحظة، أيها القدر! أنا حتى الساعة لا أفهمك، لماذا جمع بيننا حمام الحرم؟ قلبي وقلبك يغتربان بنا. أنا المغترب بحبك فهل أنت تغتربين بحبي؟ لن يقول لسانك ما تقوله ملامحك لي، ملا محك هي كتابي الذي أعرف لغته وحدي، واقرأ منه لغة حبنا. أنا المغترب في هواك لا يريد غير نظرة واحدة، ولمسة واحدة، فنهرنا يا بنية، هو نهر الظمأ لا الارتواء. التفت إلي وأنت تغادرين الحرم، وودعيني وداع اللقاء فقد يرحل بنا الوداع حتى ينسينا ذكر اللقاء!

11

على أثير هاتفها المحمول كتبت تقول: "وصولك إلي هنا أمر يفقدني صوابي ولا يبقى من حكمة عقلي شيئاً! وما حاجتي لعقلي وأنا في أمان رجل يحبني بتفاني!. هل داعبت عيناك شعري؟ إني أحفظ قسما ملامحك وشما في ذاكرة القلب! فكرت أن التقى بك بعد ساعة

من الآن في حديقة الشاي، إن مددت يدي لك وفي قلبك من النداءات
ما يدفعني لأن أطوي عمري وأذهب معك؛ فألمس يدي كما تلمس
الحقيقة التي تعرفها قلوبنا!". ثم شرد بها الحياء في حديقة الشاي لولا
شغف نظرتها. صافحته هامسة:

- المطر أبيض وكذلك أحلامي فهل يفرق العشب الأخضر بينهما؟
قال لمسا الحقيقة منها:

- آه! من شغف نظرتك، ومن قلبك الراهب الذي يأتي بي صاغرا
راضيا محبا شغوفا!

وأجلسها، وجلس قبالتها يقول:

- وليكن.. أيها البحر، أنت وهم بيننا، ويا أيتها المسافات قد
صغرت في عين وقلبي! إلى متى يُهدر الشغف بين البحر والمسافات؟
قالت كأنما القرب يروعها:

- لا أعلم!

فعاتبها:

- أراك مستسلمة للقدر!

فهدر شلال الشوق في مصاب عينيها:

- الأقدار تتغير بالدعاء.. وأنا ادعي كثيرا، فكيف أكون
مستسلمة؟!

وتنسمت ريح وصوله بعمق وهي تقول:

- ودعت حمام الحرم، ثم حلمت بك وأنت تنتظروني وأزيز البرق
يصل إليك بمشارف قرיתי!

قال ولمسها أزيز يسري في أوصاله:

- إي برق هذا وأية رعود؟ إنها رعود القلب وبرقه، وإلهامه،
ومهبط هجرته. لا عليك مني أسألي والوعي والخيال، بل أسألي ذلك
القلب الذي عرف أين يحب، ولمن يطلق عنانه. سله هل سيغادر تلك
الديار؟ لن أكون بينك وبينه بعد اليوم، لن أجيب عنه بعد اليوم، هو
لك وأنت له!

- نعم هو لي وأنا له، وهو لن يغادر هذه الديار!

- هل رضيت عنه؟

- وهل استطيع غير الرضا؟

- يا لك من عذبة! كالصفاء، وكنقاء قلبك!

- لم أرى في نظرتك عند الطواف إلا حمام الحرم!

فسألها:

- ألم تسمعي هديله باللهجة ابن القاهرة؟

فتنهدت بندى شلال الشوق مبتهلة:

- يا إلهي! ماذا تفعل بي؟

- لا شيء سوى إنني احبك!

- أحبك يا حبيبي، أحبك جدا!

- آه! لو تعلمين يا برق القلب ورعده كما أنا شغوف بقربك،

شغفي بسماع أصداة قلبك!؟

- وأنا أيضا!

- لا يكفي يا بنية، الخيال يتوثب إليكم أنت وتلك الديار، أنت

ونقاء قلبك، ونبل حبك، مازلت لا أدري ما للسمو وحضورك. لحضورك

في قلبي سمو الأميرات!

فيشرد بها الحياء هامسة:

- ما أروع حديثك عن هذا السمو يا حبيبي!

فردد صدى قلبها لا قلبه:

- آه! لو تعلمين يا برق القلب ورعده كما أنا شغوف بقربك شغفي

بسماع صوت قلبك؟

فبسطت يدها تتأملها حتى سرى برق المصافحة في كيانه كله..

قال:

- نعم يا ابنة القرية! أفكر كثيراً في "الملاسة". فقط لمسك،

صدقي ذلك القلب إن قال لك: أنت قربانه الخالد خلود البرق، وخلود

ما بقي من أثار حضارتنا، أنت قربانه، وقربان تلك الحضارة في غير

مذبح أود ماء، من ذا بعدي، بل من ذا قبلي سيقول لك كلمة الحب

تلك: "نحن من نجري بنهر الظمأ، وليس النهر ما يجري بنا!"

- آه! يا طارق!

- آه! لو تصلك هذه القبلية المتفانية في شغف عينيك! أجل يا من

يسمو بها الحياء. نحن في نهر الظمأ والارتواء، وبينهما قلبان لا

يشعران بظمأ أو ارتواء! أجل! يا ابنة القرية الراعدة البارقة الممطرة

شغفا؟ يا ويلك من قلبي، ويا ويل قلبي من سمو حبك، وسمو حيائك!

فهمست بسمو الحياء:

- كم جميل هذا الويل من قلبك!؟

تبسم قائلاً:

- ألم أحذرك من أول وهلة؟ ألم اقل لك إن قلبي مكشوف عنه

حجاب حبك؟ لا تشتكي الشغف يا بنية، لا تشتكي الشغف والتفاني في

حبنا!

فعاودها همس الحياء:

- أنا فتاة محظوظة بك!

فابتهل لها:

- لن نظمئي أبدا وأنت إلى جوار ذلك القلب، ولن ارتوي أنا أبدا ما

دمت إلى جوار ذلك القلب. أقصد قلبك!

شكرته نظرتها الشغوفة قائلة:

- أنت تدخل السعادة لقلبي، ولا احسبني اظماً أبدا وأنا إلى جوار

قلبك!

وسما بها الحياء إلى عنان الحب هامسة:

- هنا شيء جارف لك الآن! شيء من الלהفة والشوق! أنت هنا

تسكنني!

سألها متوددا:

- أين حمام الحرم؟

همست:

- في عينيك يقرب ما بيننا، وما بين سماء الحب!

تأمل حضورها كأنه النور الممزوج بسكينة العبادة، وودا الحب،

وقال:

- وأنت معي سوف يوحي لك ذلك القلب بكلمات الحب كما تسقط

أمطار قريتك، وكما يومض البرق، وتقصف الرعود!

فاعترفت له اعتراف الرهبان:

- ما تعلمته منك من كلمات الحب يجعلني أشفق على عشاق

جسر الصيد لأنهم لا يمتلكون قلبا مثل قلبك، ولا أحرفا مثل حروفك.

حبك يجعلني مغرورة جدا بقلبك!

- هو غرور الحب، وهو صدقه وإلهامه، فأياك والبخل على قلبي،
لقد فتحت سماؤه، ولن تغلق إلا بسقوط قلبي المهاجر، فلا تبخلي على
ذلك القلب!

آه من تفاني قبلتها، وجفونها المسدلة على سمو الحياء! رفعت
رموشها قائلة:

- استيقظت من حلم البرق هنيئة مطمئنة البال! ما عدت أخاف
من أفكارى السوداء، ولا اهرب منها، بل إنني أصبحت أواجهها
مبتسمة، واذهب بقلبي وخيالي إليك.. أفكارى السوداء هي من باتت
تخاف مني، لم يعد للخوف مكان في قلبي ولا خيالي!
وتبسمت تسأله:

- بما ناجيت حمام الحرم من اللهجة المصرية؟
تبسم قائلاً:

- دعه هو من يقول لك، ولكنني قلت له: أنت طائر الحرم وأنا
طائر الحب!

نظرت باسمه إلى ما في يده، وسألته:

- أهذا كتابك الجديد؟

فأسلمها إياه قائلاً:

- لا تفرطي فيه أبدا فهو مهرك. تذكرني هو مهرك!

فهمس بها سمو الحياء:

- وأنت تذكر هذه الكلمة: بحبك!

- قولها لي دائما، ولا تبخلي على قلبي بها!

- لا استطيع أن ابخل عليك، هذه الكلمة هي كل قلبي، وقلبي كله

لك!

- أشكرك يا بنيتي!
ثم نظرت في ساعة هاتفها المحمول، فتلهف يسألها:
- أين سيكون لقائنا الجديد؟
قالت باسمّة:
- إن شاء الله! سيكون في أشهر أسواق مكة الشعبية!

12

ووجل بها زحام السوق، وأفزعها الخجل، ولم يسعفها سمو الحياء،
أو جسارة الهوى، وجاورته لتتشق الحقيقة نصفين، أو انشق الحب
وفصلهما عن روحه وضميره، وواقعه ومثاله. سارا متجاورين وبينهما
الحب كالبحر، وكالرمال، بل وكعيون الزحام المتربصة الدهشة
المستنكرة! أين حمام الحرم ليحجب عنهما بأجنحته هذه العيون الغيرة
المتعالية؟ ابن خالته كان محقا وهو يفهمه أن ملابس الإحرام لن ترفع
عنهما حرج أو مشقة إن جاورها في أسواق مكة، وقال يمازحه: إن لم
يكن من المجاورة بد فعليك بثوب أهل الديار. آه! من لمس الحقيقة
حين تجاورنا كشاطئ بعيد، وسراب من رمال. همست بصدى قلبها
وهي في فزع من الخجل:
- اشتقت إليك!

فقال مستمدا من عيون السوق غررتها:
- هو الشوق أو دوامته المزمجرة بين الزمان والمكان، وبين البحر
والبحر، والرمال والرمال!
فخرجت إليه في تيه الرمال، وقالت غائبة عن العيون:

- اجتياح من الشوق يزري بذاك الاجتياح من الزحام. إن ضاقت
بك المملكة فأنت ضيفي الذي يقف بباب بيتي، ألا تدق بابي يا رجل؟
في حضورك كل شيء يذهب مني إليك حتى إحساسي. كل شيء. كل
شيء يا حبيبي!

فأجال بصره في سراب الزحام وقال:

- أخاف عليك!

لامسته بعطفها تسأله:

- أتخاف من قلبك أم من قلبي، أم من كلاهما؟

- أنا خوفي عليك من القدر. أخاف منه مفاجئة تعصف بقلبي
وقلبك. أخاف أن تأتي فتقولين: أنا لست لك!

أدارت وجهها تطلب عينيه قائلة:

- هات كل مفاجأتك. أنا أم أنت من سيقول؟! أنا لن أقول شيئا

كهذا أبدا!

سألها، أو سأل القدر:

- أبدا؟

ولمح ثغرها المتفاني في حبه، والراهب عليه في تيه الزحام.. لو

تختلس منه ما طاب لك ولها!

سمعها تهمس:

- انك تحبني صدقا، وإني أحبك صدقا!

سألها، أو سأل أهل الجزيرة:

- وكيف لا تكونين لي وصدق الحب هو ما بيننا؟!

ارتجف بها زحام السوق فتكلمت بلسانه:

- هنا أعراف، وتقاليد والدي ملزم بها أمام الناس.. هذه الأعراف ستقتلني إن لم يكتب الله لي معك نصيبا. نحن في الجنوب قبائل، وعشائر لدينا عادات، وتقاليد مثل أن تتزوج الفتاة من قبيلتها، أو قبيلة لا تقل أصلها وفصلها عن قبيلة والدها الأصلية. لا بأس! فخلق حمام الحرم وهو في ظلال الحلم يتصاعد، ويقرب ما بينهما:

- أنا طائر مهاجر يا عزيزتي، طائر مهاجر فيه من صلابة الهجرة، وغريزتها. من لا يهاجر معي لن يموت معي. قد حررت قلبي من الأغلال ولو كانت أغلال الفراق، فارقي أنت إن شئت، أو شاعت قبيلتك، أما أنا فقد عزمت على الهجرة قبل أن تكوني! توسلت، كأنما تتوسل للأعراف والتقاليد: لا تقل هذا!

- أنا هاجرت من أجل قلبي وحيي. لا تثريب عليك وعليهم! ودت لو أمسكت يده وهي تقول: لكنه سيكون تثريبا عليك! نعم سيكون كل التثريب عليك من قلبي ومني، قد أخبرتك أنني ركبت الزورق معك، ولا نزول منه حتى نصل غايتنا! تصاعد به حمام الحرم:

- يوم أطلقت العنان لقلبي لم يستأذنك، ولا احسبه سوف يستأذن في خفق شراعه وجناحيه! حاولت الصعود معه:

- أنا أريدك لي، لي وحدي، أريدك حلما، وواقعا.. سأصمد، وتصمد معي حتى تتجاوز بي الأعراف، وإنك لفاعل!

دنى من سماء الهجرة:

- أنا لم احبك في ذاتك.. أنا أحببت فكرتك وروحك، أنت يا بنية،
لا قبل لك بقلبي وهجرته! لن انتظرك أبدا، ولعل ذلك الزورق لا
ينتظرني أنا أيضا. هي خفقة قلب إن لم أدركها فآتني الزورق. كان
ركوبي فيه بنفس سرعة تلك الخفقة. لا تثريب عليك إن لم تدركه،
ولكن إن مررت عليك يوما وكنت بشاطئ النهر القي علي تحية
الأغراب لا العشاق!

قالت غير قادرة على مسك يده:

- لا! لن افعلها لأنني على متن زورقنا!

التفت يطلب عينيها:

- ألم اقل لك انك تخافين الاقتراب لا الفراق؟ أصغي لذلك القلب
وهو يؤكد لا تثريب عليك!
نفذ شغف عينيها لقلبه قائلة:

- أريد الاقتراب منك، والله! إنني أخاف عليك وعلى قلبك ليس مني
ولا من قلبي!

أعفاها من الحيرة قائلا:

- أنا لم احبك لكي انتظرك هذا كل ما في الأمر، وحسبي منك أنني
قد علمتك في سويغات كلمات الحب وشعوره!
- لا تفعل بي هذا! أرجوك اصمت! أنا لا أطيق الانتظار، ولا أريد
أن تنتظرني.. فقط تعال إلى قريتي حالا!

وقف عن المسير يقول:

- ودعيني وأنا بجوار حمام الحرم، ودعيني من شاطئك، وليس
شاطئ فانا لا شاطئ لي!

فصاحت في الزحام:

- لن أودعك!

- أنت لا تعرفين غصة القلب. أنت يا بنية تجهلينها، اطمئني فأنا

لم احبك لذاتك، أنا أحببت فكرتك.. نعم هكذا هو حبي لا يتعلق بأحد!

- وأنا أحببت قلبك!

- دعه يا بنية، دعه في غربته فليس لك قبل بتلك الغربة!

- كيف ادعه وهو لي؟!

- دعه، فهو مغرم بالعواصف والبروق والرعود والمطر. صدقيني

انه كالرعد والبرق يختطف الأبصار والقلوب التي تشبه في رعده

وبرقه، صدقيني لا قبل لك به وبهجرته!

- هل في كل مرة سأقول لك فيها إنني أخاف عليك تفعل بي ما

تفعله الآن؟! نعم، أنا أخاف عليك، ولن تكون هذه الأخيرة التي

سأخاف عليك فيها. هل أنا أذنبت حين أقول هذا؟

- أنت مسكينة! أنا من يبدد مخاوف الناس ومخاوف القلوب، أنا

قبلة عشاق الجسر، والمتيمين، أنا من ينطق بوحى الحب، ولابد من

ثمن يدفع، وأنا قد اعتدت على حمل الأمانة، ولن أتنصل منها أبدا. أنا

صخور الحب ومائه المنبثق منها. نعم أنا القلب الجسور فمن أنت يا

بنية؟!

- أنا حبيبتك التي ستصمد معك، وفي يوم ستدهشك. أنت تبدد

مخاوف الناس والقلوب لكنك لن تستطيع أن تبدد خوفاً عليك، أنا

أخاف عليك من كل شيء!

- أيتها المحبوبة، ودعي ذلك القلب المهاجر، ودعه وأنت ترفعين رأسك له. انظري إلى قوة جناحيه. انظري إلى عزمته انه لا ينظر إلى الأسفل، ولن ينظر حتى ولو كانت حبيبته تنظر إليه!

- كيف أودع قلبا هو بين أصابعي الآن؟!

- ما أحب العواصف إلي فأنا قلبها النابض بالأمل والعافية. أنا وقودي الحب، وليس أنت الوقود!

- هذا ما أريد سماعه!

- أصغي إلي قلبي دائما، أصغي إلي صوت العاصفة لأنها هي أنا!

- وأنا وقودي أنت وحبك وقلبي. هل يجب أن لا أخاف عليك؟

أستمد من زحام السوق تعالىه:

- انبذي خوفك عني. أنا قلب العاصفة. بالله عليك انبذي خوفك عن ذلك القلب الجسور. أنا طائر عشاق الجسر، ودليلهم في صحراء التيه. أنا الارتواء لا الظمأ، أنا من قد جهلت يا بنية، أنا ضمير الحب ووحيه وأنت من تكونين؟! لن تكوني غير ما أردت، وأرد وحي الحب وخياله. ودعيني، وودعي ذلك القلب!

قالت رافعة عينيها للزحام لأول مرة:

- ما صنعه خيال الحب ووحيه حقيقة، ولن افعل! لن أودع قلبك، أتفهم هذا؟ أنا لا استطيع فعل هذا. كيف أودع ما قد أدمنته؟! كيف أودع ما قد جنت به؟ كيف أودع ما لن أصلح بعده؟ كيف أودع من سكن كل شيء بي؟ أريد أن اضحك معك وابكي!

- سوف يقف بك زمن قلبك هنا. هل تودعيني وحدي لا القلب، لا تشركيه في وداعنا ولو كان وداعا بعده لقاء!

- لن أودعك أنت، ولا قلبك كلاكما هنا يا حبيبي!
ومدت يدها تودعه وهي توصيه:
- لا تنسي لقائنا الأول في المدينة المنورة سيكون بفندق "دار
التقوى!"
فلمس الحقيقة من يدها وهو يوصيها:
- إذا وقف حمام الحرم يوما على قلبك اذكريني!

13

وسهر الوداع على حبه أرقا وفقدا، ووحشة كأن لا لقاء بينهما في
المدينة التي طلع البدر عليها! سهر الوداع في ليل مكة وفي نهارها.
كان الوداع يغف به غفوة اليقظة لا الحلم فيرى سمكة الإطلاق
المهاجرة تسبح، وتطوف حول الطعم، ويجذبها شعور قديس الإطلاق،
فتدنو، وتدنو من قلبه ولكنه لا يطلقها أبدا من فوق جسر العشاق!
بين مكة والمدينة لا يزال المهاجرون في هجرتهم، وتخوض الحافلة
في تيه الرمال بينما الوداع سهران مهاجر، ويغفو به الوداع فيرى
آلات الصيد شرعا في أيادي العاشقات، وقد فاض بهن جسر الصيد
في موسم الهجرة. كلهن يردن سمكة الإطلاق، ولكنه سمع هاتف
النهر: هي من ستطلقك! ثم سمع صوت رسالتها عبر أثير هاتفها
المحمول: "كل دقيقة معك هي زمن استثنائي، وعالم استثنائي بشمس
جديدة، وأقمار جديدة، وسماء جديدة! في رواق فندق التقوى حضورنا
الجديد!"، فأرسل إليها يقول: إنه الحاضر ولا شيء سوى
الحاضر. الحاضر الذي يحتوي البداية والنهاية. البداية البعيدة،

والنهاية الأكثر بعداً! كانا قد دبرا أمر اللقاء بأن تحضر هي أختيها معها، ويحضر هو أسرة ابن خالته الذي تطبع بطبع أهل الديار لعشرته الطويلة بينهم؛ فلبس ثوبهم ولو من قبيل التشجيع أو التمويه. جمعهم مجلس واحد، وإن هيئه لهما الرفقاء بعد التعارف ما يناسبهما من عزلة مشهودة، فطمئنت إلى جواره تروم عينيه متهدجة:

- اشتقت لك!

فسأل شغف عينيها:

- مذ متى؟

قالت والشوق يهاجر في عينيها:

- اشتاق إليك قبل أن ألقاك، وبعد لقياك، اشتاق إليك في حضورك

وغيباك!

لو تأخذ الكلمات من ثغرها بغير استئذان! قال وقلبه يخفق بجناحي

الخيال:

- هذا ما نتبادلله من الشوق وكأننا الشوق ذاته لا الاشتياق.

تكلمي بما شئت أرجوك! تكلمي يا حبيبتى! فأنا لا أفعل إلا ما يمله

علي قلبك ووعيك!

وسألها مستمداً من حيائها السمو:

- ألم يقبلك احد من قبل وأنت تتكلمين؟

فسما بتبسمها الحياء، وقالت لمحة أختيها:

- مطلقاً!

فراوغها:

- إلا إياه؟

قالت والتبسم يصفو بثغرها:

- ولا حتى هو!
- فعاد يسألها:
- من هذا؟
- فقالت كمن تهتف:
- أنت!
- فقال كمن يحنث في نيته:
- وما دخلي أنا في ذاك؟ إنه القلب. إلا إياه مفهوم؟ إلا القلب يا بنية!
- سأله ثغرها:
- ألا تدق بابي يا قلب؟
- وسأله هي:
- أما زلت غاضبا من حديثي في سوق مكة؟
- غضبي منك رصيد من الحب ادخره لك بحب أكبر من الغضب!
- واني غاضبة من نفسي أكثر!
- غضبك من نفسك رصيد من الحب تدخرينه لي بحب أكبر من الغضب!
- لو تضميني الآن إلى جوار قلبك؟
- ومتى كنت بعيدة عن جواره؟ أنت مخطئة، فإن وسعني البعد عنك فما القلب بالمستطيع، إنه أسير نقاء قلبك؟
- وفي شبه عزلة منها هتف بقلبها:
- أيتها القرية، من تسكنك ملامحها من روح الطبيعة فيك لولا أن رعدا وبرقها وتلوجها سلام على القلب. أنا ساكن تلك الديار. أنا المغترب فيها لا انتم!

قالت ونبراتها تنشد العزلة معه:

- أنا أيضا مغتربة هنا!

وسألته باسمه:

- ما لك وملاحي؟

- هي في الذاكرة، أنا أطلعها من الذاكرة لا من وجهك النبيل!

وأشفق ونبل وجهها يسأله:

- قل ما بك؟

- أو تشعرين بما بي؟

- اشعر!

- ما اشعر به يزيد من ألمي، ولو مر هذا اللقاء ولم تسألي هذا

السؤل لتألمت كثيرا.. نعم أيها القلب النقي أنا بي شيء؟

- والله! إنني احبك جدا، ولا أحب أن يصيبك أي ألم! قل كل ما في

خاطرك الآن!

- لم استوضح نفسي عما بي، ولكن قلبي يبتعد عني وليس عنك.

أرأيت قلبي كهذا؟

- لا! ولن أرى قلبي كهذا!

- تعب كلها الهجرة! إذا اغترب القلب عنا فهو الفراغ والخواء. إنه

اغتراب الأمل والرجاء، واغتراب الإقدام والجسارة. لو أننا بمثل جسارة

قلوبنا، لو أننا نعى ما تعيه!

- هو مثل اغتراب قلبي. اغتراب الأمل والرجاء!

- لو أننا نصدق ما تصدقه قلوبنا. الصدق هو الذي يغترب بنا، ها

أنا الهث ورائه، ها أنا لا أستطيع معه صبرا. متى سيعود القلب؟ متى

يعلو بي بعيداً؟ ماذا في يداركم؟ هل شعرت بالهبوط المفاجئ؟ هل شعرت بهبوط قلبك بك على غير توقع؟ بل على غير رغبة في الهبوط؟ شعرت بهذا الهبوط المفاجئ، ولكن لم على غير رغبة في الهبوط؟

- هو اغتراب الأمل والرجاء، ما أروع سماء الحب!

- صدقت!

- ابنة الجزيرة!

- نعم!

- لا ادري لم توقعت منك أن تخبريني بزواجك الوشيك؟ لا ادري لم

ذاك!؟

- لا! لا يوجد شيء من هذا. لم توقعت شيئاً كهذا!؟

- لا ادري، إنه الاغتراب عن القلب يا بنية الذي بثتتك شجونه

الآن!

- لا تقل هذا مرة أخرى. فهذا لن يحدث!

- ربما!

- إن لم أتزوج بك فما حجلي برجل؟ سأتزوجك أنت. مفهوم؟ ولن

يقبلني وأنا أتكلم سواك.. لن أشارك أحلامي غيرك!

- أجل! وأنا اعرف ما تنطق بها ابنة الجزيرة، وهذا ما يؤلمني انك

مثلي، فلن يفرط كلانا في الآخر إلا وهو شيء غير القلب!

- نعم، فأنا مثلك!

- هذه حقيقة لا مبالغة فيها ولا وهم، وإن أردت تصديقها؛ فراجعي

أحاديثنا معا، وستجدين أننا قلب واحد. إن أحسنا بالكلمات يصفو

بها كأنها أروحنا المتآلفة!

- يا روح ابنة الجزيرة!

- أنا أعيش هناك بروحك أنت، وهنا أنت تعيشين بروحي. لقد

انتقلنا إلي قلبينا كمن يعبران جسرا قد عبره من قبل!

- الآن ارتحت! ارتحت لأنك قلت هذا!

- هو جسر نعرفه، ونعرف ما فوقه، وما تحته، وإلى أين يفضي

بنا؟ هو جسر من الهوى بيننا عبره في طرفة قلب. تصوري طرفة

قلب! اذكري ذلك الجسر الذي عبر بنا في طرفة قلب لا طرفة بصر!

- سأذكره!

- هل ودعتني الآن؟

- لا.. لن أودعك!

- هل أوجعت قلبك؟

- نعم!

- اعرف يا حبيبتي، ولكنك حين تذكرين كلماتنا ستعرفين أن حبنا

أصفى وأنقى، بل هو طلاقة الحب، أو هو جناحان الحب، وستعرفين

إي فرق بين من يركبان الزورق ليسير بهما، ومن يسيران هما

بالزورق! في الحب تعود يأتي بعده الحب، ومعك عرفت أن الحب كان

قبل التعود عليك، هذا المعنى يدهشني كثيرا، ومنه كتب أقول لك: لا

زمن قبلنا، ولا ماضي حتى المستقبل قد عشناه في الحاضر، نحن حبنا

حاضر يطوي الزمن والمكان.. هذا هو وحي الحب، ملامحك بدت لي

كذكرى من أول وهلة. ذكرى حميمة ولكنني سرعان ما أيقنت أنك الزمن

كله بلا تقسيم! أنك كل شيء، أنك ما اعرفه من قلبي، ونفسي،

وخيالي، وربما أنت وعي الحب وبصيرته. معك أنا ارتوي من ماء قلبي

قبل ما ترتوين أنت. هل تصدقين ذلك أنا المرتوي وليس أنت؟ أنت من

تأتي بعدي في الارتواء، وإن كنت تسبقين القلب، يا لك من قرية أهون
ما فيها جبالها، ورعدها، وبرقها، ومطرها، أهون ما فيها ذلك البحر
الذي بيننا وتلك المسافات التي تتبدى لنا. أنا حبك، أما أنت فصوت
القلب. نعم صوته! هل سمعت صوته كما اسمعه، وانطق به؟

- نعم يا حبيبي!

- النهر نهرك يا ابنة الجزيرة، وإن ترامت بي رمال النيه. هي أنت
من عرفت بها الحب، وعرفني بها الحب. أنت لا ترتوين أبدا، أبدا! هكذا
عودتك يا حبيبتي!

- هذه كارثة والله! لم يخطأ القلب وهو يتحدث عن نهر الارتواء
والظما، فانا لا ارتوى أبدا يا حبيبي!

- سوف يرضي القلب غرورك في متسع من الكون، ودقات من
الارتواء!

- يا لله! وليفعل الله ما يريد!

- أنا اشتهي فيك الدوام والنبيل، والنقاء!

- فليرحمن الرحمن!

- من في أبها قراء كتاب حبا؟ من في قريرتك تعرف على وحي
حبا؟ من فيها سوف يحفظ كلمتنا من بعدنا؟ والله! سوف تسمع عنا
الجبال والرعود والبرق والمطر وكل ناحية في أبها، سوف يتبدد
ضبابها المقيم، سوف ينير لقلبيننا تلك الطرق، والزوايا. خاطبي ذلك
الضباب، وقولي له إن صوتا سوف يأتيك، وإن قلبا سوف يوحى إليك.
قولي لذلك الضباب إن طائرا مهاجرا سوف يشق عبابك فتتبدد حتى
حين! هل أشفقت من عشاق الجسر، ومني ومنك؟

- نعم الآن أشفق! والآن عرفت لما تقول انك تخاف علي من قلبك!

- يا ابنة الجزيرة، قللي للسماء فوقنا إن زوجي الحبيب قد مر من هنا. نعم مررت من عندك هل تصدقين؟ مررت من عندك ولا زلت أنا الذي يرى البحر بيننا!

- نعم! نعم! فقد قلت للسماء وهي تمطر علينا إنك ستأتي إلي هنا، وتمر بها!

- أنت من تطلقين العنان لقلبي، إي والله! أنت من تطلقين العنان له، هذا القلب بدونك كسيح. طائر يشيخ، نسر ينتف ريشه ليبعث من جديد. لولا حضورك ما نطقت. أنت من تجاوب القلب ليس بكلماتك وإنما بصمتك!

- يا له من صمت! أمثلي تصمت أمام قلبك، وأمام هجرته؟
- كيف تصمتين يا بنية، للقلب ذلك الصمت؟ لقد عرفت متى يتعاط دوائه، ومتى يتعاط دوائك؟

- في حضرة حبك اصمت ولا افهم سببا لصمتي!
- أجل! كلماتك هي كلماتي، وكلماتي ما هي إلا كلماتك!
- بحبك!

- أرايت فهنا يكون الحب حاضرا هنا يكون بلا صمتا!
- واني الآن ابغض ذلك البحر الذي يحول بيننا!
- لولا الرجاء المفقود لخاطبتك بزوجتي!
- يا لله! لهذه الكلمة وقعها على قلبي، وعلى زوجتي، نحن تلفنا ظلال الاغتراب، والأشواق، الشوق والغربة معا، ما هذا الحب؟ من هذان المحبان؟

- إنهما ابن القاهرة وبنت الجزيرة!

- هذه هي القصة التي ستحكي لأطفال قريتك. أيتها الجبال
انتظري راويا سوف يروي تلك الكلمات التي تعرفها الرعود، والبرق،
والمطر.. ظلال من الاغتراب والأشواق تلفنا حنيا، ورجاء، وانتظارا.
انتظري حبيبك يا بنية، انتظريه تحت الضباب، ولا توجلي منه ولو لم
يُسفر إلا قليلا. أسف! فالمأذون ليس معي، ليس ها هنا، ولم تضرب
له موعدا!

- أحبك! بالله ماذا تفعل بي؟ ماذا تفعل بي يا زوجي الحبيب؟ ما
عدت أتنفس شيئا غيرك. أنا أتنفسك!

التفت باسمي إلى الأختين الكريمتين في صبرهما، وقال لها:

- ما أحب وداعك إلي لأنه الودع الذي يعدني إليك وأنت قلب نقي
وحضور لطيف. ما الاحتماء؟ ما هو إذ قورن بضمك إلي؟ أيها الجسد
النحيل، هناك من يشواق إليك شوق المهاجر من وراء سراب! أيها
السراب ماؤك لن يكون بديلا عن شوقي، فهو الشوق الذي يحيا
ببعضه، ولتكن سرايا فانا الشوق، والشوق هو أنا، وهذا ما تعرفه
المحبوبة. أين وداعك يا ابنة الجزيرة؟ أين وداعك الذي سيعدني إليك
روحا تطيف من حوليك؟ أين وداعك لا تبخلي علي به؟

فتبسمت لأختيها قائلة له:

- في قلبي نور من نور قبر النبي إن زرناه معا فقد يستجاب
لدعائنا!

جمعتهما مشكاة الدعاء، هي بين أسرتها، وهو بينه وبين قلبه، أو كان بينهما نور العابد! هنا القبر مشكاة من نور النبوة. هنا القبر الذي يخجل منه الموت، فبد محتضرا يلتمس الحياة في نورها الأبدي، أو بد معتكفا في مشكاة ذاك القبر، وكأن الناس لا يموتون خارجه! هنا القبر الذي يعتكف فيه الموت فما بال الناس؟ لم يعبد احد من الناس محمدا لأن محمدا هو العابد؛ ومن ثم كان قبره مسجدا، وكان مسجده مشكاة. عابد حمل رسالة العبادة فعرف الناس أن لا معبودا سوى الله، وأنه الحي الذي لا يموت. مات محمد وهنا قبره. مات العابد وهنا مسجده. مات الرسول وهنا مشكاته؛ فمن من العباد يجتاز ذلك النور؟ ومن منهم يموت موت العابد؟ اللهم هذا قلبي قد عرف من العبادة محبتها فلا تأخذني بما أجهل من وحيها. اللهم إني احبك وأحب من يحبك فاجعل لنا من الحب جمالا نحبك به. اللهم هذه أمتك وهذا عبدك لم يريدوا بقلبيهما إلا خيرا فلا تخذلني فيها، ولا تخذلها في إلا أن يكون قضاؤك خيرا مما أردنا لقلبيننا. بعد أن غادر قبر الرسول الكريم كتب على أثير هاتفه المحمول يقول لها: "تداؤك علي هاتف يأتي من شاطئ البحر ليتجدد شوقه على شاطئ البحر، أما عن روحك التي تؤنسني فهي حديث الشوق والاعتراب. هي النداء الذي يتردد صدها بيننا. صدى يأتي من شاطئ البحر ليعود إلى شاطئ البحر، تذكرني ما تنطق به قلوبنا. إنه الشاطئ العجيب الذي قربه فراق!"، وفي المساء كان بينهما لقاء طريف داخل "القهوة العربية"، إذ جلست قبالتها هي وأسرتها ريثما يجعلان من حديثهما على أثير الهوى حديثا على

أثير القلوب، أو كما قالت في مكالمتها الهاتفية: سنجعله حديثاً على
أثير العيون. تكتب إلي، واكتب إليك من هاتفينا والعين في العين! كان
يجلس بجواره ابن خالته، وقد أعد له "هاتفه" الخاص ليقرأ منه
تحيتها:

- طاب مسائك!

فأرسل إليها ما ختم به حديث أول أمس:

- نداؤك علي هاتف يأتي من شاطئ البحر ليتجدد شوقه علي
شاطئ البحر! ذاك ما كتبت وأنت تحيني تحية المساء. اسعد الله
مسائك!

فأرسلت إليه ما كتبت به بعد وداعهما أول أمس:

- وَرب الجنة التي انفَلقت عند أول لقاء، وَالحمرة التي استوطنت
وجنتاي عند أول قُبلة في الحلم إني أحبك، ورب الصدفة المباركة،
واللقاءات الغائمة، والرياح والليالي، والعصافير الهائمة إني لك
مشتاقة، والمساء دونك لا يطاق، كيف حالك؟

- حالي من حالك يا عصفورتي الهائمة، واسألي سماء قريتك
فلعلها تمطر الآن، تمطر شوقاً، وحنيناً كما يحلو لك إن تعبيرني عن
الحب بكلمة: "الحنين" فالحب في قلبك ليس إلا حنيناً، لهذه الكلمة
سحرها ما نطق بها قلبك. هل انتظرت قدومي بالأمس في حديقة
الشاي؟

- نعم انتظرتك!

- وطال الانتظار عليك أم تراجعت سريعاً؟

- انتظرتك حتى قبيل الفجر!

- وكيف تفعلين ذلك بقلبك وبقلبي، ألا تعلمين إن قلبي معك؟ لم
- لم يأت معكم السيد الوالد؟
- والذي ينهي عملا عاجلا!
- أطال النظر إلى والدتها أو إلى مرضها، وسألها:
- كيف حال الست الوالدة؟
- كتبت ناظرة إلي أمها:
- الحمد لله! ولكنها قلقة جدا!
- خير إن شاء الله!
- قريبا سيحدد الدكتور موعدا للعملية!
- الله المستعان! وليكن رجاؤنا فيه كحسن ظننا به، ولعل الأم
- صابرة راضية!
- الحمد لله! ونعم بالله! ها هي تتحدث معي!
- يا لك من محبة! وفيما تحدثك؟ إنني أرى عينيها بعينيك فهل ترى
- طائر الحب يرفرف في شغف عينيكَ؟
- ليست هي فحسب! ناهد أيضا تراه!
- آه من نظرتها إليك! كأنها تنظر لي وانظر إليها، قللي لها
- بعينيك فقط إنني أريد أن المس موضع المرض منها. أريد أن المس
- تلك الكلمة التي تحملها من الله. في بيتكم كلمات الله، نعم بلا مغالاة
- أو تعسف للحقيقة، المريض كالنبي يحمل من الله كلمة اسمها
- الرحمة، أو الأوب، كما وصف عبده أيوب: "إنا وجدناه صابرا نعم العبد
- إنه أواب" ألا قلت لها بلسانك لا بعينيك هذه المرة إنني أريد أن المس
- كلمة الله؟ لقد حاصرناك يا بنية، وحاصرنا قلبك، ووعيك، وخيالك ما
- الذي بقى منك يا مسكينة؟ نعم ما الذي بقى منك يا حبيبتي؟

- قرأتها لوالدتي، وناهد قرأت كلامك معي كاملا!

- كاملا! لا تقولي ذلك!

- كلامك لامي قرأته لوالدتي، ثم أنت ناهد وقرأته مرة أخرى.. قد

أعجبها ما قلت!

- ها هي الأم تصمت كأنها تشفق عليك من هذا الذي يريد أن يلمس كلمات الله التي خص بها عبادة. يا ليتك! تقولين لها أنني سوف أأتي إليكم، أو على الأقل أمر بدياركم مرور الكرام، ويا ليتها تعذر ذلك الطائر المهاجر ما دام في السماء. ألا تقولين لها إن ما تقرئينه الآن قد كتب من قبل، وما نفعه هو التلاوة من لوحة الحب المحفوظ! ألا تقولين لها إن العنان قد أطلق لذلك الطائر منذ كان الحب هجرة؟

فكتبت تروعه بنظرتها لا بما تكتب:

- قلت لها.. قرأت لها ما قلت!

وهذئت من روعه:

- أنظر! ها هي والدتي الحبيبة عيناها تبتسم لي أيها الحبيب!

- ما أروعه من تبسم! إنها كريمة كابنتها وبناتها. كلنا نحاصرك

يا بنية!

- ما أسعدني بهذا الحصار!

- ماذا يقلن لك البنات، وفيما يشاكسك الطفلان العزيزان؟

- أنا لا اسمع إلا أنت وقلبك!

وتخفف من قيد طرحتها مظهرة خصلات شعرها، كأنما تذكره

بشعرها في الحلم وهو يحول بينه وبين ثغرها.. طالت نظرتهما حتى

سألته:

- هل لازلت مولعا بالجمال؟

- أنا مفتون بكل ما هو جميل مثلك. الجمال مثل الحب ربيع الحياة، أعطيني زهرة، أو منظرا طبيعيا، أو وجها معبرا كوجهك، وأنا أهيمن، وانهل من مورده! أين تغرك يا طفلي؟ ها أنت حيرة! ها أنت يمسك الجنون! جنون القرب لا البعاد! أنا الذي يجنبك لهيب الحقيقة! - أجل! أجل! هذا هو لهيب الحقيقة. ويا له من لهيب!

ثم عادت تروجه، وكتبت تقول:

- حبيبي! أنتظر.. فقد اخلُ بك الآن!

وتحدثت إلى والدتها، ثم نهضت ليلتيان في "مول" قريب من المقهى، سألتها:

- ماذا قلت للأُم؟

تبسمت قائلة:

- أفنعتها بأنني سأغسل وجهي!

طلب يدها يصافحها وهو يقول:

- كم تمنيت الحديث إلى والدك قبل عودتي إلى مصر!؟

قالت وحنين يدها يُسكن قلبه في عاصفة الحنين:

- أمنيته هي حلمي، وحلم المطر في قريتي.. دعني أهد

للقائكما!

دون أن يشعر ترك يدها قائلا:

- لا يلىق بمثل قلبي أن يعبث بمثل قلبك!

فقالت تريد يده ثانية:

- أعمامي لابد أن يتفهموا أمرنا!

فهتف قلبه:

- يا حديث العشائر! طائر الحب قد ضل طريقه وهو في سماء الحب التي يعرف مآلتها! ضل يا بنية، ألم تخبرك كلماتي من أنت قبل أن تكوني؟ لقد حلمت بالذهاب إليك، وها هو الحلم يسير حلماً إلى غير انتهاء!

- إن قلبي مهدد بك، وبفراقك!

- إن قلبي يجده في كل شيء حوله لأنه يخاف ألا يجده في مكانك الذي ينشده!

- أحبك يا أبن القاهرة، ما اشد احتياجي لحبك وقربك!

- وما أقس عذابي الذي تجهلينه! نعم، هو ذاته احتياج قلبي لحبك ولك!

- تحدث عن هذا العذاب الذي يشبه عذابي؛ فانا أحب أن نتحدث عنه، لكن اعلم إنني أحب هذا العذاب حتى وإن كان قاسياً عليّ وعليك! - وأقصى ما في ذاك العذاب ألا ينطلق القلب في حبك، ما أشبه هذا القلب المسكين بطائر قد حددت إقامته ثم فتحوا له السماء، وما إن انطلق أحس أنهم يربطونه من أحد ساقيه لا إحدى جناحيه، فرفرف في مكانه ذلك المسكين، لقد ربطت ساقه العشائر، والقبائل فيما كانت سماء "قريتك" مفتوحة، يا حيرة قلبي، عليك وعليه، وعلى سماء القرية. سماء الحب الذي يعيش الحاضر ماضياً، ومستقبلاً، يا حسرة القلب ويا حسرة السماء! لقد فات أوان الحيرة، وها أنا أعيش أوان الحسرة، أو تحسبين أنني غافل عما تعيشينه هناك؟! كنت اعد حقائق الهجرة ولكن القطار لم يصل. قطار قريتك لم يصل، ولم تصل سفينة البحر، يا حسرة قلبي، على جناحيه المرففين، فهل هو يطير؟ ربما!

- يجب عليه أن يطير. يجب أن يتخلص من هذا القيد. أيتها العشائر، سماء قرיתי مفتوحة بضبابها، وعودها، وبرقها. أيتها العشائر، والقبائل سماء قرיתי مفتوحة لطائري. مفتوحة لقلبه. مفتوحة لحبي وحبه. أيتها العشائر اقسم إنني لا انتمي لكم إن حلتُم بيني وبين طائري! آه من الصمت في غير أوانه!

- آه! من الصمت في غير أوانه حيث هو ثمرة ناضجة ولكنها ثمرة سقطت أسفل شجرتها، فلم يقربها احد، أما عن روحك ليلة البارحة فهي حديث الشوق والاعتراب، هي النداء الذي يتردد صداه بيننا، صدى يأتي من شاطئ البحر ليعود إلى شاطئ البحر، تذكرني ما تنطق به قلوبنا يا بنية، انه الشاطئ العجيب الذي قربه فراق ولوعة شوق، أو كما أحببت أنت أن تصفيه: "لوعة حنين"!

- الحنين هو شاطئنا القريب البعيد. قلبي ولع جدا بك، وبقلبك! سألها:

- وماذا عن رأي ناهد؟

- في حديثها العام تنبذ الأعراف التي تقيد القبيلة، تقول: لا مانع أن تبقى بعض الأعراف، ولكن يجب أن تختفي بعض الأعراف لأنها تعيق الإنسان بداخلنا، تعيق قلبه، وروحه، وتقيد به لا يريد!

- لقد أثلجت قلبي هذه البنية ولكن الم تحذرك من التماذي معي؟! - تحذرنني تارة، وتارة تقول لا! هي مؤمنة بالحب، وبأنه يفعل المستحيل! قلت لها مرة: ووالدي؟ فسكتت لتقول: يا بنت، اتركيني احلم! ناهد مثلي بين "الحلم والواقع"!

- أجل! بين الحلم والواقع وتلك هي الحسرة القلبية يا ابنة أبها! سألها:

- ما دراسة ناهد؟

- تدرس اللغة عربية مثلي.. آخر سنه لها في الجامعة، بقى لها

ترم وتنهى دراستها بتفوق!

خطف قلبها بنظرة عميقة، وقال:

- أكاد اسمع خفق قلبك، والمح شرود ذهنك، وأشعر أن قلبك

يهرب منك ويندفع صوبي ملقيا بمخاوفه جميعا إلي. ما هذا الرعب

الذي فيه قلبك، كأنني سأودعك حالا بلا لقاء!

- حقيقة قلبي مرعوب الآن، وهارب إليك حقاً؟ لكن دون وداع!

هربت من مرض أُمي ومن قلقها الذي تداريه، وقد فضحت عيناها،

وصوتها. هربت حتى لا تشعر بقلقي عليها، وقد طمأنتها إني لن

أتركها، وسأكون معها، واني وإخوتي لن نتركها، والله هربت أنا وقلبي

المرعوب إليك!

- الله المستعان!

عادت تسأله:

- لم قلت وداعا بلا لقاء؟

- كنت اختبر شعوري في النفاذ إليك، وربما أردت أن اعرف ما

مدى ثقتك في استمرار حبنا!

- وهل عرفت؟

- أنا اعرف انك كما قلت تعيشين بين الواقع والحلم وهذا هو ما

اعرفه، أما عن مدى صمودك، أو توضيحتك في ذلك فلا تزال كلمات

مثل العشائر والقبائل والأعمام... لها صدى في نفسي!

- ألمتكم؟ آسفة جدا!

- ما أَلمني هو شعورك الذي نقلها إلي، ولا داعي للأسف، وإياك أن تحتجزي مشاعرك عني فهذا خطأ كبير!
- شعرت بالخوف عليك، لكنني عرفت إن هذا الخوف لا داعي له فأنا استمد منك قوتي! لا شيء يهمني غير والدي!
- وصلني ذلك الشعور ولكنه لم يحجب الحقيقة المؤلمة.. وأنا كما تقوليني لا أهاب الحقيقة، بل أنا عاشق لها، ووالدك جزء من تلك الحقيقة، ولك عندي من الأعداء ما يساوي الحقيقة في نبلها، وأنا لا أتعجل الحقيقة، ولا احجب نورها عن قلبي!
- معك وبك أوجه كل الدنيا بقبائلها، وعشائرها، وأعرافها!
- لا تثريب عليك يا بنية، سوف يبقى بيننا شيء نعتز به، ونحافظ عليه معا!
- لا تقل هذا! لا داعي لقول هذا لأننا لن نفترق، اعرف إنني لن أتخلي عنك، اعرف إنني لن أتخلي عن قلبك وعن حبنا!
- هذا ما نرجوه معا!
- إذن لا تقل هذا.. أنا فتاة لا أتحمل سيرة الفراق. لا أريد أن يحدث هذا، ولأنني لا أريد أن اشعر، أو تشعر أنت بمرارة الفراق يجب أن يستمر حبنا الخالد!
- أنا لا أريد أن أحملك ما لا طاقة لك به، ولعلنا نسير الهوينى في نهر الظمأ، وأنا لا أخاف الفراق إن كان هو الحقيقة!
- أحبك وكفى!
- هو ذاك ما أأمن به، ويعتقده قلبي!
- إذن دعنا لا نتحدث عن الفراق! لطفا!
- أنا لا أتحدث عنه إلا لأنه من شوارد قلبك!

- آه.. يا حبيبي!

- سأكون رفيقك دائما ولن أغيب عنك طرفة عين أو طرفة قلب!

- بحبك!

- هو ذاك ما سيبقى بيننا ونعتز به ونحافظ عليه!

- نعم سنبقى عليه بلا شك يا روجي أنت! إذا آتيت لقريتي

سأأخذك إلى مكان اسمه ذات الأعمدة مكان جميل جدا.. اكتشف هذا

المكان بنات عمتي، ولا احد يذهب إليه غيرنا كثير ما أأخذك إلى ذلك

المكان حيث لازمان ولا مكان! من غريب حبا انه أقصى الزمان

والمكان؛ لذا أنا الآن بين أحضانك.. هذا كل ما أريده الآن، وأشعر به!

- آه منك يا ابنة أبها! أنا في حضن دياركم، وأنت في حضني!

فماذا بعد إلا الحب؟

- احبك ابن القاهرة احبك أكثر من أي شيء آخر!

- آه منك، ومن ذكاء قلبك.. يا ويلي منه لا منك!

- لما تقول هذا؟

- لأنك رفيقة ذلك القلب وحارسته المتلصصة عليه؛ فأنت تعرفين

نبأته الخفية، وذاك هو ولعي بك. هذه هي اللحظات التي لا أطيق

صبرها، لماذا أنت هناك؟

- كنت سأسألك نفس السؤال! ضمنى إلى جوار قلبك يا حبيبي

وفقط!

- آه من قلوب العشاق! تأخذوهم بعيدا حيث لا ابتعاد، وكيف

أضمك إلي وأنت أنت القلب؟ نحن نتناوب الحراسة على قلبينا، ما لك

بعيدة يا ابنة أبها؟! سؤال لا زال يتردد كأنه صدى القلب!

- لكن المناوبة هذا المساء على أنا. دعني وقلبك!

- آه! من هذا السؤال. انه صدى القلب ليس إلا. عزائي الوحيد
إني اشعر بك هنا إلى جوار هذا القلب المسكين. قلبي مثل الضوء في
سرعته فهو كائن ضوئي. وأنت كما كنت حرة في شعورك، وفكرك،
وأثوثك. كنت حرة في حبك، ما أروعك، وأنت تتسامين بشعورك،
ورغبتك، ما اشد حسرتي لأنني لم المس منك الجسد والمعنى، نعم!
الجسد والمعنى، في صمتك حضور رائع حميم يجاوب كل ما في. كل
ما في هو من يخاطبك الآن. ما أروع صمتك العميق، وما أروع
إصغائك! أين هي من أشعر بقلبها وأنا أحدثها من وراء تلك الأميال،
ولا تغيب عني لحظة واحدة، بل طرفة عين أو طرفة قلب كما يحب
حبيبك أن يعبر معك!

- وحبيبتك تحب أن تعبر معك. ما أروعك! ما أروع إحساسك هذا!
هذا الإحساس وإن كان قد دخلت عليه الحسرة فهو مثل بلسم على
قلبي المرعوب هذا المساء! والله ما الحب إلا أنت، و والله ما أتمنى
رجلا آخر يقاسمني كل شيء غيرك، أنت سعادة هذا القلب، وهناءته،
وروحه الناطقة بكل ما فيه. نعم أحبك كثيرا!

- أجل، هو الحب الذي يجمع بين صداقة قلبينا لقد ذقنا طعم
الصداقة قبل طعم الحب كنا نطير بسرعة الحب!
- لا يأس بداخلي، وستكون زوجي وحببي!
فلم يقوى على ضغط يدها وهو يوصها:
- سأنتظرك أنا وحمام البقيع!

وجلس مع حمام البقيع حيث يأمل أن يقضي نحبه..

أجل يا ربي! لا تدري نفس بأي أرض تموت ولكنها النفس لا القلب، فهو الذي ولد هنا كما يولد كل من كتبت عليهم الهجرة، فهذه البقيع مدافن المهاجرين إلى الله بأرواحهم، وقلوبهم، وضمايرهم، وهذا حمامها لا يبرح يسأل الزائرين: ما بال العرب عند كل مولد لهم يسفكون دماء العرب؟! ما بال قتالهم لبعضهم كتناسلهم من بعضهم؟! كم من أهل البقيع قتلهم العرب؟ ومن من غير العرب استحل حرمة المدينة والكعبة؟ أبرهة منعه الطير من دخولها، والسفاح دخلها بالمنجنيق!

وحيل بين لقائهما وحمام البقيع؛ فأطلت عليه من نافذة الفندق وهي تقرأ من هاتفها ما يكتب:

- قدر لأحاديث قلوبنا أن تكتب على أثير من الهوى، وأثير من حضارة الغرب. فأين المفر؟
فكتبت:

- بلغ حمام البقيع سلامي واعتذاري، وبلغ قلبك حبي لك، ومواساتي له لعدم حضوري!

- نحن نراهن، أو أنا وحدي أراهن بكل ما اشعر به من زمن غير زمن الحياة. الرهان هو الأبد. فأنت وجودك سابق للزمن الذي أعرفه. أنا انقل من لوح حبنا لمحفوظ، إي والله، إحساسي بك يغترب بي عن هذه الدنيا! ماذا افعل بالحوار العين؟ بالله عليك قول لي ماذا افعل بهن؟! سؤال طالما سألته لنفسي قبل أن أراك رؤية القلوب. كنت أقول

لهم ذلك فيدهشهم السؤال، ولا يدهشهم قلبي وخيالي! آه.. لماذا أنا هنا الآن؟ هذا ما أعيشه لحظة بلحظة، وطرفة قلب بطرفة قلب!

- ما ألد واقسي ما نعيشه في حينا!

- أنت تشردين بخيالي ووعي، وما الحياة إلا عدوة من جسر ينتهي إليك ولكنه جسر لا نهاية له. ودعيني حتى اخلد إليك من جديد. يا لك من حضور طاغي حتى على الارتواء. أنت تطغين على الارتواء لا الظما!

- احبك.. أنا أعطشك!

- أجل! أنت ديمومة العطش. سامحك الله أنت وقلبي. لا لم يعد قلبي!

- قد قلت لي خذي كلمات حبك من قلبي، ولكني سأؤخذ كلمات حبك من هديل حمام البقيع!

- روحك ها هنا أروضها بكلمة السحر والفداء. طقوسنا في الهوى يعجز عنها كهنة السياسة وكهنة الدين، فماذا عندك من الطقوس؟

- من طقوس حبي لك إني انظر لنفسي في المرأة قبل أن آتي إليك، ربما عدلت شعري، وربما تعطرت.. قلت لك من هاتفي قبل قليل دقيقة حتى افعل هذا!

- أنت تبهريني باختيار قلبي لك فأين أجد مثلك؟

- ممم! بالطبع لن تجد، وإن وجدت فلن تكون ابنة أبها التي أحبها قلبك!

- كيف اختارك هذا القلب؟

- أنا لا أريد أن اعرف كيف اختارني قلبك!

- هذا القلب موقن من انك أنت ولا امرأة سواك. هل تعرفين أن قلبي سبقني إليك بأميال من فارسخ الهجرة؟ كنت كسلحفاة إن قيست سرعتها بسرعة الضوء، وهي سرعة قلبي، إليك ذهب بلا وداع بين وبينه. تركني بلا وداع كأنه يسخر من بقائي على الأرض وهو يُخلق في سمائك!

- إلى متى، وإلى أين يهاجر بنا الحب؟
- إلي أين يا حب؟ إلى ابعد من الحب إلى ذلك الوجه الذي يبتعد بي إلى ابعد منك، وابتعد من الحب! ليس في الحب إلا وجهك وملامحه. كل أسرار الحب وغموضه في ملامح وجهك، إنني أبدو كطفل صغير لا يفهم من رموز وجهك إلا إحساسه به. إحساس جارف مريح ولكنه غامض. هالة من السمو تتبد في ملامح ذلك الوجه، ماذا في سموه من مودة؟ وماذا في مودة من سمو؟ ذلك الوجه يأسر خيالي، ويكبل وعي، ولكنني أحبه. كل ليلة يطالعني فاشعر تارة بأنني طفله الجهول، وتارة اشعر بأنه طفلي المبين! لا شيء سوى الحلم بيننا، لا تغمضي عينيك فحللنا سوف يسهر بنا، ويسهر بحبنا كثيرا، أين أنت من ذلك الوجه وتلك القسمات؟ وكيف لي أن أرى غير وجهك وملامحك؟ وأين هي الوجوه التي يستطيع القلب والعين رؤيتها؟ العين أصيبت، والقلب لا يدق إلا لك، ها أنا احبك وكلمة المرض تتلى في بيتكم وترتل بلسان الغيب كأنها ترتيل من حبنا! الأم ستجري عملياتها، ثم يليها عزيز المرض أو طفله المرهق بكلمته، ثم يليهما الأخت التي أغمضت عينيها على كلمة المرض لترى نور الله! هل سأغضض عيني يوما ولا أجد ملامح وجهك؟ ربما، ولكن هل سيجدني القلب كما تركني معك؟

- حبيبي! هذا الإحساس كثير علي! قلبي المسكين بحاجة
لتضمني إلى قلبك الآن!

- ودعيني، فكل شيء فيك يأخذني مني!

- لا أنت ولا قلبك ستفارقني، أو تفارق قلبي، ولن تفقد قلبك وهو

معي دائما!

- لا تثريب عليك. لا تثريب!

- احبك جدا!

- قد فعلت كل ما تستطيعين فعله، يكفني في حبك انك ظهرت لي

ولقلبي، ودعيني!

- لا تقل هذا أرجوك!

- لقد رايتك يا حبيبتي، وحسبي من الحب وجهك وقسماته!

- لا تقل هذا!

- أنا في حاجة إلى عمر طويل كي أصل لعمق ملامحك، فهي هنا

في مكان ما، ولعلها في كل مكان. هي البحر الذي بيننا، وهي الرمال

التي بيننا، وهي أنا. أنا الذي أجهله وتعرفيه أنت. أنت ذلك السمو

الذي يأتي بعده الحب، وتأتي بعده الحياة. أنا في حلمك الذي لا

تغضض له جفون. حلم يأخذني بعيدا. ابعد من الحب ذاته، حبيبك لا

يستطيع غير حبك، وغير تأمل ملامحك الفريدة، والعميقة عمق حبي

لك، فهي تملئ العين قبل القلب. القلب يعرفها كما يعرف دقائقه، أما

العين فلا تزال كلية عنها لأنها حديثة العهد بملامحك!

- ما بك يا حبيبي؟!

- يغترب بي وجهك. الحنين إليه قديم جدا. انه كطائر يقبض

بمخالبه على قلبي. اغتراب ما بعده اغتراب. أصبحت لا أخاف الفراق،

وإنما أنا أخاف ألا المس ذلك الوجه ولو مرة واحدة. كل ما احتاجه هو لمس ملامحك ولو مرة واحدة. أين وجهك مني؟ وأين أنا منه؟ هل شعرت بالغربة معي وأنا انقل كلماتي من قلبك؟ إن شعرت بالغربة مما انطق به فهي غربة قلبك وليس قلبي؟

- يا ليتني أتنفس الصعداء!

- إنها اللهفة والإشفاق البالغ. ها أنا هنا أخطبك مخاطبة القلب للقلب، ولكنني أشعر بأنك هناك. كيف لي أن اكذب حضورك؟ ما أعجب شعوري بك! في نفس اللحظة التي ارتوي فيها أجديني في اشد الظمأ. في نفس اللحظة التي اشعر بك إلى جوارتي اشعر بأنك في غاية البعد عني. حيرة ما بعدها حيرة. كيف اصمد لك هكذا، واستعذب حديثي إليك؟ ماذا عندك يا طفلي من الاغتراب؟

- لا بأس يا حبيبي، مسحت هذه الدموع!

- ها هو البحر الأحمر يحول بيني وبين دموعك! ها هي المسافات تحجبني عن جسديك المذهب النحيل، ولكن لا شيء يحجبني عن قلبك لأنه قلبي، فدعه! دع قلبك يخبرك بالحقيقة!

- أجل اخبرني!

- ليس القلب فقط وإنما الكلمات أيضا تستمد حريرتها وعافيتها

منك، لا تعيني الرمال على قلبي، ولا تعيني ذلك البحر علي!
لم تستطع صبرا على الكتابة، ونشب طائرها مخالبه في قلبه وهو يسمع رنين مكالمتها الهاتفية. آه! مما توقعت انه صوتك الرفيع المغترب في أشواق الحب، وحيائه وعذريته. انه الصوت الذي اسمع منه ما لا تستطيع الكلمات أن تقوله. انه صوت ذلك القلب المتيم

الخبول. لو تودعيني حتى اغترب في صوتك الرفيع المغترب في
أشواق الحب، وحيائه وعذريته!

16

لم يغادر تراب البقيع، ولم يودع حمامه، وبقي مع أهله يُوصل
أولهم بآخرهم، ويسمع من الموت كيف يكون الموت لقاء إلهيا؟ ثم
أحب أن يجلس على ترابه بين الروضة ولحد إبراهيم وأمه مارية
القبطية، وسنح له جده الأعلى الخليل إذ يبتاع قبرا له بأرض فلسطين،
وتفقد الجبل الذي خاطبه الأب النبي: "لو كان بك ما بي لهدك!"، ونظر
إلى الشمس التي كسفت في العيون، فقال النبي الأب: "كلا.. إن
الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفن لموت احد ولا حياته".
أهي مصادفة أن يتزوج النبي من مصرية قبطية؟ أهي مصادفة أن
يخاطبه، ويهاديه مقوقس مصر؟ المحبوبة قالت لوالدها وهي تحاجه
في نوايا قلبها: النبي عليه السلام تزوج مصرية! لم يقطع عليه حديث
الموت، وسكينة المهاجرين إلا اتصالها الهاتفي المتكرر، ولكن للذاكرة
حنين من حنين القلوب فلا تفتأ تعود به إلى البداية التي سمع فيها
صوتها لأول مرة بنبرته الرفيعة الخجولة التي تتسام بالخجل، والحياء،
والرغبة، والأمل، أو المتسامية بالرغبة تساميتها بالحياء كما أخبرها
وهي على الهاتف لأول مرة؛ فقالت:

- دعك من صوتي الآن واعترف أين كنت خارج البيت؟
- كنت معك. في كل خطوة أخطوها خارج البيت أكون معك!
فسألته:

- وداخل البيت؟

فقال:

- تكونين أنت معي. ألا تقولين رأيك في إحساسي بصوتك؟

- إحساسك هذا سيقْتلني يوما!

- أو يحبك!

- يحبيني؟!!

- أو تشعرين بضراوة اللفة؟

- نعم اشعري! ولا تتأخر علي هكذا، أو اترك لي رسالة إن كنت

ستأخر!

- أسف جدا!

- لا.. لا تعتذري يا حبيبي!

- لذلك حرصت أمس أن أخبرك بما سأفعل؛ فقد شعرت بمدى

افتقارك لي، أين كان الماضي يا حبيبتي؟ أين كان الزمن قبل لقائنا؟

كأننا كنا هناك، نحن نتحدث ونتكاشف كأننا ماضي الزمن! ما هذا

الصمت؟

- هذا ليس صمتا، انه التفاني!

- لا تذهبي بي هذا المذهب؛ دعيني أروض نفسي على القناعة،

دعيني المس أنفاسك، نعم المسها.. مفهوم!

- مفهوم! ولكن أي مذهب تقصد؟

- مذهب التفاني في ثغرك!

- قلبك يقول، وأنا أعيش كل ما تقول كأنك هنا يا حبيبي!

- أنا أعرفك ولا زمن قبلنا. رأييت من يكون هذا الذي أحبيت؟ يا

ويلك من قلبي!

- ويا له من حبيب! ويا ويلك من جنون هنا لم يظهر بعد!
- ما أحب جنون حبك إلي! ما رأيك في واقعنا الذي يشبه الأحلام؟
- ما رأيك في سعادتنا التي تشبهنا وحدنا؟
- هذا الواقع الحلم لا مثيل له. وهذه السعادة أدعو من أجل أن تستمر!
- سوف نجعل السعادة تسير ورائنا. سوف تسبقنا أحلامنا.. ثم ماذا فعلت اليوم مع المطر؟ وهل ذكرتني؟ قل لي ذكرك بعد قطراته!
- وبعدها نزل معه من ثلوج!
- أنت تثرين خيالي، يا لطاف الله! هل تعيشين في تلك الأجواء التي أتيتم بها؟
- نعم! أعيش في هذه الأجواء.. هنا الأجواء لا يمكن وصفها لشدة روعتها! أتعلم؟
- هل أقبلك بمناسبة المطر والثلوج، وتلك الأجواء التي تستمد روعتها من سمو نظرتك لها، وشعورك بها؟ ثم ماذا اعلم؟
- لا! دعنا والقبلة الآن في هذه الأجواء!
- لم يخطأ القلب فيك.. أتى الربيع، وربيعنا مختلف يا ربيع العمر، لم يخطأ القلب فيك، ألا تسعدك هذه العبارة القلبية؟
- تسعدني جدا يا حبيبي القلب!
- أي الفصول تحبين؟
- الربيع.. وأنت إي الفصول تحب؟
- لا! سوف نحب معا كل فصول السنة!
- أوافق.. لنحب كل فصول السنة معا!

- سوف نمزجها بحبنا. لا تفرقة بين تلك الفصول. سوف نحبها كلها كما تحبنا هي كلها!
- سنفعل! حتى الشتاء سأحبه معك، ومع حبنا! البارحة كنت تنادي علي كثيرا وأنا نائمة.. استيقظت مرات، وأنت تناديني باسمي!
- أو حلمت بي حقا؟
- والله! حلمت انك تنادي علي، وأكثر من مرة استيقظت من اجل هذا النداء!
- وسوف أنادي عليك دائما، ألم تسألني نفسك لم أناديك بكلمة بنية؟
- نعم سألت نفسي، فلما تناديني بنية؟ ثم أني أحب حين تقول يا بنية!
- جميل أن تحبي ذلك، والأجمل إذا ما عرفت إنني كنت أخطب فيك ضميرك، واصلق ما في حياتك، وهو الحب كنت أخطبك بهذه الكلمة الودود التي تُحملك أمانة هذا الحب الذي يجمع بين العاشق والأب!
- أجل! أجل، أقرء إحساسك هذا فلا يكون مني الآن إلا أن ابتسم، إذن أنت العاشق والأب!
- أحبي ذلك الذي يحبك وقد أطلق العنان في حبك، أحبيه بكل ما فيك: من وعي، وخيال، وضمير.. قلبك هو قلبي شئت أو لم تشاء!
- بحبك!
- نحن نطوى زمن الدنيا، نطويه طيا. انه الأبد الذي نعيشه مرات!
- لا تجعلني ابكي الآن!

- ابكي يا حبيبتي، ابكي! سوف أرى دموعك كثيرا! تذكرني أن حبيبك قد امتلأت حياته، وموته بك.. نعم وموته! فقد أرضا منك بأقل القليل ولكن لا تحرميني أن أكلّمك، وأبث لك وجدي وأحلامي. سوف أناديك في أحلامك، وإياك ألا تستيقظين، إياك، ولكن لا تذكرني البكاء وأنت ها هنا إلى جوارى، واذكري أننا نطوي زمن الدنيا، ونخلق الكلمات من جديد، وسوف نحرث لها الأرض، والنهر، وسماء الخيال، يا ويلك من قلبي الذي يلهث وراء خيالك، وظلك، ووحيك!

- اطوي زمن الدنيا يا حبيبي، قبل أن يطوينا!
- الم تلاحظي أن الكلمات التي نقولها كأن نصف معناها عندك، ونصفها عندي؟ أنها لا تكتمل إلا بنا!

- تعبير جميل هذا يا حبيبتي: لا تكتمل إلا بنا!
- نحن من يكمل حياتها، وخلودها، ولن تموت ما نطقنا بها
قلوبنا!

- لا تتركني أبدا!
- لا، لن اترك، وليس في نيتي ذلك إلا إذا خنت أنت حبا، وكفرت بوحيه، سوف أتركك تبعدين بخيانتك ولن اذكر منك إلا كلمات حبا، خوني يا حبيبتي، إن شئت، فلا تثريب عليك في الخيانة، ولكني أأخذ العهد منك!

- لا تغضبني الآن!
- أنا لا أغضبك، أنا أعطيك كامل حريتك في أن تفعلني بقلبك ما تشائين، وهو في حقيقة الأمر لم يعد قلبك!
- إياك أن تذكر الخيانة ثانية!
- أنا أحاصر نواياك. أين المسافات؟

- منفية! لا وجود لها!
- أين البحر الأحمر الذي يفصل بين قلوبنا؟ لا وجود له. يا له من مسكين!
- قلبي أم، البحر الأحمر؟
- كلاهما.. إذا عبرت ذلك البحر يوما إليك سوف أحدثه بكلماتنا التي ألهمنا بها الحب، وسوف انظر بما يجيب. حبيبتي، النهر لا حدود له ولا شيطان، إذا ملكت القلب اذكرني انه قلبك، وليس قلبي!

17

- في مساء المدينة المنورة ضرب قلبه صوت رسالتها من الهاتف إذ تقول: لن تعود إلى مصر قبل أن أراك.. انتظري في بهو الفندق سأنزل أنا وأحلام، ومعنا الصبي المريض الذي تحبه! ثم خلا بها، وجلست واجمة تسأله:
- ما لك تنظر إلي هكذا؟!
- فقال موعلا في وجومها:
- أنت تطاردين نفسك!
- قالت دون أن تسترد وعيها:
- كيف؟ ولم أطاردها؟
- ناشدها:
- ألا تقولين لنا كيف!
- بعناد لا إرادة له:
- أنت من قال إنني أطارد نفسي، فلم أطاردها إذن؟

- أنا أحب فتح الأبواب وها قد فتحت لك فادخلي أو أغلقه!
 - ادخل أنت بما انك فتحته!
 - آه! منك يا ابنة أبها أنت المطاردة ولست أنا!
 - دعك من هذا، وهيا أخبرني لم أطارد نفسي كما تزعم؟
 فيهف بها قلبه:
 - تطاردينها من أجل حبك كأنك تسوقينها سوقا إلى مذبح الفداء!
 فأسدلت جفونها متنهدة تهمس لقلبه:
 - آه! من مذبح الفداء هذا كيف خضت في رماله القريرة في
 أعماقي!
 - الخيال هو ما نقب في رمالك!
 فأسلمته عينيها، وتبسمت قائلة:
 - لم اسمع رأيك في أخي الذي تحبه!
 - لقد خطف قلبي منك ومن نفسي!
 سألته كأنما تسأله عن جراح قلبها:
 - أو لاحظت على وجه أي أثر من العمليات الست التي أجريت له؟
 فقال:
 - لم الحظ إلا حضوره القوي الممتلئ بالحياة، ونظرته العميقة
 جدا، فهو الطفل الحكيم. له نظرة فيها من الحكمة اكتفائها بمصاب
 الحياة، إن قدر له التعلم الجيد والصحة الجيدة سيكون له شأن وأي
 شأن في عالم الفكر!
 فقالت ممتنة:
 - هذه رؤيتك له، وبإذن الله يكون له شأن وبالفعل هو طفل
 حكيم، وذكي جدا في دراسته، وهذا ما قاله معلميه لوالدي، كما أنه

يحظى بعناية فائقة من الجميع دون استثناء، ثم أني اشرف على حياة الطفلين العزيزين!

- هذا الذي أرهقه المرض منذ استقبل الحياة ربما كان رائدا في التفكير المفارق للمألوف؛ لأن الإنسان الذي يولد بالمرض يطبع على الانشغال بنقائض الحياة.. إنه الطفل الحكيم اليوم وغدا سيكون الحكيم الطفل!

- ستكون يوما إلى جواره بإذن الله!

- إن شاء الله! وعلى فكرة طفلنا كفيل بمرضه!

- كيف؟

- قلت لك انه قد اخذ من الحكمة رضاه بالابتلاء ليس عن عجز أو تسليم بمقدر، وإنما عن رياضة نفسية قد ولد بها ولها! وسؤاله عني الليلة والأمس جعلني أردد مع أستاذنا العقاد: "يا عزيز الدمع أين الدموع كم تريد البكاء وما تستطيع".. قل لي لأبيك في مصر من يحب أسرته!

- يوما ستلقاه وتخبره بنفسك!

- كان حبك ولا شيء معي ثم كان حبك وأنت معي، فهل ستكونني

دائما معي؟

- أجل! أكون دائما معك أنا لا أستطيع غير ذلك!

- إذا وقفت يوما تحت سماء قريتك سوف اذكر البحر الذي بيننا

لأقول له: على شاطئك الآخر كنت أنا وهي هناك ولم تكن أنت بيننا!

- احبك!

- وأنا احبك كم أحب الحقيقة التي أريد أن المسها ولو مرة واحدة!

- وأنا أحبك، يا لها من كلمة كل بدني ياهتز بها بينما قلبي يبتسم لها!

- ما أروعها من تبسم!

- لو أعانقك!

- هو ذاك العناق الذي عشت عليه أمسي ويومي!

- إن قهوتي لا تكون حلوة دون قراءة شيئاً لك.. كل عصر اجلس

فيه مع أمي، وأعيد أحاديثنا المحفوظة في هاتفي وأقرأها بيني وبين نفسي، وأحياناً أقرأ شيئاً منها لأمي، كما كان عصر اليوم وأنت بالبقيع، وكم يُسعدنا صدقك؟!

- رضاها ينفذ عني أعباء كثيرة، ولكني دائماً ما يسبح لي ذلك

البحر الذي بيننا أنه رفيق اغترينا!

- والله! الحياة في غيابك جحيم لا يطاق أنا أحبك، وهذا كل ما

أعرفه من هذه الحياة!

- أجل يا أرق الناس، هي تلك الحياة التي ذكرتها قسمة بيننا.

حين أقبل يدك يكون لهذه القبلّة الأثيرة صوت كصوت ذلك البحر إن سمعت هزيج أمواجه فتذكري قبلتي!

- هذا أمر ما عدت مخيرة فيه.. قلبك هو حياتي!

- إن غبت عن بالك لحظة لا تدعيها تمر قبل أن تودعيني معها

وداعاً يرجعني إليك؛ كأنني لم أغيب ولم تغيب أنت ولحظتك! ثغرك مورد ذلك القلب الذي أحبك كم يحب الحقيقة، وهل من حقيقة سواك؟

- لا بالطبع! لا يوجد حقيقة سواي كما لا يوجد حقيقة سواك!

ثم أوغلت به في شغف عينيها وهي تعيد عليه سؤالها:

- بالله عليك لِمَ تنظر لي هكذا؟ أنا أحب النظر لعينيك. عيناك تربكني ورغم هذا اعشق النظر لها.. النظر إليها يأخذني من كل شيء، بالله عليك لِمَ تنظر لي هكذا؟

فناجاها:

- لأنك راهبة قلبي وقلبك. النظر إليك خيال يطوي جزيرة العرب مكانا وزمانا، أنت كحبات الرمال السعي إليها مخاطرة لا يريد لها إلا من أحب ألا يعود. أنت من بعث الخيال إلى حيث يحب، ويأمل، ويتأمل، وهكذا نحب الأفكار، أو المشاعر وهي في زمنها أو زمننا وحدنا. أنت فكرة قلبي، وزمنه الخاص، وحياته التي لا تشاركه فيها سواك. طريق الرمال طويلة، وأنت كمن أودعتني أسرارها كلها، وأتمنتني عليها، ألا يجب الأستاذان عند كشفها؟ بلى يجب لمن عرف كيف يحفظ الأسرار. تعالي نحفظها معا تحت سماء أبها وسماء القاهرة. شكرا لثقتك في، وحسن ظنك بي!

- ولك شكر الرجل النبيل!

وسنح له مرض الأم فسألها:

- من سيرافقها في إجراء العملية؟

- العمة من سترافقها، وقد أكدت علي أن اطعم زوجها كما يحب أو يعتاد، وأن اهتم بصغيرتنا، وبكليتها وبذهابها وبعودتها، ثم أكدت أن لا أضع ولو قطرة زيت واحده فيما يخص طعام الجد، وركزت على علاجه كثيرا، وأكدت على نور أن تساعدني وهي تفعل في الحقيقة دون تأكيد!

- لو أقبلك قبلة الوفاء للأم فربما عرف المطر!

وسألها حتى ترفع رموشها الخجلة:

- أين قلبك؟

فتهدجت:

- هو لك!

- أجل! وأنا له، وربما أكون لك!

فانقبضت قائلة:

- لم أحب ربما هذه!

فبسم يوافقها متوددا:

- ولا أنا أحبها، ولكنها مثل البحر الذي بيننا نذكره لنعبره لا لنقف

على شاطئه. تعالي نعبر "ربما" هذه ومعها البحر! تعالي لأودعك حتى

ألفاك!

فعاودها الانقباض متهدجة:

- لا تفعل هذا فجأة!

- أين قلبك؟

- يأتيك طوعا!

- لا تفعل هذا فجأة عبارة مثل سهم نافذ يمرق من القلب إلى

القلب، بمثل هذه العفوية أنا متيم بك. يأتيك طوعا عبارة لا تقولها إلا

عذراء الحب في عفويتها الأثيرة لدي ماذا بعد تلك العفوية إلا الأسر؟

أسرني كيفما شئت يا بنية!

فهمس بها سمو الحياء:

- بحبك!

- هو حبك ما نحبه ونحيا عليه، لا تغمضي عينيك علي إلا وأنا

معك، معك أسير على هواك بلا إرادة تريد. الشوق إليك يمتزج بالحياة

وهي نهر يجري بالحياة!

ولا يودعها حتى يستجديها بسؤالها:

- بالله عليك لِمَ تنظري إلي هكذا؟

فتقول:

- لأنني أنتظر قدومك!

سألها:

- أو لم أت بعد؟!

فطفر دمعها قائلة:

- أجل! أتيت إلي ولكني لم أت إليك بعد!

- علي ثغرك قبلة نفدت كسهم إلى القلب. منه أخذت كلمة الحب،

ألم ترسميها على شفاك؟

- بلى رسمتها!

- إلى أين يأخذني شغف نظرتك إلى ذلك الفناء، أم إلى سمائك؟

إنه يأخذني إليك وهذا يكفي. كيف لي أن أغض الطرف عنه؟ لقد

أخذني شرودك في إلى شرودي فيك. فلم تنظري إلي هكذا؟

- شردت فيك!

- لقد أوجعت قلبي بشغف نظرتك!

- لِمَ الوجع يا حبيبي؟

- شوقك زائد. شوقك لا يقف عند حد، فهو يتسع باتساع سماء

الهجرة!

- ألم اقل لك إنني احبك بحجم السماء التي لا اعرف حجمها؟ كذلك

شوقي لك لا اعرف حدا له!

- سبحان الله! كأنك مولودة بحبك لي، أو كأنني معك أعيش

الحياة لحظة بلحظة. من يصدق أن عمر هذه النظرة خارج نطاق

الزمن؟ من يصدق أنك تعرفين حبيبك من أيام وليس من سنين؟ ما أحب ملامحك إلي. أين ذلك البحر؟ أين أمواجه لتسمع شغف نظرتك؟ لمن ستنظرين هكذا من بعدي؟ سؤال معقول جدا.. بالله عليك جوبي إن استطعت!

- وهل سأستطيع النظر لغيرك؟!

- ستحتاجين إلى أكثر من عمر حتى تنظري لغيري كما تنظرين الآن إلي.. حقا للقلب نظرة. أنت تنظرين إلي بقلبك. هو الحنين إلى ذكرى حبك التي لا زمن لها، في نظرتك حنين الماضي، ولهفة الحاضر، وشغف المجهول!

18

وهو في الطائرة كان شعوره بالعودة إلى مصر هو نفس شعور أهل البقيع بالعودة إلى الدنيا. شعور يردوا فيه السلام لمن يحيهم بتحيته، أو شعور من يستقبلون الزائرين في دار المقام، فالنفس راضية، ورجاؤها في الرضوان سلاما مع الدنيا وأهلها، ولكن لسلام الهوى أبوابا إلى جحيم، ولرضاه أبوابا إلى يأس، كان بينهما البحر أو السفر ولما اجتز البحر والسفر ألقى بينهما القبيلة. رمال العرب تهاجر آلاف الأميال، وتعبير المحيط إلى أمريكا حتى تخصب أراضيها، بينما هجرة الدهر لم تخصب عقول القبيلة. صدق القرآن، وكذبت القبيلة: "وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين". كأنما سافر إليها ليفقدها. كانت أمامه فأصبحت ورائه، وبينهما جينوم

النسل إذ فرد شريط صفاته الوراثية بامتداد قطر الأرض. قبل السفر للعمرة بأيام قال لها:

- أنت مثال القلب، وستكونين مثالا للحب!

فقالت:

- أنا مثال في الحب لأنني أحبك، ولو لم يكن قلبك لما عرفت أنا الحب، وعلى فكرة أنا حين ذكرت أشهر قصص الحب في جزيرة العرب ذكرتها بغصة كبيرة، وسألت نفسي كيف من هنا خرجت أشهر قصص الحب، ونرى اليوم الناس تؤد الحب في مهاده. هنا صعب جدا أن يحب رجل أو فتاة في العلن. يعتبرون الحب عارا تخيل! الحب هنا عار على الجبين، وفي نفس الوقت لا يمكن أن تجد رجلا أو فتاة دون أن يعيشا إحساس الحب وكله في الخفاء!

- لذلك كنت ولا زلت أذكر "مذبح الفداء"!

- للأسف! عندنا أعلى نسبة طلاق بسبب طريقة الزواج، هنا أنت مجبر أن تحب زوجتك التي اختارتها الأم لك، والفتاة أيضا مجبرة أن تحب زوجها الذي وافق عليه الأب!

- معك.. وليست مصادفة أن نلتقي ولا أن نتحاب، ولا أن يذهب بنا الحب ابعد من الحب. أجل، سوف يذهب بنا الحب ابعد من الحب إلى الذكرى المتجددة في قلوب من سيحبون بعضهم مثلنا. أين أجد مثلك؟

- وأنا أأمن بحبنا؛ لذا لا بد من مذبح الفداء كما قلت أنت!

- لو تعلمين ما مدى إعجابي بك بمعزل عن حبنا!

- أخبرني عن مدى إعجابك إذن؟

- ليس لي ما ابكي عليه بعدك. أنت غاية للحب في ذاتك. كل ملح من ملامح نفسك، وكل معنى من معاني السمو في قلبك صورة لا تنفد معانيها في خيال فنان. دائما ما تملنين قلبي بالأمل والطموح، وما حبي لك أو حبك لي بغير تلك الثقة في الحب ذاته؟ ألم اقل لك أنها أنبل ما في حبنا؟ كيف لفتاة بمثل ذكائك وقوة شخصيتك أن تسلم قلبها ونفسها وضميرها وتاريخ بلدها لحبيبها إلا إذا كانت هي أنت؟ إن ملامحك، وما في نفسك وقلبك صورة من صور الفن الخالدة التي لا تمر على خيال فنان دون أن يفتن لها، حتى ولو قراء سطرًا واحدًا من كتابك. إني فخور بك وفخور بحبك لي وحبي لك، أنت يا بنية، الحقيقة التي يكفي أن المسها لأؤمن بها وبرسالتها في الحب. كل شيء فيك عميق وعمقه صفاء. ما أحب وجهك إلي، وإلي خيالي، ألم اقل لك أن جمالك من جمال الطبيعة في دياركم؟ لا تستغربي هذا في أبها جمال من جمالك!

- أنت تسكنني، والله تسكنني!

- ذلك البحر سوف يسمع خفق قلبتك ولو كانت نغمة عبر الأثير، ويسمع دقات قلبها ولو كان الشاطئ بعيدا، وسوف تحمل أمواجه صداها. إذا رأيت موجه أصغي إليه؛ فمتى ستذهبين يا حبيبتي إلى ذلك البحر؟

- والله إني اسمع صوت موج البحر الآن. اسمع صوت قلبتنا. كنت هناك عند ذلك البحر قبل اقل من شهر من معرفتي بك. وقفت عند ذلك البحر كثيرا.. تلك الرحلة لجدة لم أكن أرغب في الذهاب للأسواق ولا الجلوس في الحدائق العامة.. دائما كانت وجهتي ذلك البحر. كنت أأخذ الطفلين العزيزين وأذهب لشاطئه، وأبقى هناك

ساعات.. كنت اشعر بالسوء الكبير حين اضطراري لمغادرته، ودائما

أقف على رماله وأقول: وراء هذا البحر مصر!

- أجل يا ابنة أبها! فذوقي طعم الحب كل ما في قلبك سوف أخذه

من حياء ثغرك، أما عيونك فهي سماء الهجرة!

- بحبك!

- هو ذاك الحب، ليس إلا الحب سنجعل له ومنه كل معنى جديد،

لن نعيش على ما تركه العشاق من قبلنا، وسنقول الكثير لمن سيأتون

بعدنا!

- وسنعيش اللحظة كأنها الأبد في كل شيء!

ثم تطلب سماع صوته على أثير الهاتف لتقول:

- لصوتك قدرة عجيبة تسعدني، وتبكي في نفس الوقت. أظن

إني ابكي لفرط حبي لصوتك، يا الله! كم أعشق صوتك يا ابن القاهرة؟

ليتك تخبر صوتك أن يترفق بقلبي المسكين!

- ولماذا البكاء يا ابنة أبها؟!

- ابكي لأن الحياة وضعتك أمامي وجلست بعيدا تتفرج! ثم ما هذا

الألم في صوتك اليوم؟

- كما قلت لك شغلت كثيرا اليوم بأداء العمرة كأي أقول لنفسي ها

أنت لا تتفرج!؟

- أنا لن أصلح لغيرك!

- وأنا ليس بي حاجة لغيرك!

- أنا أعانقك منذ سمعت صوتك. صوتك يعانقني وأنا أعانقك يا

حبيبي!

- لا تبعدي عني باختيارك أبدا!

- ليشهد رب السماء الآن إنني لن ابتعد عنك باختياري، ولن اجعل
أحدا يبعثني عنك!

- الحب حياة لا يعرفها من لم يحب. حياة لها بداية ولكن النهاية
بعيدة جدا. السؤال الذي سألته لنفسي هل يتشابه أولاد الحب، وأولاد
الزواج؟

- صدقت! هذا السؤال سألته كل من عرفت ممن تزوجن بغير
حب!

- كنت أقول من قبل حبيبته يستحيل أن يُقبل غيرها إلا من يأس
أو غدر، وهو إن فعل لم يجد غير العذاب؛ لأن قبلة حبيبته لا تقاس
بهذا الهراء، فما بالك لو ارتوى بمائها وارتوت بمائه؟ لم يعد للحياة
طعم. فكرت في العمرة لعلني أصبر. أشرد حتى اعرف أنني لست وحدي
الشارد، كل شيء في شارد إليك لم يبق مني شيء. كل شيء في
شوق جارف إليك. آه! من أسرار النوع إذا ما تيقظ شوقها فهو من
شوق البشرية جميعا. حلم معك حمل لنا الأبد في ثواني معدودة
بمقياس الأحلام، وكانت سماء أبها غطاءنا.. كنا كالهواء الطلق، أو
طلاقة من حلم!

- قلبي يريد لو يجتاز البحر بي الآن ويأخذني إليك!
- لا تنسي قلبي فهو معك أرجوك أتأتي به معك. قلبك وقلبي اتفقا
على!

- ليس عليك وحدك!
- بنيتي! إن غبت عن بالك لحظة لا تدعيها تمر حتى تودعيني
معها فوداعك يرجعني إليك كأنني لم أغيب مع تلك اللحظة!
- غيابك حضور طاغي!

- أنت من القلب في مأمن يا بنية، أنت من تتسلل كيفما شأنت،
وحين تشاء! أنت لا تذهبين حتى تجيئي. أنت هاهنا وربما أنا الذي
يذهب ويجيئ، وآه! لو أتيت من بعيد فلا أشعر إلا والقلب ينبسط فيه
الضوء رويدا رويدا كأنني أرك على أجزاء من اللحظات. أنت لا
تظهرين دفعة واحدة أبدا، دائما في نسيج الزمن تأتين من بعيد. دائما
ما المح صورتك المحها كأنني اكتفي منك بالخط حتى لا يشرق بك
القلب. قلبي لا يقدر على استيعابك بالتفصيل!

19

وهي تودعه وداع السفر، أو وداع العودة إلى مصر زارت زوجة
ابن خالته وأولادها في مسكنهما بمكة المكرمة، وقد حضرت إليه هي
وأختها ناهد، والطفل العزيز الذي أرهقه المرض منذ ولادته وحتى ناهز
العاشرة.. جالسته مغتربة عن نفسها وعنه فعذرنا لأنه كان مثلها
مغتربا اغتراب الوداع والسفر، ولكنها فاجأته، وإذا بها تسأله:
- أو تذكر فلانة؟

فتبسم مستحضرا شعوره الملهم الصادق الذي ساوره في أول
محادثة بينهما، فقد حدث نفسه بأنها ربما تعرف فلانة، وهي من
وصفها "بذات البيان" لأنها شاعرة تصفو لها العبارة في سحر من
البيان.. أجاب:

- بلى! اذكرها ولعلك تعرفين إني اذكرها منذ أول محادثة بيننا!
فطفر دمعها، وتماكنت بعد لحظات قائلة بنيرات واهية وكأن
الصمت صخرة انشقت عنها:

- أنا لم أشاء أن أخبئ معرفتي بها، أو أنكر أية صلة لي بها!
قال يواسيها في دموعها:

- أجل! الأمر كان خاطفا. كنا نسير بسرعة قلوبنا. تذكرني هذه
العبارة كل كلمة قلناها شاهدة علينا. كل كلمة كانت تستمد صدقها
ومناسبتها من قلوبنا!

- هذا لاشك فيه.. ولكن كان خطأ كبيرا لن اغفره لنفسي، وأرضا
بعقابك فيه!

- أي عقاب؟ هذا ليس إنصافا!
فقاطعته:

- هو شيء واحد فقط بداخلي، وأريدك أن تعرفه لقد أردت أخبارك
لكني لم اعرف ماذا أقول، أو كيف أبدء!
- والله! كنت اعرف، وقد عذرتك، وتبسمت فيما بين وبين نفسي!
ومازحها

- لا تنسي أنني القائل أن الكاتب القدير هو من يعمل عمل القدر،
وأنا كاتبك الأثير، وقد رجحت في حينه معرفتك بصديقتك، بل قلت
لعلها على صلة قرابة بها، وتبسمت قائلا: هذه المسكينة في ورطة مع
نفسها، ومعك، ومع صديقتها!
قالت تؤكد له:

- أنا تعرفت عليها في فترت التطبيق الميداني في الثالثة كلية، لم
أكن اعرفها من قبل، ولا تربطني بها إي صلة قرابة، أرادت هي
وصديقاتها أن يتعرفن علي في تلك الفترة، ولسوء حظي جاء تطبيقي
الميداني معهن وليس مع صديقاتي وفي المدرسة التي رغبت التطبيق
فيها.. وقد استمرت علاقتي بها إلى أن اختفت! وكانت ترسل لي ما

تكتبه أنت وخاصة قصة "عصا سليمان"، وقد حدثتني عنك.. كانت
تمدحك دائما، وتحب ما تكتب، وقد حذرتني من الوقوع في الحب..
ذات مرة قالت: "لا تغلطي غلطتي فتتعذبين عذابي!"

فسألها بفضول الكاتب:

- أو تعتبر حبها لي غلطة؟

- لا.. ليس هذا.. اعتقد أن الغلطة التي تقصدها أنها سمحت

لنفسها بالتمادي في حبك!

قال مشفقا من دموعها:

- أنت التي تماديت أيتها الراهبة على حبها!

- كانت تعرف أنك مستحيلا! التماذي الذي قصده هو تماذي

القلب، وهي لم تستطع أن تكف قلبها عن حبك!

فتمادى في إشفاقه مسائلا:

- وبالنسبة لك أهو مستحيل؟

فمسحت دموعها، وقالت مسدلة جفونها على شغف عينيها:

- دعك مني الآن!

سألها:

- لم كل هذه الدموع؟!

قالت رافعة رموشها على الشغف الباقي:

- لأنني أحببت رجلا تحبه فتاة عرفته، وحدثتني عنه كثيرا!

- وما الذنب في ذلك؟

- ألا يكفي ذنبا أنني أعرفها وأنها كانت تحدثني عنه؟!

- أليس من الجائز أن تحبيني واحبك دون أن تكون بيننا واحدة

ما؟

- جائز! ولكن ها نحن بيننا واحدة!

قال يشاركها الحيرة في ضميره دون لسانه:

- لا عليك من الحيرة! جارتك كمن قيل لها أنت سباحة ماهرة لأنك تحلمين بذلك كثيرا فصدقت نفسها، ثم اكتشفت الحقيقة ما إن وجدت نفسها في البحر. اكتشفت بعد فوات الأوان أنها ليست سباحة ماهرة، وأن حبها افتراض وليس حقيقة!

فسأله لسانها لا ضميرها:

- أعتقد أنها زعمت حبك؟

فسترسل مع لسانه يقول:

- إنها هربت من الشاطئ وأنت ألقيت بنفسك بين الأمواج العاتية بسرعة قلبك، وأنا حين أقول ذلك لا أعني بالضرورة إننا سوف نزف كعريسین، أو أن طريقنا ممهد، وإنما أنا أتحدث عن المشاعر. أنت قد ضحيت بقلبك في معركة طويلة، ومجهدة. كان قلبك هو الرهان. لا ادري كيف تشعرين بهذه الكلمات؟

- فيما يخصني أنت قلت الحقيقة!

- وهذا هو الفرق بين الحقيقة والوهم.. أنت كنت تعرفين أن الرهان هو قلبك!

- ولكني أعرف أنها تذكرك.. حين سألتها عن اسم ابنتها أخبرتني بالاسم الذي كنت تحب مناداتها به!

ثم سألتها مساحة دموعها:

- هل تريد المزيد من عذابي؟

- والله! أنا لم استطرد معك إلا لأعرف نصيبك من العذاب، وليس

نصيبي، أو نصيب المدام الغائبة!

وقال ساخرا:

- المحب الذي وقف حبه على مسرح الحب دون أن يدخل غرفة
نومه قد عرف من الحب أهونه!

ثم تركته يشرد قليلا، وسألته والشغف يردد في عينيها:

- فيم تشرد؟ ما هذا الشيء الذي يأخذك من العالم فلا تشعر
بنفسك؟ أو تشرد في المدام الغائبة؟

قال باسمها يعبت بغيرتها:

- ألا استحق قبلة الإشفاق منك كأنها رصاصة الرحمة؟

ولم يرحمها:

- أو يروق لك تقبيل هذا الشارد؟ قلني فورا وحالا بلا تردد!

قالت تبارزه بسؤلها:

- أو يروق لك تقبيل امرأة شاردة في غيرك؟!

قال ممسكا بيدها:

- وماذا لو أنني قد شردت في دموعك؟

فتخلصت من يده، وقالت متتهدة بدمعها:

- قل أنك أحببتها، وإني لست إلا خيالا منها!

مد يده ترفع عينيها لعينيهِ وقال:

- أنا من أخذ قلبه منه منذ تحدثت إليه. صوتك دائما يأتي من

الدخل، والله! إني أتهيب هذا الصوت كأنه صوت الضمير. كان هناك

من يدق القلب وأنا احدث جارتك وإذا بي أرك ولا أرها! هذا هو ما في

الأمر إن فهمت منه شيئا. كان هناك من يدق القلب وإذا بي أرك فهل

فهمت؟

قالت مسدلة جفونها على عذابها:

- أجل فهمت!

- حقا أم ياساً؟ قل لي ما بداخلك، أو دعي قلبك يخبرك بالحقيقة؟

- لا اعلم ما أريد قوله!

وتوسلت:

- دعني.. دعني أتنفس!

- يا لك من منتقمة! اعلمي هداك الله انك قد أخذتني منك بغيرتك،

وليس منها!

وسألها:

- أو زهدت في، وفي قلبي؟

- لا!

- اذكري أن لا ماضي قبلك، ولا زمن هكذا قلنا معا قبل أن تغاري،

وتحاسبي قلبي على هجرته إلى دياركم، نعم دياركم! هكذا نطق القلب

من أول وهلة: دياركم! هل تذكرين دياركم؟ لم اقل لها قط إنني قد

أطلقت العنان لقلبي. لم اذكر لها قط مواطن الهجرة، ولا نهر الظمأ. لم

اذكر لها قط كلمة واحدة مما نطق به قلبي لك. كل ما قلته لك كان

لك. مازال صوتك يُقظ قلبي، ما زال سموه يأخذني إليك وإلى دياركم!

ثم ردد كلماته الأولى لها:

- إن شعرت بالغربة معي وأنا انقل كلماتي من قلبك. إن شعرت

بالغربة مما انطق به فهي غربة قلبك وليس قلبي!

وأعاد سؤاله:

- من الأجدر بالإعجاب من جلست على شاطئ البحر تستمتع به،

أم تلك التي خاضت في أمواجه ولم تتهيب أهواله؟ كثيرات يشبهن

جارتك ولكن كم واحدة تشبه راهبة الحب؟

فقالت وقد سكنت دموعها:

- مشكلتي أنني فيما بعد معرفتي بك تذكرت يوم خطوبتها، أنا كنت حاضرة فيه، وهي أصرت كثيرا على أن احضر علما أنني لم أكن اعرف أحدا منهم غيرها.. المهم أنها أخرجت لي هاتفها وأررتني رقم هاتفك به، وكانت سعيدة جدا رغم أنه كان يوم خطوبتها.. هي فتاة طيبة وأنا احترمها جدا!

سألها سؤال قلبه:

- ولكن ما هي مشاعرك تجاهي قبل تعارفنا، أو بمعنى آخر هل كنت تضميرين بعض المشاعر لي ولو كان إعجابا؟
- نعم.. كنت احمل لك الكثير من مشاعر الإعجاب!
- أو تمنيت أن تكون بيننا علاقة؟
- نعم.. تمنيت أن تربطني بك علاقة حميمة!
- قبل الموافقة على طلب الصداقة؟
- نعم!
- إذن أنا كنت في خيالك!
- نعم كنت فيه!
فرفع يدها يقبلها ويقول:

- لو تعرفين الآن ما مدى فرحت قلبي بك! منذ شكرتني على الصداقة كان لك حضورا من تعرفني كما اعرف نفسي، وما توان الخيال منذ تلك اللحظة التي سطوتي فيها على قلبي في أن يجوب الجزيرة العربية مكانا وزمانا. يجوبها كطائر فرد جناحية للهجرة، وكان انقيادك لي اكبر اختبار لقدرية حبا؛ لو انك ترددت ربما ما استمرت علاقتنا، وربما تجاهلتك لأنني موقن من أن الحب انقياد، وحين قلت لنفسي:

أنت في سماء الهجرة إلى هذه الفتاة كنت أتربص بك، أو أتربص بمشاعرك. إن ترددت انطويت على مشاعري ولم اخف لحديث آخر معك، ولا سيما أنك كنت تتحدثين عن آخر. سبحان الله! واحمد ربك إني لم أجفل منك، وابتعد عنك، كانت ثمة ثقة غريبة في إني امتلك قلبك، وإن هذا القلب ليس غريبا أبدا عني؛ لذلك قلت لك: إن قلبك هو قلبي!

وسكت ليقول:

- أيتها الراهبة على حبها، إن إعجابي بك قد سبق حبي لك!

فضغطت على يده تقول:

- أنت في قلبي ولا اعرف لك من قبل شكلا، أو حتى اسما. من قبل الكلام معك قلبي كان يحدثني عنك ولا اعرف من تكون. كان يحدثني مثلا عن كيف أنك لن تتركني حزينة أو غاضبة، وكيف أنك لن تتركني وحيدة، وكيف أنك ستكون أبا لابنتين وولدين في خيال قلبي. قلبي حدثني عنك كثيرا قبل أن التقى بك!

- راهبة الحب! أريد أن اعرف ماذا قلت لنفسك بعد أول حديث

بيننا!

- قلت لربي شكرا يا الله لأنني عرفتك!

فسألها قلبه:

- وماذا عن قلبك؟ بالله عليك صف حالته فقط دون تدخل منك؟

- كان يريد أن تحبه أو يؤكد لي أنك هو لا غيرك!

سألها هو:

- هل كنت مضطرة لأن تقولي، أو تعترفي بأنك جئت إلي بخيالك
وقلبك، أم أن تلك هي الحقيقة الجديرة بلمس قلوبنا لها؟ لا تتعجلي في
الإجابة لعلها الأخيرة اقصد أول العهد وآخره!

- لا لم أكن مضطرة!

- صدقا ونبلا يا عذراء الحب؟

- صدقا ونبلا يا حبيبي!

فقال يروعها:

- إن كتب علينا الفراق فأنا كأب وضع بذوره لأمرته حتى تراعها
بعد موته!

وقبل أن تفيق روع قلبها برجاء قلبه:

- لو تعترف راهبة الحب بأنها كانت تحب حبيبها وجارتها تتحدث
عنه!

فظطرت إليه طويلا في عتاب من الشغف، وهمست:

- أو تريد مني أن اعترف إنني كنت أحبك وأنت على ذمة
صديقتي؟!

فذكرها في شغف من العتاب:

- ألم أقل لك ببراعة الحب: أنت من اختارت وأنا من أحب؟ يا لله
من تلك العبارة! أنت من سبقتني، هل تذكرين هذه الكلمة التي تشبه
السحر؟ ألم تسهري على حبك وطائرك في سماء الهجرة إليك؟ هل
أجبت حتى لا تطويك رمال الحب تحتها؟ يا حسرة القلب! قلبك أنت لا
قلبي أنا!

- أنت غير معقول والله! أنت قلت إنني وضعت نفسي على مذبح
الفداء، واقسم لك إن هذا صحيح جدا!

- جميل! أن يغضبك هذا، ولكن غير مقبول فرارك من السؤال الذي به يسير الحب إلهاً وقدرًا. لن تهنئي أبداً بالزمن قبلي، وربما هنتت به بعدي، ما كان قبلي هو لي، وما كان بعدي هو لك وهذه قسمة عادلة!

- أنت غير منصف بل أنت قاس جداً!
- مقبول حكمك هذا. مقبول ولكنه غير معقول. هل أحببت عذراء الحب حبيبها وهي تستمع لأحاديث جارتها عنه؟
قالت مسدلة جفونها على حسرة الشغف:
- أجل!

رفع يدها يعيد تقبلها قائلاً:
- آه منك! والله! أن قلبي لن يرضى عنك قريباً، أما قلبك فسوف يغترب عنك!

فمدت يدها الأخرى قائلة:
- أرجوك قبل أن توصل أبوابك دوني خذ رأسي معك، وقلبي، وكل أعضائي لا أريد شيئاً منها!
قال مبتهلاً لشغف عينيها:

- لو أقبلك قبلة الوفاء لحبنا! كنت أريد لك الوفاء لحبنا. آه من سخف سوء الظن بقلبك! أنت الراهبة على حبها تستكثرين أن تحب حبيبها قبل أن تراه، وتناضل من أجله. لا تستكثري يا بنية ذلك فأنا أحبيتك لأنني أذكرك وليس لأنني أرك، فحبي لك ذكر سواء جاء من الماضي أو من وراء رمال العرب. دع قلبي يا ابنة الجزيرة دعه يحبك كم عاهدك وأنت قلب حر، أو طيف جسور!

ولم تترك الطائرة ترتفع في سماء ديارها حتى سألته من هاتفها:
 - إلى أين تأخذك هذه الطائرة؟ لا تودعني منها وغادرها حالا!
 المهاجرون لا يعودون إلا إذا ولدوا من جديد!
 فيذكرها بكلامها:

- أنت من أنجبني قلبك!
 - أجل.. أنا من أنجبك قلبي!
 وطفرت الغيرة بدموعها، وسألته عن جارتها:
 - لم أعطيتها رقم هاتفك؟
 فيقول:

- لأنها أعطتني رقم هاتفها.
 وضحك قائلاً:
 - لقد تبادلنا الرقمين لكي لا نتصل.. فلا هي اتصلت ولا أنا!
 فشرق بقلبها الدمع قائلة:
 - رقمك لم يزل بهاتفها. كم كانت سعيدة وهي تريني إياه يوم
 خطوبتها؟

وتتوسل إليه دموعها:
 - قل انك أحببتها، وإنني لست إلا خيالاً منها. قل إنني أحببتك
 وأنت على ذمتها!
 وتسأله الدموع:

- ألم ترسل إليك هذه الكلمات: غيابك يا أنت طال بروحي كثيراً!
 أين أنت يا من حولت شكي بالحب إيماناً وقداساً اعتنقته فيك، ورتلتُ

صلوات الوفاء بمحراب عينيه؟ أيا روحا من طُهر الندى ملأت شِغاف القلب بسعادة الكون أتدري ماذا فعلت بي !

وتتشئت بين الغيرة عليه والوفاء لجارتها قائلة:

- وهذه أليست كلماتها فيك: سؤالي عنك صار كما الموال و أشوفه طال، والله طال حزين بلحنه و حروفه. يخاف. يموت من خوفه، وقلب كان اسعد قلب ضعف من قسوة ظروفه. يا حبيبي وينك؟ يا حبيبي كل جرح في الدنيا مصيره بالدواء يلتم، ولكن البلى من جرح نزف فراقك بلا دم! أنا جرحي غريب الطور ينزف بس بلا دم، وزاد الهم فوق الهم، ودام انك يا حبيبي غايب، وجروح الغيبة ما تلتئم. وتصمت لتسأله:

- وهذه من قالتها فيك: ولا شيء في متغير، وقلبي ما نقص به شيء، ولكن كل يوم يمر أحس نبضه يخف شوي، ولا شيء في راح يصير إذا بعادك يطول كثير سوى إني بشوف الموت وهذا أضعف التقدير. يا حبيبي وينك؟ ولهت نظرة من عينك أشوفه طول غيابك، ومن وذاك ما جابك، وأنا عندي أمل للحين، ولكني أعرفك وين يا حبيبي وينك؟

صدق سليمان الحكيم: "الغيرة قاسية كالقبر"، ولكن هل خرجت من قبرها، أو سكنت دموعها وهو يعطيها الرقم السري "لإيميله" حتى تطلع بنفسها على أحاديثه مع جارتها منذ عرفها إلى أن اختفت؟ تركها تغلق الهاتف ريثما تفتح قبر الغيرة، أو تفتح صفحته لتقرء منها أحاديثه مع ذات البيان إذ تقول له في أول حديث بينهما:

- لو سمحت أخي أسألك إيش تقصد بالتعليق: كلماتك هدوؤها صخب..الخ؟ لأنني فهمت أن الكلمات ما أعجبتك!

فيجيبها:

- كيف لم تعجبني وأنا أقول عن كلماتك أنها نبضات تسبق زمنها
إلى زمن الحياة في ألقها؟! وأقول إن هدوءها امتلاء بالحاضر؟!
وأقول بقدر وجعها يكون تفاؤلها!

- آسفة.. أنا قرأتها بسرعة وما انتبهت! شكرا على مرورك، وأهلا
و سهلا بك، وصباحك خير، ورضا!
- صباحك هادئ جميل!

.....

- أستاذي! ترددت كثيرا قبل أن أرسل "إيميلي" ولكن شوقي لقراءة
روايتك هو ما جعلني أقدمه!
- ولماذا التردد يا عزيزتي، وليس بيني وبينك حجابا من غفلة، أو
كذبا، أو أية بواعث لا تجمل بي وبك؟ وإلى عتاب آخر!

.....

- صباحك مشرق أستاذي، لم ترسل الرواية!. لماذا؟
- صباح الخير.. لقد أرسلتها! وسوف أرسلها الآن..

.....

- صباحك خير أستاذي، أعذر إن أخذت من وقتك القليل.. فقط
أردت أن أحيطك علماً أن الرواية لم تصل. لا أعلم ما السبب! ودمت
بخير.

- مساء الخير.. شكرا على اهتمامك، وعندي أمل في أن تصل
إلى الأديبة الدعوية.. واستودعك الله!

.....

- أستاذي،.. الرواية وصلت لتوها، يبدو أنه كان لدي مشكلة في الإيميل.. أشكرك جداً، وأنا في شوق لقراءتها لكني الآن مضطرة للذهاب إلى الجامعة.. سأقرأها عندما أعود بإذن الله.. دمت بخير!

- على بركة الله.. وأنا اعلم أن لك ذوق أدبي من موهبتك الصافية صفاء روحك المتوثبة لكل ما هو جميل! قلت لك أنني استشرف عالمك الفني من خلال ما قرأته لك.. أقصد أن لك قدرة على التعبير عن نفسك، والقدرة على التعبير هي حسب الأديب ومع المران يتحقق الإتقان!

.....

- مساوئك جميل أستاذ.. كيف حالك اليوم؟

- أهلا بك! ما أخبار المذاكرة؟

- كتبت بحثا..

- وما موضوع بحثك؟

- جمع معلومات في مادة الهندسة التحليلية..

- ومادة البحث متوفرة؟

- نعم.. من الكتب في الجامعة، ومن الانترنت.. المواد العلمية لا مشكلة لدي في مذاكرتها لكن النظرية هي ما تؤرقني.. دوماً استصعب مذاكرتها، وأنت ما أخبارك؟

- الحمد لله بخير! قرأت ما كتبته عني.. كلامك جميل مثل روحك!

- أريد أن أسألك ماذا فهمت منه؟

- ما أردت أن افهمه بلا زيادة أو نقصان!

- أنا أقصد أنني أخاف أن أقرب منك أكثر!

- أنت بالنسبة لي روح جميلة، وتلميذة موهوبة وأنا احترمك،
وأقدرك، ثم أنه ما يربطني بك ويربطك بي هو الفن. أقصد أن إعجابك
بي هو إعجاب فنانة تقدر فنانا مثلها!

- صحيح.. أشكرك!

- لا أحب أن تفرض على نفسك حالة تربك، وكوني على ثقة من
أنني أخطبك كما أخطب نفسي!

- كلامك جميل! نعم.. نعم!

- أنا أحب الخير، وأحب أن يكون الخير هو ما بيني وبين الناس
لأنني دائماً على ذكر الله، ومن ذكر الله رآه في كل حين!

- صحيح! هذا هو أنت، وأنا أحب روحك!

- أرجوك تأكدي من أنني أعتر بك، وبصداقتك، ولا أريد أن يشغلك
عن المذاكرة شاغل!

- أنا لا أحب أن انشغل عن المذاكرة أصلاً.. أنا متفوقة والله

الحمد!

- الحمد لله!

- المهم أن اطمأن عليك ولو برسالة قصيرة.

- إن شاء الله!

- أرجو ألا تنشغلين بي!

- لا! سوف انشغل حتى اطمأن عليك.. عندك مانع؟

- لا.. ولكن يؤسفني أن أزيد أشغالك!

- أنت خلاص أصبحت جزءاً من انشغالي.. عندك مانع؟

- ليس عندي مانعاً.. شكراً لاهتمامك، واذكرينا بالخير لأننا نذكرك

به!

- بالتأكيد أنا لا أذكرك إلا بالخير!

- هل عندك سؤال لي؟

- لا.. سأستأذنك للصلاة في أمان الله!

- استودعك الله!

.....

- مساؤك جميل! كيف حالك؟

- مساء الخير.. أنا الحمد لله بخير وأنت؟

- وأنا كذلك بخير!

- وصلك تعليقي على نصوصك الأدبية؟

- لم افتحها إلا الآن.. قرأتها للتو شكراً لك!

- أحب أن أرى المزيد. هذه كتابات قديمة أم حديثة؟

- كلها في الصف الثالث ثانوي، وأولى جامعة.. لم أكتب شيئاً هذه

السنة!

- إن شاء الله سيكون لك عالماً خاصاً تنطلقين منه!

- كتابات عفوية جداً.. وأنا لست بكاتبة إنما كنت اقضي وقتي..

سأرسل لك البقية..

- سوف تحترفين الكتابة في يوم من الأيام!

- وماذا عنك؟ هل أكملت روايتك؟

- أنا الآن في جو الكتابة.. ولدي رغبة في إمساك القلم!

- التوفيق لك.. إذن لن أعطلك.. أستودعك الله!

- أحب أن أطمأن عليك دائماً!

- سأدخل في مثل هذا الوقت..

- كيفما أردت!

- ممكن أسألك؟

- تفضلي..

- هل لديك طقوس في كتابة القصة أو الرواية؟ قد يكون خبراً، أو قراءة قديمة، أو موقفاً عابراً. بمعنى هل الفكرة هي ما تحثك على الكتابة؟

- كل هذا مادة للكتابة.. ولكني أشبه العالم الذي يأخذ غباره الفني ويدخل به إلى معمله.. فمتى جاء هاتف الكتابة فأنا في معلمي اكتشف ما يتشكل به الغبار الفني كما يكتشفه القارئ!
- سؤال آخر..

- تفضلي!

- هل الأسلوب هو الذي يختار الكاتب، ويتلبس به أم أن الكاتب الذي يختار أسلوبه؟

- الأسلوب هو أنت كما يقولون، ففيه كل شخصيتك ظاهرها وباطنها، وثقفتها، ووعيتها، وخيالها، وإحساسها بالكلمات!
- ثقافتك واسعة، و لغتك فريدة!

- أنا استمتع بالكتابة على غرار استمتاعي بالقراءة!

- أنت قارئ جيد وتقول أنك تستمتع بالقراءة..أريد أن أسألك: هل هناك رابط بين من نقرأ لهم وبين أفكارنا، وهمومنا؟
- بالتأكيد.. فبمجرد أن تتلاقى الأرواح نحن لا نكتفي بعقولنا وقلوبنا وخيالنا، وإنما نحن نستعير قلوبهم وعقولهم بل وأرواحهم لنفكر، ونشعر، ونستلهم بها!
- ما الذي تريد إيصاله للعالم؟

- في كلمة واحدة أريد أن يعرف من "أنا" كما صنع قدره بالرضا
عن قدره!

- جميل!

- ومتى تكتبين من جديد؟

- أنا اكتب عندما أكون بحالة سيئة.. أما عندما أكون مرتاحة
غالباً لا اكتب.. لمن أكتب؟!

- لا! سنتكبين في كل وقت متى كانت الكتابة حلماً وأملاً!

- أنا اذكر في بداية حديثنا أنك قلت لي أريدك شاعرة.. خطر لي
أن أرسل لك مقطوعة كتبتها قديماً ولكنها من وحي نفسي و
مشاعري.. لكنني خجلت منك!

- أرجوك أرسلني لي كل ما تحبين، وتحجلين، وتأسفين منه!

- سأفعل إن شاء الله!

- هل لديك أسئلة لي؟

- لا.. شكراً لك.. أثقلت عليك، وأخذت من وقتك. الآن وقت الآذان

سأخرج للصلاة!

- لا تنسينا في دعائك.. واستودعك الله!

- لن أنساك... في رعاية الله!

.....

- أستاذ.. أنا فرغت من الرواية، وقد قلت لك في الرواية الأولى
أن أسلوبك يحتاج إلى تركيز كثير، وكذلك نهجت نفس نهجك في
الرواية الثانية.. عندما تختار ألفاظك تكون فريدة من نوعها صعبة
أحياناً.. أسلوبك ليس سلساً بل انه يحتاج لبعض الروية في القراءة
رغم ذلك يذهلني جداً وصفك لكل شيء.. عندما تصف في الرواية لا

أجد أحدا يستطيع أن يفعل ذلك. أنت متميز ما شاء الله عليك! رواياتك جميلة جداً.. أحس أنني أستمتع وأنا أقرأها لكني أجدها فرصة لأتعرف على مصر، وعلى حضارة مصر، وعلى الفتاة المصرية!

- شكرا للأنسة الأدبية! وعلى الله يجد القارئ العربي فيما نكتب متعة! أنت بإذن الله سواء كنت شاعرة أو قصاصة سوف تتفردين بأسلوبك، وقد تجددين في جو بلدتك وسحرها مددا لفنك وروحك!
- بداخلي أشياء لا أستطيع البوح بها.. أنت أستاذي الذي أحترمه كثيرا، وأنا أعلم منك أشياء أنت لا تعرفها!

- كلماتك عن العودة إلى رحم أمك لم تعجبني!
- ههه! لماذا؟
- ههه! لأن الأم سترفض عودتك، وترجو لك حياة مستقلة عنها!
- إذن لن أعود!
- بالتوفيق دائما.. هل أذنت لي؟
- سأدخل في مثل هذا الوقت.. في رعاية الله!
- أستودعك الله!

.....

أرجوك أستاذي! إن كان لديك طريقة دلني عليها! سأزوج قريبا..

.....

لا اعلم إن كنت تقرأني أم لا!! فقط أردت أن أخبرك بأني افتقدك بحجم الفراغ!

.....

أستاذي! ما الذي يجري في عالمي؟! وما الذي يحدث؟! و لم تتسارع الأشياء، وتأتي جميع الأقدار في وقت واحد؟ لم لا ترد؟!

.....
أستاذي! لا زلت لا ترد! مجتمعي لن يقف مع الحب.. آه! من
التخبط في غياهب ذلك العشق!
.....

أستاذي! ربما قلبك قد جرب الحب مرات، ولا زال يجرب، فلا تعاملني
بتجربة غيري أرجوك؛ ولكن أخبرني في مثل حالتي ما هو علاجي؟!
.....

أستاذي! أؤمن جداً بالقدر، وأؤمن أكثر بأنك لست لي! ولكنني لا
أستطيع عقد أي تفاهم مع قلبي لإبعاده عنك!!

21

أرعدت السماء وأتت بمطر غير معهود؛ فلم تصمد له بعض بيوت
الحي العتيق، وهي البيوت التي تباعدت بها حوادث التاريخ، ما باعد
بين بيت الست وسيلة في القرن الخامس عشر، وبيت زينب خاتون
في القرن الثامن عشر، وبيت الهراوي في القرن السابع عشر. رعود
بارقة غيرت وجه السماء، ومطر تخلل البيوت كأنه حقبة زمنية شديدة
الوطأة، زهت بالبيوت زهو الانطفاء فهرعت الأمهات إلى المدارس،
ومن المدرسات من تركن المدارس ليطمئن على بيوتهن، فيما تشتت
التلاميذ في الفصول بين الفرح بالمطر والهلع منه، إلا هذين التلميذين
الواقفين على الدرج، ويبسطان ذراعيهما من النافذة ليمسكا المطر.
طارق، والشريف أخو يحيى ابنا الشيخ عز العرب تاجر ثواب الهند،
والمنتسب إلى قبيلة البرقية التي قدمت من المغرب مع المعز لدين الله

الفاطمي، ولما كانت مدرسة خالد ابن الوليد حديثة العهد بالبناء؛ فكانت مأمنا، وحصننا للتلاميذ من غارة المطر كأنها خندق محصن من غارات الحروب؛ وذلك ما هدئ من روع الأمهات، وإن توافد بعضهن إلى المدرسة بعد أن أمهلهن المطر ساعة من غيب السماء. لبث التلميذان يستقبلان العارض الممطر، ويمسكان ماءه من النافذة حتى فوجئنا بصوت يعرفانه يخاطب الشريف: أنت هنا تمسك المطر! والمطر في الحارة هدم بيتكم؟! التفتا معا، فوجد الشريف زوج عمه الشيخ المهدي، وفي يديها ابنتها "رتاج" التي خاطبته مستنكرة؛ فلم يتصور أن المطر يهدم، ولكن ما تصوره أن يجد معهما أخوه يحيى النابغة في حفظ القرآن، وكان لثلاثة أيام يشتكي رمد يصيب عينيه كأبيه فمنعه من الخروج إلى الكتاب مع أخيه الذي يكبره بأعوام، ثم حجه الرمد عن مطر الطريق في صباحه المشهود، وإن لم يحجه عن مطر السطح وبشيره المنزل من السماء، ولا حجه عن البرق خاطف قلبه، وكان الشيخ عز العرب يقص القصص على أصحابه ومريده في صعود يحيى إلى السطح كلما سبح الرعد بحمد الله والملائكة من خيفته، وعرفوا منه أن يحيى رأى "رعدا" الملك الذي يسوق السحاب إلى أقطار الأرض في النذور والبشائر، وهو الذي ساقه إلى القوم بعارض واديههم، فقالوا: "هذا عارض ممطرنا"، وإذا سأل سائل منهم يحيى:

- أرايت "رعدا" ملك السحاب يا يحيى؟

فيقول:

- إني كفيف مثل أبي!

فيسألونه:

- وما بال الملائكة المسبحين من خيفته؟

فيجيبهم الشيخ عز العرب:

- تسبيح الرد من حمد لأنه كلمة من الله، وتسبيح الملائكة من خوف لجهلهم بكلمة الرد، فلا يزال الملائكة يتعلمون الأسماء منذ تعلمها الإنسان!

وقد يسأل احدهم يحيا ما إن ينزل من السطح وهم مع والده في حلقة الذكر، والإنشاد:

- ماذا في البرق يا يحيا حتى تصعد له سطح البيت؟

فيردد لهم كلمات عمه الشيخ المهدي الذي ينفي أن يكون للسحاب ملكا، وأن تسخير السحاب كان باختيار السحاب نفسه:
- السماء هي كتاب الأرض، وما البرق، والبرد، والرد، والمطر إلا كلمات من الكتاب!

ويتبسم الشيخ عز العرب من مخالفة أبنه له، ويقول لأصحابه:

- يحيا يريد الإبصار لا البصر!

خرج طارق والشريف إلى مطر الطريق والمدرسة، فيما صعد يحيا إلى السطح، أو إلى "رعد" ككلمة وليس ملكا يسوق السحاب، ولعله شاهد صواعق البرق فوقه تنير وابل المطر، ولعله كان يبسط له يديه كأنه بنافذة الفصل يبسطها مع الرفيقين، ومن النافذة المقابلة للبيت الذي ابتلع ماء السماء رأى الشيخ المهدي أخاه وهو يؤم امرأته في صلاة الخوف، وقد هاتفه هاتف أن يحيا بالسطح يقرأ من كتاب الأرض، وسقفها المحفوظ: أن مهل السماء، وعهن الجبال، وفراش الناس المبتوث، وسائر تلك العلامات ليست بشيء ما لم يتفكر فيها الإنسان، وما نحسبه انفجارا كونيا، أو انقلابا كونيا هو بالنسبة لذرات

الخلق وغباره كقطرات الماء حين تهز تراب الأرض، وتربو به، وأنها في قدرة الرحمن أهون من مطر الابتلاء، ومطر الطوفان، وأن لا قدره لشيء من دون قدرة الرحمن، وأن الرعد المسبح كلمة، والسحاب المسخر كلمة لا تفتقر إلى ملك يسوقه، فكان الشيخ المهدي أول من حمل يحيى على يديه من أعل ركام البيت، وقد عرف منه الناس أن يحيى رتل ترتيل السماء المنفطرة، والكواكب المنتثرة، وأن ترتيلها ما هو إلا كلمة يتفكر فيها الإنسان كما تتفكر فيها الملائكة فيسبحون تسبيح الخوف كما كان أخوه عز العرب يصلي صلاة الخوف، وقد حالت حرمة الصلاة بينه وبين أخيه، إذ أمسك هو عن تحذيره من النافذة بهاتف يحيى وكلماته المرتلة، فيما أمسك الشيخ عز العرب على كلمتي التكبير، ولم يتهيب السقف إذ يخر من فوقه، ويتهاوى بالسقف الآخر من تحته، ولباه الشيخ المهدي بمناجاة التكبير من النافذة المقابلة: "الله أكبر.. الله أكبر.." حتى صمت بصمته، وقد بقت مناجاة التكبير بين الأخوين صدى مسموعا بين الناس يرددونه: "الله أكبر.. الله أكبر.." وذلك إذ يشاهدون البيت الذي ابتلع ماء السماء يتكوم كله إلى الداخل، إلا قليل من ركام لفظ مع الشيخ وزوجه إلى نهر الحارة، ثم ردد الناس صدى الأخوين، وهم يشاهدون يحيى مسجى فوق شبكة من حديد السطح كأنها تحمله أعل الركام دون أن يروا ذرة واحدة من تراب الأرض على وجهه، أو قطرة بجسده من دماء الإنسان، ولسنوات طويلة ظل بيت الشيخ عز العرب مكوما في مكانه من الحارة، حتى أنه سمي: "بالبيت الذي أذن لربه وحُق" رغم أن بيوتا كثيرة في الصباح الممطر قد أذنت لربها وحقت! وأرجع بعضهم السبب إلى كلمات يحيى التي قراءها من كتاب الأرض وسقفها المحفوظ، وقالوا أن يحيى

والسطح معا قد خرا صعقا من تجلي قدرة الرحمن، وقال بعضهم أن وصية الشيخ المهدي سبب أولى لتسمية البيت بذلك الاسم، ويقصدون وصيته بأن يبني البيت حفيد من آل التفكير في كلمات الرحمن، وفي أمره الكائن قبل خلق الأسقف المحفوظة، ورجح بعضهم أن الناس حيث كانوا، ودون أن يشعروا يذكون بيوتهم عن سائر البيوت، كما يذكي الإنسان نفسه حيث كان حتى يصدق بأنه هو من أذن لربه وحق!.

لحق الشيخ المهدي بأخيه، وزوجه، وأبنه يحيا ومطر الابتلاء لا يزال أثره مشهودا على البيوت، وكان الشريف قد أوى إلى بيت عمه المقابل، وأختار منه السطح حيث حجرات الذكر، والإنشاد، والتواشيح التي كان يعكف عليها الشياخ، ومريديهما لإحياء ذكرى آل البيت العطرة، والمتجددة في ثوب من حداد كما يردد الشيخ المهدي، وما هما إلا عامان دأبت خلالهم زوج عمه على حلقات الذكر حتى لحقت بشيخها وزوجها، أما الشريف ورتاج فقد كفلهما ببيته مريد للشيخين منتسبا لقبيلة البرقية، ولما بلغ الطفلان المراهقة؛ تزوجت رتاج من ابن للمريد، فيما عزم الشريف على الرجوع إلى بيت عمه، أو حجرات الذكر والإنشاد، وما لبث أن اجر أدواره الثلاثة، وخص الدور الأخير لجارة حميمة لأمه توفى عنها زوجها وهي في نضارة الشباب، فحلت محل زوجها في البازار، وتجردت لتربية ولديها، فاطمة طالبة الإعلام، وعاكف طالب الشريعة والقانون، ويصفه الشريف بأنه "أثر" من يحيا ؛ لذلك ما إن حل بالبيت حتى قاسمه حجرات السطح، وكان البيت أقرب إلى درب سعادة، أو باب سعادة المندثر اندثار أبواب القاهرة، ويتوسطه منور يفصل بين ما لعاكف، وما للشريف، وقد أنزلت الست هانم

الشريف منزلة ابنها، ولم تنسأه في طعام يوم، أو إفطار في شهر رمضان، أو في أيام الأعياد، والمناسبات، والموائد.. واستأجرت من تقوم على نظافة السطح وحجراته، وشنون الشابين، وكانت شبه يومية تشرف على ذلك بنفسها إلى أن فرغ السطح على الشريف بوفاتها، وزواج ابنتها، ثم بزواج عاكف، وانتقاله إلى عمارة بناها في باب الخلق، أو باب الخرق، ولكنه لم ينقطع عن خاقان السطح ولاسيما في أيام الاحتفال بآل البيت، وسهرات شهر رمضان، وحتى بعد زواج الشريف بامرأة من طائفة البهرة تعرف عليها أثناء عمله بالبازار، وقد كان والدها يشرف على مشروع ترميم مسجد الحاكم بأمر الله. كان الشريف متفوقا في دراسته، إلا أنه في نوبة من رؤيا استيقظ من نومه أول أيام امتحانات الشهادة الثانوية؛ وإذا بحجاب يُضرب بينه وبين شهادات العلم، وقال لعاكف وهو يا راجعه صباح الامتحان:

- بعد صلاة الفجر رأيت يحيا بالسطح يقلب لي صفحات من كتاب الأرض وسقفها المحفوظ!

فلم يتمهل عاكف أن قال:

- دع ما ليحيا ليحيا! لكل واحد منا سقفه المحفوظ، أو سقفه المنفطر!

وبعد حصول عاكف، وطارق على الشهادة الثانوية هنتهما الشريف، وقال:

- كان للشريف ما هو كائن قبل أن يُعتمد للعلم شهادات من ورق غير مسطور!

فضجر عاكف من منطق قلبه المذبذب بين مجهولين قائلا:

- تلك "قدريّة العدم"!

واستفهم مخلصا:

- وكأني بالشريف يعلم ما هو كائن بعد فرغه من علم ما كان؟!

وترفق طارق بالصديقين قائلا:

- إذا اتسعت الهوة بين اثنين حتى لم يبق الخلاف بينهما إلا الظلام المخيف؛ فلا اقل من أن يأنس كل منهما بصوت الآخر وهما على طرفي الهوة!

فتضحك ثلاثتهم، ثم قال الشريف:

- والله، لا صوت إلا صوتك بين هذين المختلفين!

وقال عاكف يضحكهما:

- وربما هو الظلام المخيف بيننا!

ثقافة عاكف ثقافة القراءة الحرة، لذلك كان يستمتع بها في كاف الأجواء، ومن النادر ألا تجده يحمل كتابا، أو ألا تجده يقرأ في البازار، وهو العمل المحبب لديه منذ أن صحبه والده إلى الخان طفلا جديرا بفن التعارف بين الناس، وليس فحسب فن البيع والشراء، وكأن والده كان يحس موته العاجل فتعجل أن يرى نصيب أبنه في الحياة! يقول عاكف: العمل في البازار مبكرا، والتعرض لوجوه الشعوب المختلفة جعل الشعور بالحرية مساويا للتعارف بين الناس. الحرية في معنى من معانيها معرفة، أو ثقافة، وأظن أن الثقافة حرة مثل الهواء وأن كان لها حبالا ممدودا في الفضاء لا يستطيع المشي عليه كل مثقف!

فمثل عاكف لا يمشي على حبل الثقافة الممدود في الهواء؛ إلا وحريته مستقلة عن حرية الهواء، أو هي التوازن بين حريتين: حرية، وحرية الهواء، ويقول لصديقيه: "أنا حر متى مشيت على حبل

الثقافة ولو كان حبلا معلقا في الهواء، والمؤمن حر متى مشى على صراط الشرعية ولو كان صراطا كالخيط الممدود بين الجنة، والنار.."، ولعل ذلك ما وعاه من دراسة الشريعة، فكف الأذى عن الناس اختيار حر، وليس تكليفا مقيدا لأن الناس لهم ما لك، وعليهم ما عليك، لذلك كانت الحرية المشروعة تكليفا بكف الأذى، أو اختيارا حرا تتقاسمه بينك وبين الناس، فمن يأخذ ما لغيره يمنع نفسه من أخذ ما له وإن بد أنه الأخذ. قال طارق لصائد الإطلاق وهما بالجسر: عاكف أخذ من الشريعة ما أرادته والشريعة أعطته ما أرادت، فهو يعتقد أن عقم الاجتهاد، وشعوذته يحدثان حين يظن منتطعون الاجتهاد أن الشريعة لا أرادة لها، أو روح، أو مقصد، أو غاية، ثم أين هي الحقبة التي أعطت فيها الشريعة مجتهدا لا إرادة له؟ وإن عذرت الشريعة الأعرج في حرجه فهي لا تعذر المجتهد في عرج ولا حرج! ويعتقد عاكف أن الإرادة، أو الحرية، أو التمييز مقصد الشريعة الأسمى من التكليف، وكل إرادة، أو حرية، أو تمييز تعجز عن الشعور بالجمال فهي نقیض الشريعة، أو هي مفسدة يجب درعها، ويستشهد بآيات القرآن: "إنا جعل ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا"، "ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين"، "أفلا ينظرون إلى السماء فوقهم كيف بنيناها"، "ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون"، "قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق"، "يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد"، وحين يستشهد بقول النبي عليه السلام: "إن الله جميل يحب الجمال"، يقول هو جمال الشعور الحر، أو جمال القدرة على التمييز بين الجميل، والقبيح.. حتى الصبر على الابتلاء من جمال التكليف لأنه المعزز للإرادة، والمثبت للعزائم، ويقول لصديقيه:

الشرعية أعانتني على الحرية لأن الشرعية هي الأسمى، ولأنها تيسر لنا ما خلقنا له كما تيسر لي العمل في البازار، وفنونه المعاصرة لكل شعور جميل، وكل ذوق مختار!

أما الشريف فهو يسلك الطريق وكأن لا قدرة للسالك، ولا قدرة للهواء، ولا قدرة للحبل المعلق؛ فقوة الهواء، وحرية السالك، وابتلاء الحبل الممدود إن لم تحصل في الضمير، فما هي بحاصلة في الطريق ولو قسنا قوة الهواء، ودرينا السالك، واختبرنا قوة الحبل مرات، ويقول الشريف لصديقيه: آينشتاين أنكر تكون الثقوب السوداء التي رصدها منظار "هابل" بعد موته، ولكن آينشتاين أفترض للزمن ثقوباً يمكن السفر خلالها، والعبور منها إلى أكوان متوازية، أو طبقة كأنها السبع سموات الطباق! وقد ننكر نحن السفر عبر الثقوب السوداء متى انحصر تفكرنا في حقائب الزاد، ولو كان الزاد قارورة مياه لا مشكاة كوكب دري! ولا يذكر آينشتاين إلا ويقول له عاكف: لم يمكك آينشتاين بعلمه وإنما مكك بيهوديته! وربما كان التفكير هو حرية الضمير التي يعيها الشريف، أو سكة السفر عبر صراط الحرية المستقيم!

أما طارق فهو يرى حريته في كل شيء حر، ولا يتصور أن شيئاً مسخر بين السموات والأرض دون اختيار، أو عرض، ويردد ما كان يردده مرارا الشيخ المهتدي: "إنا عرضنا الأمانة على السموات، والأرض فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا". وكان يعجبه تفسير الشيخ في أكل لحوم الطير المشتهاة، إذ يقول لثلاثتهم: "الأكل في الجنة بهجة للعيون وليس البطون. سوف نأكل الطير، والفاكهة الكثيرة كما نسر بالنظر إلى جمال الزهور. من سره

منظر الطير، واللبن، والخمر، والفاكهة شبع!"، ويحذره قائلاً: "لن يسفك في الجنة دماء طير كما سفكت في الأرض دماء الإنسان!"، ويحثهم على التلبية مردد: "اللهم اجعلها لنا جنة نظر لا جنة بطون. اللهم اجعلها لنا كما وصفها من كان خلقه القرآن: ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر..". ويقول طارق لصديقيه: الحرية المقدرة للبشر تجيء بعد لا قبل، تجيء بعد أن نراها في غيرنا، ومن ظن أن الحرية تجيء بعده فليس بعده إلا الطوفان حيث حرية الأمواج!

بقى ما كان للشريف في السطح "على قديمه" كما تركه الشيخ المهتدي. فخامة متداعية، وأحجار قد حلت الرطوبة تاريخها المجيد، ويقول الشريف: "أحجار كريمة صادفتها أيادي لئيمة! أحجار صادفتها رطوبة العرب فتحول ذهب الحضارة جيرا، وبينها وبين حجر الفلاسفة الخرافي ظلام، ولكنه ظلام صادفه معامل الغرب، أو محطمت ذراته؛ فتحول الرصاص ذهباً، وغدا تتحول حبيبات الذهب دواء!". أما ما بقي لعاكف فلا يزال يجدد، ويرمم فيه، ويضيف ما يضيفه من تكعية فل وياسمين، ومستحدثات من الزينة، والديكور، وباختصار كان في بحبوحة موصولة المورد بعمله الدأب في البازار، وحين تزوج الشريف وألا إليه ما كان لعاكف قال ساخراً: "هكذا انتقل العرب من المشي في الصحراء إلى الهبوط على ناطحات السحاب!". كان بيت طارق بدرب المحروق، أو الباب المحروق، وبيت الصديقين الأقرب إلى درب سعادة، وقد حصل الثلاثة على الشهادة الإعدادية من مدرسة جوهر الصقلي، ثم التحق عاكف وطارق بالأزهر بعد نجاحهما في اختبار أعلن عنه الأزهر في حينه، بينما وقفت الرؤيا أو النبوة بالشريف

حيال امتحان الشهادة الثانوية، كأنه العقبة في الدين لا العلم! وبعد تصفية تجارة توابل البهارات لم يعد له تجارة ينتسب إليها، وراح يبيع السلع أيا ما كانت، وكيفما كان الطريق، أو الشارع، أو كبري المشاة إلى أن اشتغل ببازار الست هانم والدة عاكف. لقد تحول الشريف من الإمساك بمطر الابتلاء من نافذة المدرسة إلى الجلوس له وسط الصراط؛ فالابتلاء الواصب هو مقصد الشريعة، وروحها القابضة على أفئدة الواصلين! قال له عاكف وهو يكشفه كعادته: فقدك للأسرة الحبيبة المتدينة وهي تتناجى بصلاة الخوف، وكلمات السقف المحفوظ جعل من عاطفة الطفولة المكومة مقصدا للشريعة، وعلى غير قصد منك مزجت بين عاطفة الطفولة وعاطفة الدين! أنت لا تزال تمسك بمطر الابتلاء ولكك تمسك به الآن من خوف، وكنت قبل تمسك به من أمن! والسطح الذي كان له كتابا، وسقفا محفوظا أمس ركاما من بيت الشيخ عز العرب، أو حضرة لصلاة خوف وعارض من سمائها، ويترقب هتاف الكروان من الشتاء إلى الشتاء، أو من الصيف إلى الصيف، ويقرأ الهتاف كلمة الطير الصافات، ويتراء له السحاب في وهن من الليل إذ يسوقه الملك "رعد" قاب قوسين، أو أدنى من السطح فينكر أنه يتيما وحيدا، ويُرهِف الظلام حواسه وقلبه فيألف من الأشياء غيبها، وهاتفها القديم، أو كلمتها الأولى، ويرى الكوكب فيسمع كلمة أبي الأنبياء: "إني سقيم"، ويمرق الشهاب الراصد للشياطين يحرق سيفا للنمرود، ولا يقلب وجهه في الأحجار الكريمة بحجرات الذكر، ولا في المآذن، والصوامع، وخزائن الحبوب إلا ووجد رطوبة العرب تعيث فيها خرابا، وهوسا، وشقاقا، وكأن العنقاء هي طائر العرب وليس الطير الصافات! ويجد نفسه في صلاة جماعة غير جماعة البهرة،

وجماعة السلف، وجماعة التصوف، وجماعة الشيوخ، وجماعة الإخوان، وجماعة السنة، وجماعة التشيع، وكل جماعة لا يجمعها جامع ولا مسجد، ولا أصول ولا فقه، ولا عقل ولا قياس، ولا كتاب مبين ولا حديث موضوع، وكلما أقام إمام من أئمة الجماعات صلاة؛ يرى اخناتون يخرج من أحجار المساجد الكريمة، وإذ به يلقي صولجان الملك على أئمة الجماعات فيخنفون تباعا، ولا يبقى مع اخناتون أحد منهم وهو يجلس إلى الأحجار الكريمة ينظفها، ويعالجها من الرطوبة، وكأن بيضة الأرض الخرافية والسابحة فوق ماء السماء هي كلمة الخلق وليست كلمة كون فيكون، ويرى في حلمه مثل ما رأى آينشتاين في حلمه أنه يسابق شعاعا من الضوء إذ يدور حول شجرة، ولما يكسر حاجز الضوء يتقهقر في الزمن إلى الوراء حتى يُبدل قلبه بقلب، وضميره بضمير، ومن نافذة عمه المهتدي المقابلة للبيت الذي "أذن لربه وحق" يعيد صلاة الخوف في حجرتها كأنها يوم كألف سنة مما يعد الناس، وينكر أن العارض الممطر قد أنقض بإرادة الموت، أو أن البرق الصاعق قد صعق يحيا، أو أن دعاء الناس في البيوت، والمدرسة سوف يغير من إرادة الله! وكلما كشفت الأحجار الكريمة في حجرات الذكر عن وجه الشيخ عز العرب؛ سمعه يقول مناديا: يا عاكفا، من ماتوا جزءا من وعينا وليسوا جزءا من الموت. ما الموت يا بني، ما لم يتفكر فيه الإنسان؟ الموت لا يغير من وعي دابة ماتت، وكم غير الموت من وعي الإنسان؟ وكلما قلب وجهه في كتاب الأرض كشف سقفها المحفوظ عن وجه يحيا يقول له: "اقرأ كتابك".

لم يبقى من بيت الشيخ عز العرب الذي شرب مطر السماء إلا ذلك "الراديو" فقد خلت سنوات طويلة، ولم يظهر خلالها حفيد من آل

التفكر في قدرة الرحمن؛ فعزمت الست هانم على بناء مسجدا مكان البيت الذي "أذن لربه وحُق"، وقد سمته بمسجد الشيخين - زوجها وأخيه- وقبل أن يستقبل قبلته مُصلي أو إمام أزالته الأوقاف، ولكن الناس نست المسجد المزال، وراحوا يذكرون "الرايو" كأنه الحفيد المنتظر، أو الحي الوحيد الذي نجا في اليوم الممطر، وقد بقى كمعجزة لسنوات خلت أسفل الركام! ذلك "الرايو" لا يديره الشريف إلا لينصت للقرآن، ومتى سمع منه قرآن الفجر أحسه وكأنه وحي يتنزل لأول مرة بتلك التلاوة الشجية من الشيخ محمد رفعت وصوته الواهن في وحشته كأنه يترجع من أقطار الأسقف المحفوظة.

22

ومما قاله الشريف: قد تبدل الحياة يوما واحدا، والقلب شعورا واحدا، وما حدث في أول العمر قد يحدث في منتصفه أو آخره، وكأن الليل والنهار لم يتعاقبا مع ذلك السحاب الممطر الذي آت صباحا والعمر طفولة تلهو بالابتلاء، ثم آت ليلا والعمر كهولة تجفل من الابتلاء! هو يوم في الذاكرة يبدءا من نافذة المدرسة، ويتواصل مطره من الطفولة إلى فتوة الشباب حتى ينتهي داخل "تاكسي" مغلق النوافذ إلا من نافذة السائق، ويقدر للرفيقين أن يمسا مطر الصباح من نافذة المدرسة، ثم يقدر لهما أن يغلقا نافذة "التاكسي" دون مطر الليل. كان الشريف وطارق عائدين من مستشفى كوبري القبة العسكري حيث يرقد صديقهما المجند، والعائد بإصابته من البوسنة ضمن صفوة من جنود الأمم المتحدة، كانوا يراقبون وقف أطلق النار فأصيبوا بدانة مدفع،

وعولجوا في العواصم الأوربية، ثم عاد صديقهما ليستكمل علاجه بمصر، وبمغادراتهما المستشفى استقلا "تاكسي" سلك طريق صلاح سالم، ثم سمع الرفيقان حشجة للسيارة كأنها دوي من اكفهرار الظلام، وصدى من وابل المطر. كان يتذكران نافذة المدرسة، ولم يسمعا هتاف الطريق الذي استجاب له السائق؛ فجنگ بالتاكسي محدثا تلك الحشجة المباغطة، وعلي أثرها جرى صوب السيارة شاب دون الثلاثين، وجلس إلى جوار السائق يقول:

- مقابر الإمام من فضل!

فغلف السائق دهشته بدعابة التأكيد:

- القبور! القبور.. أنت اخترت القبور؟!

تبسم الشاب يُشجع الدعابة على المزيد؛ فسأله السائق متهيئاً للعزاء:

- أهى جنازة؟

فحرك رأسه بالنفي، ولمح السائق طارقا، والشريف في المرأة المسلمة عليهما، ولكنه ركز في لحية الشريف يستفتها في نفسه: هذا التبسم الرزين في وجه الشاب الأنيق كيف لا يمشي في جنازة أيتها اللحية البنية؟! أليس العطر النقي مشاعره نقية لا تعباً بوعكة الطبيعة، ومحاذير الأرصاد؟ لعلها زيارة منذورة لقراءة الفاتحة. يا فرحة الأموات بك أيها الشاب الأنيق المعطر! مال السائق عليه يهمس:

- الفرحة تجوز علينا وعلى الأموات!

فقال الشاب بلهجة محتجة:

- تجوز.. ولكن كيف يفرحنا موتهم؟

قال في المرأة مشركا الرفيقين في الاقتراح:

- نسأل الموت إذا وصلنا مقابر الإمام!
وتشقق ظلام الأفق عن خيوط البرق، فقال السائق:
- الرعد المتواصل غير مألوف عندنا!
وسألهم مأخوذاً بما تنهيه السيارة من الطريق أمامه:
- أتروون الأموات يشعرون بالرعد الساعة؟!
فتعلقت أبصرهم بخيوط البرق المنسحبة، وصمتوا باختفائها.. قال
ينهي حيرتهم:
- السؤال يجوز علينا وعليهم!
وسعل وبصق، وعاد من النافذة يسأل الشاب:
- على من ستقرأ الفاتحة في تلك الساعة من الغيوم والغيوب؟
قال يغيطه بتبسمه:
- سنقرؤها جماعة على كل من يقع في طريق المقابر من
الأموات!
فقهقه السائق متحسراً بنبراته:
- يا خسارة! تبسمك لم يقل لي من الغالي الذي أنزلك في هذه
الوعكة الجوية النادرة!
فقال الشاب بنبرات من يحرض الأموات على السائق:
- كلهم غال.. الموت ثمنهم!
فلمح لحية الشريف في المرأة يستفتيها في نفسه:
أيها الحية البنية، أليس نظرته مجللة برهبة الحزن، ورسانة
التبسم؟ ولمح الشاب في المرأة الجانبية يهنئه في نفسه: يا فرحة
الأموات بك أيها الشاب المعطر النادر! إلى أين يمضي بي تبسمك؟
وغام بصره في ضوء السيارة المطارد لظلام الطريق، وخاطب ثلاثهم:

- أحيانا يخيل لي أن سيارتي هذه قبر متحرك!

كان طارق والشريف يسترجعان انفجار دانة المدفع في جنود الأمم المتحدة، وقول صديقهما الجندي المصاب: الانفجار وضعني بين عالمين: عالم الخطوة الواحدة فيه رجوع إلى الحياة، وعالم الخطوة الواحدة فيها صعود بالحياة، ولولا رغبتني في حمل سلاحني الذي تهاوى معي ما فكرت في خطوة الرجوع إلى الحياة الدنيا! فسمع الرفيقان السائق يردد ولا يزال بصره يغم في ضوء سيارته إذ ينتهب الطريق:

- سيارتي هذه قبر متحرك لطلب الرزق ولقمة العيش!

فقال الشاب بنبرات تواسيه:

- هناك يركبون قبورا طائرة لرأس المال القاري؟

حدث السائق نفسه: هناك.. وماذا هناك إلا القبور وأرواح

ساكنيها؟! وخاطب الركابيين معه قائلا:

- أرواح الأموات تطير بالموت كما يطير بنا الأمل!

فلتفت الشاب للسائق يؤكد له، ولمن في التاكسي:

- الفلوس كانت تمشي بقدم الإنسان، والآن الفلوس تطير بعلم

الإنسان! كان لنا قبورا تحفر في التراب، والآن تحفر قبورنا في الهواء،

وعبر موجات الإعلام المشفر كأنه حبر المخابرات السري! لن ندفن في

تراب أوطاننا، وسوف يجعلنا الإعلام المشفر نحفر قبورنا في هواء

قادم من هناك! من يصدق أن دول المنطقة لن تدفن في تراب

حدودها؟ بل ستدفن في هواء قادم من هناك!

تبادلا الرفيقان نظرة الإصغاء لحديث الشاب القادم من هناك،

همس طارق: أين قديس الإطلاق ليرى مهاجرا ممن كتبه لهم النجاة؟

وبادله الشريف الهمس في صائد الإطلاق الذي طالما رافقه بالجسر

في مواسم هجرة الأسماك، ولكنه لم يرى سمكة واحدة مهاجرة مما كان يطلقها صخرة الصيد كما يصفه، وهو يرجع باسمه "بطرس" إلى كلمة "بيتر" اليونانية بمعنى صخرة.. همس الشريف لرفقه قائلاً: أجل، أين أبانا الجالس بأفق النيل ليسمع نشيد حفر القبور في الهواء المشفر؟ شارك طارق السائق والشاب في حديثهما قائلاً:

- حائط الغراب في عصور الفراعنة كان يفصل الملوك عن الرعية، وحائط الغراب الحديث يفصل الدول عن الرعية، أما حائط الإعلام فهو حائط للمبكي سيوحد أتباع الديانات الكبرى على قلب واحد يبكي من الخطيئة، أو يبكي على قبره المحفور في الهواء! وركز الشريف في معارج المطر بزجاج النافذة فيما يلي طارق، وقال:

- أجل يا طارق، للملك دابة من ظهور الناس، وللناس عجل من ذهبهم، وما كلام الدابة إلا من خوار العجل! التفت الشاب لهما يقول:

- لم تعد حروب صواريخ قادمة من هناك، بل حرب هواء مشفر قادم من هناك!

بينما رفع السائق ذراعيه عن عجلة القيادة يتنقل بهما في الجهات الثلاث يبحث، ويردد:

- هناك.. هناك.. هناك.. أين أنت يا هناك؟ بل أين نحن من هناك؟ هناك كلمة تحملك كقذيفة مدفع إن لم تنفجر بك هنا، قذفتك بعيدا هناك!

ثم قهقه للشاب في المرأة الجانبية، وسأله:

- إذن أنت مغترب من هناك، ووراءك سكة سفر!؟

وسعل، وبصق، وعاد من النافذة يلهث، ويقول:

- وراءك سكة سفر واخترت القبور لتكون أمامك!

وتكلف إحكامه على عجلة القيادة كمن يعاند عجلة المقدور فيما قصده الشاب من القبور، أو كمن يوصله إليه، وظل على تكلفه وهو يفحص وقار تبسمه في المرأة، ويسأله في نفسه: هناك؟ وأين هناك هذه؟ في قبور الوطن، أم قبور الهواء؟ وفي أمريكا، أم أوربا، أم وراء حائط المبكى؟ ومن هم راكبو القبور الطائرة؟ ومن هم حافرو القبور؟ نحن هنا لا نفرق بين القائد وشعبه، وبين الإمام والمصلين، وبين المرشد وجماعته. نحن هنا لا نفرق بين الراكب والمركوب، ولعلنا لا نركب شيئاً ولا شيء يركبنا، ولا نطلع مطلعاً ولا ننحدر منحدرًا، وإنما نحن نقف فوق عند ربنا! وهناك يركبون أطباقاً فضائية من دولار، وأطباقاً من يورو، ويرسلون هنا صواريخ "فهرنهيت" سبتمبر أو برجي التجارة في أمريكا، و صواريخ شهداء تتيه بهم تيه العودة! ولكن من راكبو القبور الطائرة هؤلاء؟ كأننا لا نعرف من هم! من أيها الشاب العائد البسام؟ لا تجيب! الحروب هنا في كل مكان، ولا أحد يصل إليها إلا هم، إنهم أسرع من يطير إلى القتل! أراهن بهذه السيارة أنك جئت من هناك. لاهي جنازة ستمشي فيها، ولا هي زيارة ستؤدي لها واجب الوفاء، ولن تكون مخدع غرام، أو شبهة من شبهات الأناقة المستوردة. ماذا تكون إذن زيارة للقبور في هذه الوعكة الفضائية؟ استراح بباطن ساعده على النافذة يقول:

- أراهن بهذه السيارة أنك جئت من هناك لتشتري قبراً هنا في

التراب!؟

فحرك الشاب رأسه في المرآة بالنفي، فغمغم السائق في المرآة لطارق والشريف يشهدهما على الغموض القادم من هناك:

- أرايتما، ولاهي شراء قبراً في تراب الوطن!

وللحظات احكم يديه على عجلة القيادة مركزاً بصره في ضوء السيارة الموطئ لظلام الطريق، ولاحظ طارق والشريف وجهه في المرآة وهو يتقلب في المرح، والحزن، والوجوم، وزهو الفطنة، وخيبة الظنون! وقد لاحظ الشاب ذلك فمال عليه يقول:

- الحضور هنا زائد في كل شيء لدرجة أن كل شيء غائب!

فرفع ذراعيه عن عجلة القيادة كأنها (طاسة الخضة) قائلاً في

مرح:

- دستور يا أسيادنا من كل حضور يشبه حضور العفاريت!

فقال الشاب باسمًا:

- ليس للدستور أسياداً!

فتخلّى ثانية عن عجلة القيادة، وتنقل بذراعيه يبحث ناحيته،

وخارج النافذة، ويسأله:

- هنا أم هناك؟

قال الشاب برصانة:

- ليس للدساتير أسياداً حيث يكون حضور الشعوب تضحية،

وعملاً لا يحرق له بخور (خضة)، أو بخور تدين!

فطوح رأسه أو قلبها في الهواء متعوذا يقول:

- ولا بخور بترول، أو بخور صواريخ، أو بخور "فهرنهايت" فرن

محرقة العرب لا اليهود!

وقهقهه، وسعل، وبصق، وعاد من النافذة إلى نفسه يبثها
خواطره: تتعدد أنواع البخور والأسياذ واحدة. هنا طاسة الخضة وهناك
طاسة النار. هنا نُضحى بذبيحة الزار، وهناك يضحون بنا على مذابح
الهواء كما يقول الشاب القادم من هناك. دستور، دستور، دستور لا
أسياد، ولا حضور من شعوب. تاهت ولقيتها.. لقيتها في القبور. يا
فرحة الأموات بى! ألهذا نحن ذاهبون هناك إلى تراب الوطن المغلق
عليه القبور وليس إلى تراب الوطن المكشوف للهواء المشفر؟! تكلف
إحكامه على عجلة القيادة لتخترق السيارة قوة الهواء محدثة دوبا
متواصل، بينما تقاذف المطر بزجاج المقدمة مشكلا غابة تشتعل في
حزمة الأضواء المنبعثة من السيارات المواجهة، ثم تجهم الصمت داخل
السيارة، وفحص السائق الوجوه في المرآتين، وأحس أن شعورا واحدا
يستولي عليهم جميعا؛ فعاد لنفسه يناعيها: لم ترفع قدمك عن البنزين
لحظة. تراقصت مخلياً عجلة القيادة، وشردت عن الطريق، وجزع بك
البرق، واستخفك التنكيت، ولكنك لم ترفع قدمك عن البنزين لحظة! هل
ابتغييت الوصول، أم الاستنزاف؟ لو قال لك الشاب المعطر لم اختار
القبور لعرفت أنت لم اخترت الوصول؟ كلانا مستنزف، وكلانا يريد
الآخر، أنا لأوصله وهو ليشير إلى موضع الوصول. وانقلب وجهه من
التجهم إلى العبث، ولمح الشاب في مرآته يسأله:

- أنت متزوج؟

فقال يراوغه بتبسمه:

- ألهذا السؤال علاقة بذهابنا إلى القبور؟

فأجابه بقهقهة مزقها السعال:

- لن تكون زوجة من هناك أو حتى من أموات القبور!

ثم لهث ينصحه:

- إن تزوجت فلا تبق على الزواج طويلا. اسأل مجربا.. الزوجة
الواحدة تفسد الزوج، والاثنتان تفسدان الزواج، و ما فوق ذلك يفسدن
بعضهن!

ولمح ذقن الشريف في المرأة، وسأل الشاب:

- أنت تشرب؟

فأكد له ظنه قائلاً:

- هناك فقط!

فقرظه بلهجته الممطوطة:

- تلقاك خائفاً على هنا من السكر!

فضحك الثلاثة إلا الشريف فقد التفت إلى البرق إذ ينير صخور
القلعة، وتكاد خيوطه تلامس المنذنة العثمانية، وحدث نفسه: ليل هنا
عاطفة دفينة أقدم من القدم! ويأشرف السيارة على كوبري السيدة
عائشة المطل على مقابر الإمام الشافعي؛ تذكر حلمه المتكرر كلما
دعته جماعة ليصلي بها إماماً، فكان يرى الإمام الشافعي يخرج من
ضريحه ليجد الناس حوله يرفعون المصاحف إلى صدورهم، ويلزمونه
الاحتكام إلى القرآن، وما يلبث الإمام أن يعود إلى ضريحه صامتا كما
خرج منه صامتا، وقد توالى عليه صيحات الناس من أقطار الضريح،
ثم يشتد هتافهم متوعدا: "لا إمامة لمن لا يحكم بالقرآن" ولما يطوي
الضريح الإمام تحمى الشمس، ويستعر قيظها كأنها شمس القوم الذين
لا يكادون يفقهون صمتا ولا حديثا، وإذ بهم يرفعون المصاحف من
صدورهم إلى الرؤوس، ثم شتتهم الفرار من الشمس المستعرة، ولم
يُرى في أماكنهم حول الضريح إلا المصاحف! سأل السائق الشاب:

- أو نصعد الكويري؟
- حرك رأسه بالنفي، فعاد يقول:
- حوادث هذا الكويري كثيرة غامضة!
- وتذكر أن الشابين سينزلان بالسيدة عائشة؛ فسأل الشاب بلهجة من يبغي الأمان لنفسه:
- ماذا سنفعل في القبور؟
- قال باسمًا:
- لقد اتصل بي حارس الحوش، وأخبرني أن قبر الأسرة قد هبطت به غزارة الأمطار!
- أخيرا استراح السائق، وبالاقتراب من أسفل الكويري توقع الكمين؛ فنحرف بالسيارة يمينا ريثما ينزل الشaban. وطارق يحاسبه تمتم:
- لما سحبوا الرخصة مني لم يطلبها أحد منهم!
- فسأله طارق باسمًا:
- وأين هي الآن؟
- قال كالمطمئن:
- عندهم!
- ضحك ثلاثتهم، وسأله طارق:
- ولماذا لم تستردها؟
- فقال يحذر نفسه من استردادها:
- حتى لا يأخذوها!
- ثم عبث وجهه في خاطر خطر له فأجل محاسبة طارق، وفتح الباب مارقا من التاكسي إلى اللجنة يسألها:
- ألم تشاهدوا جنازة؟

أجابه الأمين مشيراً إلى مسجد السيدة عائشة:

- الجنازة لم تزل داخل المسجد!

فوالهم ظهره هنأً بخداع الكمين، وليس بسر الرخصة المسحوبة،

ثم جلس إلى عجلة القيادة يقول وهو يحاسب طارقاً:

- خطر لي أن أخدعهم بجنازة وهمية وإذا بالجنازة حاصلة حصول

الموت ومطر الحياة!

فخرج الشريف من السيارة يتعجل طارق لعلهما يدركان صلاة

الجنازة، فاستدرك السائق قائلاً:

- يظهر أن عوارض الغيوم أو الغيوب قد أخرت وصول صاحب

الجنازة!

فقال طارق وهو يتحرك بالشريف:

- أو بكرت بوصولنا لنصلي معه صلاته الأخيرة!

فشيعهما قائلاً للشاب:

- مكتوب عليهما الصلاة مع ميت لا كما أفهم أنا، ويفهم الناس

الصلاة على ميت!

فقال الشاب يحفره:

- أنت جاهز للصلاة أيا كانت معه أو عليه؟

فاحكم يديه على عجلة القيادة قائلاً:

- أنا جاهز للكمين!

فقال الشاب:

- انتظرنني! وسوف أحاسبك بما يرضي الله!

ثم مرق من السيارة يلحق بالشابين.

المدرج رقم 2 بكلية الشريعة والقانون من أكثر المدرجات اتساعاً؛ لذلك خصص لعلوم القوانين كافة.. وهو مدرج لا يُغلق بابه ولا نوافذه المفضية إلى شارع جوهر القائد، ويكتظ بطلابه إلى خارج الطريقة المثبت بإحدى حوائطها سماعة يجلس إليها حشد من الطلاب بامتداد الطريقة، ويصفه طارق: "بالمدرج الجامع وليس بمانع" أي الجامع لكافة المذاهب الفقهية التي بني عليها الاجتهاد في الدين، وليس بمانع لغيرها متى كان الاجتهاد تفقه في مقاصد الشريعة لا جموداً على الألفاظ، أو تقليداً كالجمود! والعبرة عندنا: "بالمعاني لا الألفاظ"، ويقول: وحي "غار حراء" عرفه أصحاب النبي عليه السلام معرفة السماع والتنزيل؛ فقد كان النبي بينهم ومنهم من أوحى إليه بأذان الصلاة في المنام، ولا أحسب أن الوحي ينقطع عن هذه الأمة ولكنه وحي إلى اجتهاد وليس وحيًا إلى نبوة؛ إذ النبوة قد ختم وحيها بخاتم الأنبياء. ويقول: ليس بمجتهد من أغلق قلبه دون عالمية الإسلام، وليس بمجتهد من فاته أن الإسلام "دعوى" قبل أن يكون تشريعاً؛ لأن الدعوى مساكها الضمير المقتدي بمثله الأعلى، والتشريع قوامه ما ينتفع به الناس، ويستشهد على ما يقول بالقرآن: "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا"، وفي الرسل والأنبياء يتل على زملائه، وتلاميذه: "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ"؛ فالأسوة أو القدوة كما أفهم تلاميذه هي معجزة الإسلام لا السيف، وتلك هي الحقيقة التي يقبلونها باطلاً، أو سيفاً

كلما احتاج إليها الناس، ويستشهد بالنبي الكريم، وهو أحق الناس بتيسير الدعوى، وأنه كذلك لأحقهم بالتشدد فيها؛ وذلك حين اشترط وفد ثقيف ألا يخرجوا للجهاد، ولا تؤخذ منهم الزكاة، ولا يحبون في صلاة، ولا يستعمل عليهم غيرهم، فقال عليه السلام: لكم ألا تحشروا ولا تعشروا ولا يستعمل عليكم غيركم. ولا خير في دين لا ركوع فيه. مدرج بكلية الشريعة والقانون: "جامع وليس بمانع ولا مفرق" حتى اتسع لطلاب منه يدرسون الشريعة، ويتشيعون لكافة الجماعات، والدعوات، والتيارات، ولو كانت جماعة لها جحور سرية، أو أقتعة سوداء، أو سيفان، أو طابور خامس، أو كانت دعوة سلفية، أو سنية، أو صوفية، أو مُحبة لآل البيت.. فهم طلاب شريعة قد اختلفت بهم الأهواء، ونزعات الفكر، والشعور، والمصلحة، والطموح، وكان تلاميذه وخاصة عماد ينقلون إليه ما يحدث في المدرج، وما يستحدث فيه من بدع كالتظاهر داخله، وكان صالح أو الحفيد والشيخ موافي يصاحبان الجميع دون تفرقة بين جماعة وجماعة، أو دعوة ودعوة، وأن كان الشيخ موافي أو الشيخ "أف لكم" كما نابذوه بالألقاب يُرحب بها على شرطه، وهو "التأفف" من دعائها ذوي العقول الصفراء صفار الأوراق التي ينقلون "عننتها" للناس في الجوامع، والأندية، ثم نقلوها عبر الفضائيات حتى افسدوا هواء البيوت والحجرات، وحق على دعاة "العننة" تأفف الشيخ موافي، وأقسم على زملائه المتعننين بعننة الفضائيات قائلا: والله! لن تغني عنكم عننتكم ولا عننتهم من الله شيئا؛ وإن الدين الذي جعل من التفكير فريضة، وأصل الاجتهاد لن تقوم فيه "العننة" مقام الاستدلال والبرهان العقلي حتى لو رجعتم بطابور العننة ألف وأربعمائة سنة، وفي حومة جدال يقول لهم:

"العنفنة تقليد في غير ضرورة، وصوت بغير عقل!"، وفي جدال آخر يناديهم: "أيها المتعنعون، أنتم عالة ليس على الدين فحسب بل عالة على من تعنعون عنهم"، وكادوا يغلوه بسلسلة العنفنة، فصاح بهم: "ما بالكم أيها المتعنعون؟! أهى العنفنة قرآن مرتل قد أنزل ذكرها عليكم من بيننا؟!". بينما الحفيد صالح يرى في الجماعات، والدعوات، والشيع متنفسا للأهواء والنزعات، وحتى الشطحات ما لم تكن صراعا محتملا مع الدولة، أو انقلابا عليها، أو تقيّة تتربص بها، أو طمعا فيها كقطع الذئب في الفريسة، وأما الشيخ مبارك احمد فكان يهون من فتنة التشيع، وله مسوغ في انفصال الباكستان عن الهند، إذ يقول: الذين يعبدون البقرة والذين يأكلونها قد نبذوا السلاح! و مسوغه الأكبر في تعدد اللغات، واختلاف النحل في الهند، إذ يقول: حدوث الفيضان لا يخيف الناس، فهم لا يزالون يسكنون ضفاف الأنهار بعد كل فيضان! ولكنه لم ينسى ذلك المتهوس الذي أغتال "المهاتما غاندي" وهو في طريقه إلى الصلاة، وقد أعماه التهوس عن حرمتها التي ردد كلماتها المهاتما برصاصة القاتل ترديه إلى الأرض، وتنزع به نزع الروح الأخير: "أي رام.. أي رام" الصلاة.. الصلاة، وكلما تذاكر اغتيال "المهاتما" برصاصة مهووس جعل من التهوس سلاحا للدين؛ ذكر عماد اغتيال السادات ليس كقائد اغتاله جنوده بنفس الرصاص الذي قاتلوا به أعدائهم، وإنما يتذاكر الاغتيال كأنه سيف الدين الذي يدعيه على الإسلام ألد أعدائه، ويرجع مالك، أو الأمريكي الفصيح بالفتن إلى جرثومتيها: المال، والسلاح، فإذا كانت الدول تفتن بوفرة المال، وتطور السلاح فما بالناس بالآفراد والجماعات؟ ويقول: إن دول الديمقراطية في العصر الحديث أكثر طغيانا من الإمبراطوريات القديمة،

وإن كان طغيان هذه بالسلح فطغيان تلك بالمال الذي يُحكم قبضته السرية على الإعلام بكافة وسائله، ويستدعي عبارة الشيوعيين القائلة: "الدين أفيون الشعوب" ويقول: "الإعلام أفيون الشعوب" الذي تخدر به دول الديمقراطية شعوبها فما بالنا بغير شعوبها؟! ويقول: أمريكا وطني لن تعود إلى الحرب الأهلية في الأمد البعيد، ولكنها ليس ببعيدة عن "شغب المدن" على غرار صراع الطبقات الذي شرحه ماركس للشيوعيين، ويقول محذرا: الخطر كل الخطر من الوباء الذي قد يستشري لو أن الشعوب التي أدمنت ديمقراطية الإعلام في الغرب هي التي تتاجر بالأفيون خارج حدودها! أما جحا النيجيري أو الشيخ آدم فكان له عبارة عجيبة يقولها، ولا يقول غيرها سواء في المدرج أو خارج المدرج، أو يقولها في الغابة أو خارج الغابة، وهي: إذا بني مسجد في غابة سوف تدخله الهوام، والوحوش، وكواسر الطير، وسوف يصلي فيه الإنسان! أما عماد فكان يسمى التشيع تحيزا إلى فئة أو جماعة، أو مغارة لصوص، ولما يشتدوا عليه في الجدل يسميه: "تحرفا لقتال"، ولا يزال يصف نفسه لكل متحيز، أو متحرف بعد كل جدال بقوله: أنا الذي صلى في هياكلكم جميعا وإلى الآن لم أجد الهيكل الذي بنته الجان لسليمان عليه السلام! فهو والشيخ مالك لم يتركا جماعة، ولا دعوة، ولا شعبية، ولا عصبية، ولا حركة، ولا تيارا ولا تنظيما إلا وانخرطا فيه، وينتزع ضحكات المتحيزين، والمتحرفين للقتال حتى يضج المدرج ضجيجه إذ يقول في استرسال: أجل! لقد خضت فيكم تارة كسائح على سفينة يقودها قراصنة، وتارة كمراسل حربي في حرب تتربصون بها ريب المنون، وتارة كمجذوب يدور حول حلقة من المجاذيب قد تفرق بينهم الذكر أيما تفرق، وتارة كطالب

شريعة يجلس في مدرجها حتى إذ علا صوت من شيعة؛ أو عصابة، أو جماعة ونظرت في وجهه رأيت أثر الموضوع، ولكني إذا نظرت في عقله لم أكاد أراه كأنه السراب الذي يحسبه الظمان ماء! وتارة كمواطن بسيط حمله الدعاة على أطلق لحيته حتى مشى في الشوارع يعد شعر ذقنه كما يعد حاخام اليهود صكوك الغفران التي سيبيعها للناس ليدخلهم بها الجنة! كان يضيق بهم ذرعا ويضيقون به ذراعا في الغاية من التحيز، أو التحرف للقتال، ويسألهم:

- متى فرقنا الدين شيعة، وعصابات، وفرقا، ونحلا، وجماعات؟ ومتى جمعنا السياسة، والنزاع على الملك، والخلافة، والدولة؟ ويذكر خلايا الإخوان النائمة في المدرج بتلك العبارة التي رضعها معهم في الحجر المحظور، وهي: "الإسلام دين ودولة". عبارة يقصدونها قداسة النبوءات، بل هي نبوءة الدولة الموعودة وعد الأرض لبني إسرائيل، والتي ستفتح سجونها، وخزائن أموالها، ويُعْطَى مناصب سلطاتها، ويُخَوَّن جيشها، ويسفَه حكمائها، ويمارس الإرهاب على قضاتها، ويبيع لشعبها الدين بيع الماء في حارة الساقيين، وطالما وقف على منصة المدرج الجامع وليس بمانع ولا مُفرق يسأل طلابه من ميكروفون المحاضرات:

- الإسلام دين ودولة، أم أن الإسلام دين وتقوى؟! ويسألهم:

- الإسلام يشرع للعالم والدين والسياسة بعقول فقهاءه، أم ببطون كهنة لا هم ساسة ولا هم رجال دين؟! فلا يدعه طلاب الخلايا النائمة، أو ذو الأفتنة السوداء حتى ينبذونه بلقبه، ويهتفون به مسفهين:

- أنزل من منصة الشريعة يا هامان ولا تبلغ فرعون الأسباب!
فيسألهم:

- أية أسباب؟ أسباب السماء أم أسباب الأرض، وأسباب الدين أم
أسباب الدولة؟!

وكان الحفيد تدمع عيناه على الشريعة المنتهك حرمتها، وحرمة
مدرجها، ولكنه كان يتخذ من خلاف عماد مع زملائه مثلاً من الواقع
يقيس عليه أمثلة عديدة من تاريخ الفتن في الإسلام، ولا سيما ما
عرف تاريخياً: "بالفتنة الكبرى" التي استهلت بمقتل الخليفة عثمان
دخل قصره، ثم باغتيال الخليفة علياً هو يدخل إلى مسجده، ثم
بالقضاء على نسله وهم مطاردون في عراء المُلْك! ويوصل حفيد شيخ
الأزهر الفتنة فيما هو معروف من أن النزاع على الدولة مرتبط بنشوء
الفرق، والمذاهب: كالخوارج، والشيعة، والقدرية والمرجئة، والقائلين
بالرجعة وتناسخ الأرواح، ومذهب أهل الحقيقة ومذهب أهل الشريعة،
ثم الباطنية وأصحاب الرموز والأسرار، أو الزرامية الذين يقولون أن
الله قد حل في إمام بعد إمام! ويتساءل بين المختلفين متلطفاً:

- أين نحن من الدولة الدينية وصروح حضارتها المتعاقبة؟ إنها
المثال الذي لن يتكرر، ليس لعجز فينا وإنما لطبيعة في الدين إذ الدين
دولته هي الأرض، وشعبه هو شعوب العالمين، وليس الساميين، أو
الآريين، أو المغول!

وقد يقف في المدرج يخطب فيهم كما يخطبون هم قائلاً:

- لا تزينوا لنا الخلافة، فالخلفاء الراشدون يعدون على أصابع اليد
الواحدة في مئات لا تعد من سنين الخلافة!

ويعيد على أسماعهم قول النبي عليه السلام: "الخلافة ثلاثون عاما ثم يكون الملك"، وينبأ بانقسام الفرق وتشعب الأهواء، ولم يكرب الحفيد كربه بألك الذين يحملون المصاحف، وينتشرون بها في كل مكان منظور للناس. في الطرقات، والمواصلات، والمصالح الحكومية، والجوامع... كأنهم خلايا سرطانية في لحمة الدين، ولحمة الأمة، فهم إذن من يُحكمون كتاب الله فيما بينهم وبين الناس، كأنهم جيش معاوية المهزوم يرفع المصاحف على الحراب؛ ليحتكمون إلى كتاب الله، وقد كان للحفيد مع واحد من حملة المصحف هؤلاء واقعة تواتر ذكرها خارج المدرج تواتر الكرامات، وهو طالب يتكرر رسوبه، أو ينجح السنة في سنتين، و في ثلاث، وقد لحقوا به وهو يعيد السنة الرابعة في أكثر من مادة، ومنها القرآن الكريم الذي حمل مصحفه للناس لا لضميره، وكان متعدد الزيجات، والمهن، وفي إحدى محاضرات القانون الدستوري جلس إلى جوار الحفيد فاتحا المصحف، وجعل يهينم كلمات القرآن كأنما يخفيها عنه حتى لا يصحح أخطائه الفاضحة، وإذا بالحفيد يلتفت إليه قائلاً:

- يا شيخ نادرا، لقد رأيتك في منامي وأنت تحاسب حسابا عسيرا من وراء حجاب من المصحف!

فالتفت إلى الحفيد باسم تبسم الدجال كأنما يقول للحفيد نحن من يُدجل على الناس بتلك البضاعة، وفي اليوم التالي انفرد به الحفيد في حرم الجامعة ليعيد عليه رؤيا المنام ذاتها بحجابها وحسابها العسير؛ فتبسم له بذات التبسم، ولكنه في اليوم الثالث نظر إلى حفيد شيخ الأزهر نظرة من نسي الدجل والدجال، والناس والبضاعة، وصعر أذنه لم وكر فيها من كلمات الرؤيا المعادة ثلاثا: "يا شيخ نادرا، لقد رأيتك

في منامي وأنت تحاسب من وراء حجاب للمصحف حسابا عسيرا..."، ولم يمض من أيام الله أسبوع إلا والشيخ نادر حامل المصحف في يده كما يحمل ذقنه في وجهه يأخذ عزاء زوج من زوجاته، وأولادها الثلاثة بعد حادث مروع في طريق الصعيد، حيث كانون في زيارة إلى جدهم وجدتهم أول أيام عيد الأضحى، وقد ظل الشيخ نادر على رباطة جأشه، وتبسمه بما يليق بحامل لكتاب الله حتى استقبل زميله صالحا بمدخل دار المناسبات، وعانقه دامعا، ومسمعا المعزين نحيب ندمه قائلا: ها هو حساب منامك يا حفيد شيخ الأزهر! ولكن الحساب المسبوق بنذور الرؤيا لا يعتبر به أصحابه حتى يكونوا عبرة لغيرهم؛ فلا يزال الشيخ نادر يحمل المصحف أينما ثقفه الناس، وكيفما كان تهينمه بكلمات القرآن، وإخفائها عن الناس كأنه كاهنها المهيمن على أسرارها، وخلال سنوات الليسانس الخمس ظلت علاقة الحفيد بالخلايا النائمة في المدرج بمنأى عن الشغب، والاستخفاف، والتسفيه، وإن شابتها المغالطة، وحيل المناورة، وتخريجات التفهيق في الدين إلى أن ذكرى عماد إمامهم "حسن البنا"، وأتهم الإخوان بتدبير من الموساد باغتياله حتى يدفنوا معه "خبئة" التنظيم السري الذي نشأ في جحور أجهزة المخابرات العالمية منذ أسس البنا جمعيته الدينية بالإسماعيلية، وقد استشهد عماد بتلك المقالات النارية التي كتبها الأستاذ العقاد عقب اغتيال الإخوان للنقراشي في عام 1948، وهي مقالات جمعت في كتاب ابتاعها من عم الشيمي، وفي إحدى هذه المقالات يتساءل العقاد: من هو حسن البنا؟

ويترك عماد زملاءه في المدرج يقرءون ما يجيب به حجة الإسلام في العصر الحديث بقوله: "إن أحدا في مصر لا يعرف من هو جده

على التحقيق، وكل ما يقال عنه أنه من المغرب، وإن والده كان ساعاتيا بالسكة الجديدة، والمعروف إن اليهود في المغرب كثيرون، وإن صناعة الساعات من صناعتهم المألوفة، وأننا في مصر هنا لا نكاد نعرف ساعاتيا كان مشتغلا في السكة الجديدة بهذه الصناعة قبل جيل واحد من غير اليهود، ولا يزال كبار الساعاتية منهم إلى الآن، ونظرة إلى ملامح الرجل تعيد النظر طويلا في هذا الموضوع، ونظرة إلى أعماله، وأعمال جماعته تغني عن النظر إلى ملامحه، وتدعو إلى العجب من هذا الاتفاق في الخطة بين الحركات الإسرائيلية الهدامة، وبين حركات هذه الجماعة، ويكفي من ذلك كله أن نسجل حقائق لا شك فيها، وهي أننا أمام رجل مجهول الأصل مريب النشأة يثير الفتنة في بلد إسلامي!". ويقرأ عماد على زملائه طلاب الأزهر تعليق أستاذه العقاد على بيان شباب الأزهر بمقال عنوانه: "صوت حكيم من شباب كريم"، قائلا: "وصل بيان بتوقيع شباب الأزهر يعرب فيه كاتبوه عن رأيهم في أولئك "الخوان" الذين كانوا يسمون أنفسهم بالإخوان المسلمين، ويعملون ما يتمنى أن يعمله الصهيونيون، وقد أعلن شيوخ الأزهر الإجماع حكم الدين الإسلامي في جرائم الفتك، والإرهاب التي تتابعت من تلك الطغمة الباغية.."، ويتداولون مقالا نشر في جريدة الأساس عام 1949 يكشف فيه العقاد فتنة التنظيم العالمي للإخوان، وتأمرهم على أوطانهم، إذ يقول: "في شهر واحد قامت حركات متآزرة في جميع الدول العربية تهدف إلى غرض واحد وهو التخلص من القادة المخلصين الذين يقفون من قضية فلسطين، والعروبة موقف الإباء والكرامة؛ فاضطرت الوزارة السورية إلى الاستقالة، ولحقت بها وزارة العراق وفي الوقت نفسه اندلع لهيب المظاهرات المسلحة بقيادة

الإخوان المسلمين لإسقاط وزارة النقراشي؛ فلما عجزت اليد الآتمة دفعت بمجرم من مجرميها إلى اغتيال حياته الطاهرة وهو يصرف معركة لولا لطف الله لأودت بسلام الوطن.. "، ويقرأ طلاب الشريعة مقالا بعنوان: "فتنة إسرائيلية" يقول فيه العقاد: "والفتنة التي ابتليت بها مصر على أيدي العصابة التي تسمى نفسها بالإخوان المسلمين هي اقرب الفتن في نظامها إلى الدعوات الإسرائيلية، والمجوس.. وأيا كان الأمر فهي فتنة غريبة عن روح الإسلام ونص الإسلام وإنها قائمة على الإرهاب والاغتيال وكل ما قام على الإرهاب والاغتيال فلا محل فيه للحرية، والإقناع وجدير بالمسلمين ومن يؤمنون بالحرية، والحجة من غير المسلمين أن يقفوا له بالمرصاد..."، وأخطر ما تداوله طلاب الشريعة في مدرجهم مقالا ينفي فيه الأستاذ العقاد أن يكون "الإيمان" هو محرك هذه الجماعة التي سمها بـ "خوان المسلمين" فيقول حجة الإسلام في العصر الحديث: "... كلا لم يكن بهم حاجة إلى إيمان قويم، ولا إيمان منحرف ولم يكن بهم حاجة إلى إيمان قوي، ولا إيمان ضعيف، وكل ما احتاجوا إليه هو تحريك طبيعة الشر والطمع والغرور: الشر الذي يستخف بالحياة البشرية والطمع الذي يتطلع إلى ما في أيدي الناس والغرور الذي يخيل إليهم أنهم أبطال لأنهم يقتلون ويسلبون.. وقد يحسب الناس أن موضع الطمع في جرائم تلك العصابة التي تسمى بحق عصابة "خوان المسلمين" أخف من موضع الشر والغرور، والواقع أن "الطمع" هو الباعث الأول في نفوسهم على سفك الدماء، وإشاعة الفوضى في جوانب البلاد. فان الكلمة الأولى التي تقال لهم هي: "أن الإسلام دين ودولة" وإنهم يعملون ليقبضوا بأيديهم على زمام الدولة في يوم من الأيام. يقال لهم هذا، ويقال لهم معه إن

إرهاب القضاء كفيل بنجاتهم من حكم الموت، وإنهم لا يلبثون أن يخرجوا من السجن أبطالا متوجين بأكاليل الفخار متريعين على مناصب الحكم متصرفين في الأنفس والأموال.."، وآخر ما قرأه عماد على زملائه مقالا بعنوان: "خدام الصهيونية"، يقول فيه العقاد: "أبت الرؤوس الآدمية أن تنفتح لضلالة الإخوان لو كان الأمر هنا عبث ومجون، وإنما هي مطامع خبيثة تتطلع، وغرور صبياني يهاج، وشر كمين في الطبائع العوجاء يستثار.. وليس لهذه الأمة من علاج غير علاج واحد هو الشدة التي لا تعرف الهوادة والحزم الذي لا يعرف الإبطاء، ثم ينادي على رجال مصر: فيا رجال مصر هل أنتم رجال؟".

كان عماد من عائلة شهيرة في الدرب الأحمر والباطنية يمتنون "الجزارة"، ولنفوذهم في حيهم كان شباب الإخوان، والسلفيين يصهرون إليهم، ومنهم جيران له، وزملاء دراسة في جميع مراحل التعليم بما في ذلك دراسة الشريعة، فهو من ثم معروف بينهم في المدرج، بل ومرهوب الجانب، وأقصى ما استطاعوه في جدالهم معه حدة المناوشة، أو المراوغة في اقتضاب، أو المزاح الذي نابذوه فيها بلقبه الأول "هامان" وبلقبه الثاني "الجزار"، وكثيرا ما كانوا ينطقونها بالإنجليزية لإقصائه من حظيرة الجماعة، أو لغة الدين، وقد احدث شيوع تلك المقالات في المدرج، وتداولها يوما بعد يوم لغطا، وهياجا ولولا وقفات الشيخ موافي، والحفيد، وبعض الزملاء؛ لنقلب اللغط، والهياج شغبا، وتصادما، ولكن للسفـه شيطاننا مريدا يعرف متى يظهر بين الحكماء والأغبياء على حد سواء. كان الهياج في المدرج قد هدأ قليلا إلا من طالب كان يتعمد ظهوره ممسكا بالفتناع الأسود في يد، وفي الأخرى يمسك بكتب الشريعة، ولا يزال يعكر صفو الهدوء بأسئلة يلقيها في

أرجاء المدرج حيثما تحرك رأسه وذراعه، ثم نظر لحفيد شيخ الأزهر
يسأله:

- أيرضيك يا شيخ صالحا، أن يوصف الإمام البنا بفرية العقاد؟

فضحك الحفيد، وقال يمازحه، ويلطف من هياجه:

- والله يا شيخ، في ملامح الرجل الكثير من حُسن العبرانيات!

فعاد يسأله في هدوء يترصد بالهدوء:

- أهذا ما تعلمته من إمامة جدك للأزهر؟

ثم روع الجميع ونخس سواكه بوجه الشيخ الحفيد، وأول الدفعة
خمس سنين، ولم يكد عماد يرى الدماء تنضح في وجه صديقه حتى
مرقت قبضته في أنف حامل السواك، والذقن، والقناع، وكتب الشريعة،
وقوارير العطور؛ ليطرح في غيبوبة حرمة من مشاهدة عراك المدرج،
أو الفتنة التي أحدثها سواكه، وقد وجد لها الشيخ موافى تخرجة
تناسب ما استحدث من بدع في المدرج، ووصفها في مكتب العميد
"بمعركة السواك" حيث اجتمع بأبنائه في مصالحة خيم عليها نذر
الوعيد، وترويح التنكيت؛ إذ شرع السيد العميد في جمعهم على كلمة
سواء هي الأقرب إلى رفق الدين، وسماحة العلم، وأواصل الوطن، ثم
ختم كلمته منذرا بسوء العاقبة، وراجيا لأبنائه الرحمة في كل خلاف
وإن كان خلافا عن هوى، أو جهالة، أو تغيرا، وكأنما جحا النيجيري،
أو الشيخ آدم يترصد بصمت العميد ليعيد الخلاف إلى زوبعته الأولى،
وإذا به يسأل حامل السواك مردد:

- أين سواك أين سواك؟!!

فرصد فاقد السواك عمادا بنظرة ناقمة تحمله جريرة فقده، وجريرة
أنفه المحطم، ولكن جحا فاجأ جمهرة الحضور ثانية، وإذا به يخرج

السواك المفقود من حيث أخفاء في ثوبه النيجيري المحلي، وكان بمكتب العميد دولابا مخصصا لما حصده الطلاب من مدليات وكؤوس في أنشطتهم المختلفة، ومنها كأس بطولة وسط القاهرة في الشطرنج قد حصل عليها عماد، واحتفلوا بصورها التذكارية في المدرج. قام جحا كفيل يسلم السواك لصاحبه الموتور فاعترضه الشيخ موافي وخطفه من يده، وقال مخاطبا العميد:

- لا أظن أن سيادة العميد يجد حرجا في أن يحتفظ لدفعتنا بهذا السواك في دولاب جوازنا!

فانتتر فاقد السواك من مكانة كمن جذبه شيطان الخلاف، ورصد الشيخ موافي مناديا عليه:

- يا شيخ أف، أف لك!

ثم رصد السيد العميد يسأله أو يحاسبه:

- أئدنس سواك رسول الله بوضعه في حاوية اللهو، والنرد،

والشطرنج؟!

وأسرع إلى باب المكتب، واستدار عنده يتوعد عمادا قائلا:

- والجروح قصاص!

فنظر عماد إلى ذقنه قائلا:

- لن يكون لكم وجودا في الدرب الأحمر!

سأله هازنا بتحديه:

- كيف؟ وقد تواجدنا في بيوتكم، وتزوجنا بناتكم!

فصاح به عماد:

- يا خراصين الدنيا والدين، طائر الكبر سيأكل ما في بطونكم من

بلح الدنيا وعنب الدين!

فلوح بذراعه للحضور يحضهم على الإصغاء لما يتفوه به من
تهاويل التشنيع:

- سلوه لِمَ لا يصلي في جماعة؟ سلوه عن يُعاهر النساء بمقاهي
الحسين؟ سلوه عن يجالس الفتيات السافرات بحرم الجامعة؟ سلوه
عن إمامه الملحد المتفلسف ببدعة الوجودية؟ سلوه لِمَ سافر إلى
الإسماعيلية ثم أرتد منها على عاقبيه مطرودا؟ سلوه لِمَ صعد بطلاب
الشريعة إلى جبل المقطم؟ سلوه عن الفرعون الذي رآه في منامه؟!

وما زاده رجاء دكتور المرافعات إلا تشنيعا وهو ينصح له عقب كل
تشنيع: أمسك عليك لسانك! ثم فارق من اجتمعوا لأصلح ما أفسده
سواكه، ولم يجد السيد العميد خيرا من الدعاء فشرع يبتهل، ويؤمن
على دعائه الجميع: اللهم أجعلها عاقبة صدق لا ردة كذب. اللهم أبق
الفضل بيننا حتى يأتي كل ذي فضل من فضله. اللهم هؤلاء هم طلاب
شريعتك فجعلها لهم موردا إلى نهر وليست سرايا إلى سراب. اللهم إن
كانت فتنة فلا تفتنهم في دينك ولا دنياهم. اللهم أجعل في اتفاقهم
رحمة، وفي اختلافهم رحمة، وأجعل الرحمة جزاء تراحمهم!

أما عن تشنيعه بصلاة الجماعة فقد كان يسأل عمادا كلما أذن
مؤذن من جماعته لصلاة الظهر من مصلى الكلية:

- لِمَ لا تصلي في جماعة؟

فكان عماد يجبه بما يُأخذ به نفسه إلى أن ضاق ذراعا بهذا الذي
يذكي نفسه على زملائه؛ فرد عليه سؤاله قائلا:

- ألا تدري لِمَ لا أصلي في جماعتكم؟

فبسم لائذا بالصمت!

فقال عماد:

- حتى لا أرى تلك الذقون تغفر السجود بتفاخرها!

أما عن تشنيعه بمعاهرة النساء على المقاهي، فلم يكن عماد من هوة الجلوس على المقاهي إلا أن يجد حرجا في الاعتذار عن دعوة رفضها غير مرة، ثم قبلها إرضاء لأصحابه في الحي، وقد تصادف أن رفع أذان العشاء والشيخ موافي برفقة حامل السواك إذ يهرولان إلى مصلى جمعية للدعوة خلف مسجد الحسين؛ فأوماً حامل السواك برأسه عن يساره يحرض موافيا على النظر وهو يقول:

- ها هو صاحبك الجزار يذبح ذبيحة ميتة!

فالتفت ليجد عمادا إزاء المقهى بين شاب وامرأة تنفث دخان النرجيلة، وفي لمحة بوغت عماد بصوت يعرفه كما يعرف نفسه اللوامة، وقد آت من خلفه يويخه قائلا:

- إنها لكبيرة!

يقصد الصلاة المرفوع أذانها، وليست المرأة الشابة التي ذهلت كمن ترى تجاعيد لها في مرآة الدخان الذي تنفثه، وحين رجع الشيخ موافي وحده بعد انقضاء الصلاة نهض إليه عماد مبتسما، وظل على تبسمه حتى صافحه موافي، وقال يعتذر على طريقته:

- الشيخ أف وجدها فرصة سانحة ليتأفف منك!

ثم انطلقا إلى شقته التي يستأجرها له عماد بدرب الأتراك في بداية العام الدراسي. أما عن تشنيعه بمجالسة الفتيات السافرات في حرم الجامعة، فلم تكن سوى سيدة تخرجت من حقوق عين شمس، وتحضر للماجستير برسالة عن تطور الفكر السياسي الإسلامي وعلاقته بالنظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية الحديثة، ولم يكن لعماد بها معرفة سابقة إلا حين حضرت إلى مكتبة الكلية إذ يقرءا

داخلها، وقد ترمى إليه نقاشها الحاد مع أمين المكتبة الذي رفض دخولها سافرة الرأس، وأغلق عقله دون أعذارها جميعا، كجهلها بمراسم دخول المكتبة، أو التسامح معها لضيق الوقت وأهميته بالنسبة لها، أو قلة حيلتها في استدراك الأمر لبعد بيتها، أو إحضار الكتب المطلوبة لمطالعتها خارج المكتبة، أو حتى نزوله بنفسه إلى عميد الكلية للتأكد من أنه قد سمح لها بدخول المكتبة، فسنح لعماد مخرجا للسيدة، وقام يستأذن من دكتور الفقه المقارن في استضافتها بحجرة مكتبه إلى أن يحضر لها ساترا للشعر خلال بضع دقائق هي ما سيغفره ذهابا ومجيئا من وإلى بيته القريب من الجامعة، وفي واحدة من المرات القليلة التي حضرت فيها إلى المكتبة ألتق بها، و جالسة على حوض مشجر بحرم الجامعة، ومما ناقشاه معا بحثا مترجما يتعسف في فحواه حكم الإسلام في الحجب، وقد صارت عمادا بأن رأيها في الحجاب كما فرضه الإسلام أصوب من شعورها به، وأعجب بسعة اطلاعها إذ توافقه في أن أخبار البراقع كانت مستفيضة قبل الإسلام، وأن البرقع لم يذكر فيما أمر به القرآن من الحجاب، وراحت تستشهد بما ورد في سفر أشعيا من أن لله سيعاقب بنات صهيون على تبرجهن، والمباهاة برنين خلايلهن، كما استشهدت بقول بولس الرسول من أن النقاب شرف المرأة: "فإن كانت ترخي شعرها فهو مجدها. لأن الشعر بديل عن البرقع.."، واستشهد عماد بحجاب العزلة في المنازل، وخارج المنازل الذي فرضه اليونان على نساءهم، كما استشهد بقانون "أوبيا" الذي سنه الرومان وحرموا به مغالاة المرأة بالزينة حتى في البيوت، واتفقت معه على أن الحجاب في الإسلام لا معنى فيه للحبس، والحجر، والمهانة، أو عائق لحرية المرأة، وإنما

جعل من الحجاب خلقا مستحبا من الرجل والمرأة، لذلك خاطب المؤمنين، والمؤمنات بغض البصر، وطالب المؤمنات: " .. ولا يُبدن زينتهن إلا ما ظهر منها.. " لأن ما ظهر منها هو الأصل كما يقول صاحب الكشف، ولأن في ستره حرج عظيم على رأي جمهور الفقهاء. على أن الأنثى الباحثة قد راق لها أن تعبت برياء الموظف، وضعفه المستتر تحت المراسم؛ فكانت تترك طرحتها تسدل كاشفة شعرها، وتهمس لعماد:

- ألا يغض بصره عن شعري موظف العفة العتيد؟!

ثم لا ترفع الطرحة إلى شعرها إلا وهي أمامه تسترد بطاقتها الشخصية في برهة الخروج، كأنما تجهز بتمنعها على ما بقى فيه من عفة الوظيفة لا عفة الأخلاق. سألها عماد يوم عرفها بعد أن استرددت بطاقتها وخرجت بصحبته من المكتبة:

- أهي استرداد بطاقة أم استرداد حرية؟

فضحكت قائلة، ومشيرة للموظف:

- هو الذي خسر حريته!

فعاد يسألها:

- وماذا لو أخليت عليكما المكتبة، واغتصب منك ما يشتهي؟

أيكون قد ترك لك حريتك، أم يكون قد استرد حريته التي سلبتها منه بنظرته نهمة إلى شعرك؟

قالت وقد راق بأنوثتها الضحك:

- الخلوة سريعة المختالين!

فأمن على نكتتها وقال:

- أي نعم! هو الاختيال ثمرة الخلوة!

أما عن تشنيعه بالإمام الملحد فهو يقصد "بردييف" الفيلسوف الوجودي الروسي الذي قرعاً في المدرج عنوان كتابه "الحلم والواقع"، وكان عماد قد طلبه من عم الشيمي، ثم صعد به المدرج ليتناوله من يديه طالب قوقازي يدرس الإفتاء، ومن حين إلى آخر يحضر مع صديقه الشيخ موافي لمتابعة محاضرات أصول الفقه. قلب صفحاته قائلاً:

– أنا قرأت هذا الكتاب، وغيره من كتب بردييف وخاصة كتابه الذي يعد ثورة على سلطة الكنيسة، وسلطة الدولة: "دولة الروح ودولة قيصر"!

وما إن قال:

– بردييف ألزم الله بالإنسان كما ألزم الأنبياء الإنسان بالله! وإذا بحامل السواك يتناول الكتاب من يده، ونظر في العنوان يتهينم بالكلمات:

– كاتب روسي شيوعي ملحد بين طلاب الشريعة!

فضحك الطالب القوقازي أو الحج مراد قائلاً:

– بل! هو كاتب إنساني فذ صوفي!

وقال عماد يبسر الفهم على زميله المدعي:

– إنساني لأنه ينصف الإنسان من طغيان الجماعة، وفذ لأن حريته هي حرية الضمير لا حرية العقل والرأي، وصوفي لأنه يصل إلى الله بقلب لا سلطان عليه من رجال الدين!

وتناول الشيخ موافي الكتاب من يد حامل السواك، ونظر إليه يحرضه على الضحك ويقول:

– كله عند الجماعة سواك لا معجون أسنان!

وفطن الحج مراد لتلميح الشيخ موافي فردد ما يقوله برديف في كل جماعة:

- الجماعة جمهرة تهبط بالفرد والرابطة الروحية قيم ترتفع بالشخصية!

فجاره عماد مرددا كلام الفيلسوف المتصوف:

- أدعياء الدين جعلوا من إرادة الإنسان مطية يركبها الله، أو يركبها الشيطان!

بينما تفيقه حامل السواك بعنوان الكتاب قائلا:

- حلم وواقع! نوم الملحد كفر!

فقال الشيخ موافي كأنما يسوقه إلى النوم عساه يرى الزاهدين في المُلْك:

- الخليفة عمر ابن عبد العزيز جاعني في المنام وأعطاني عنقودا من الغنبل!

فجحظت عين جحا كمن يريد نصيبه من العنقود، ولكن الضحك أرتج به والحفيد يسأل موافيا:

- ألم يقول لك الخليفة الزاهد أعصره لذة للشاربين؟

ويظهر أن حامل السواك قد سنحت له عبارة عماد التي وصف بها علاقته الحميمة بالشيخ موافي في شفته بدرب الأتراك؛ إذ يسمعه يقول: أنا من يُعرف بقرينه الشيخ موافي لأننا فقهيًا "صديقان بالرضاعة"! فقال حامل السواك قاصدا الثلاثة: أف، والحفيد، والجزار:

- وليس على الأصدقاء بالرضاعة حرجا!

أما عن تشنيعه بالطرد من الإسماعيلية، ففي واحدة من حملات استقطاب الأشبال، أو التبشير الإخوانية، ورقيق الأطفال كما يصفها

عماد، كان حاتم زوج ابنة خاله قد دعاه للصلاة بمسجد الدويدار، أو بالأحرى التعرف على مجاهد الاستقطاب والتبشير، وهو شاب دون الثلاثين. بشوش صامت وسيم. صحيح اللغة، وفي مجمله منسجم في صفاته النفسية ووقار ذقنه، وزيه الأزهرى. سأله عماد قبل إقامة صلاة العشاء:

- أنت أزهرى؟

فأمن باسمًا على السؤال المتحفز:

- أزهرى مثلك، ومتخرج من كلية الدعوى!

قال عماد باستنكار متعمد:

- ما للإخوان والدعوة!؟

فسأله بشوشًا:

- ألا ترى الإخوان دعاة؟

قال يصارحه:

- المميز منهم داعية أطفال وإلا فهي الخطابة المثيرة لغرائز

القطيع!

قال بنبرة الواعظ:

- تربية النشء أصلح لنهضة الأمم!

فاندفع يقول:

- هتلر لم يجد سوى الأطفال ليربيهم على عقيدة عنصرية بأن

ألمانيا فوق الجميع حتى داس الجميع بأقدامهم على ألمانيا، ولولا أن

هذا كان شعار النازية لجهر الإخوان بأن الجماعة فوق الوطن!

فضحك الداعية الوقور، وقال يصانعه بالقسم:

- والله! إنك لفتى من فتیان الشريعة!

تذكر عماد فتیان الإخوان في المدرج، وردد عبارته لهم إذ يلهجون
بفتیان أهل الكهف:

- لا كهوف في الإسلام، ولا كلاب بوسيد دولة الإخوان!
وبحماية العشيرة الإخوانية أزر حاتم حميمه، وقال لعماد باقتضاب
النذير:

- اتقي الله.. اتقي الله!

فضحك عماد قائلاً بنفس الاقتضاب:

- وأنت أفهم الله.. أفهم الله!

وشاركه الشاب الضحك، ونهضوا للصلاة وهو يقول له:

- إن شاء الله ستأتي إلينا في الإسماعيلية!

ولم يمكث في الإسماعيلية إلا ساعة من ظهيرة قضاها في بيت
كجحر النمل، أو وكر للذقون، ومنها ذقن صفراء مرسله في وجه شيخ
عبوس لم يصفاحه، وإنما وقف بباب الحجرة يتهمه في أستاذة العقاد،
ويستنكر قراءة مقالاته في مدرج الشريعة، ووصفه لهم بخوان
المسلمين، وخدام الصهيونية، ويثبت عليهم الغرور، والطمع، والشر
في جميع بواعثهم، وينكر عليهم أن يكون الإيمان هو ما يحرك فيهم
من بواعث، ثم تحفظ في نفسه على الحمار الذي يحمل الأسفار
والمقالات، وقال يعظه:

- لا تكن كالذي يحمل الأسفار إلى سوق الحمير!

فنظر عماد إلى ذقنه الصفراء قائلة:

- أستاذنا العقاد وصف هتلى بأنه عقل مخبول يومض بالذكاء
ولكنه ذكاء في قبضة شيطان، وهكذا كل عقل مخبول نجاحه وميض
ما يلبث أن ينطفئ!

فولاه ذو الذقن الصفراء دبره ليخرج عماد من البيت باحثاً عن نور الشمس، وفي سيارة العودة إلى القاهرة ظل حاتم صامتاً مذهولاً في وجه عماد الذي ذهول مكروباً بمصير ابنة خاله وأولادها مع زوج نشأ على عنصرية الإخوان، ورجعت به الذاكرة إلى ليلة زفافهما وهو يقود لهما سيارة الزفة، ويمروها على قسم الدرب الأحمر التفت العريس إلى بناية القسم، وقال متحسراً: هذا القسم كان مقر الإخوان الذي احرقوه!

أما عن تشنيعه بالصعود إلى جبل المقطم فهو يعلم كما يعلم زملاؤه ما كان يعتقد القروي شو، وطالما تحدث به في المدرج من أن شعوب العرب بعد أن يصعق الإعلام عقولهم كعبيد لمسيخ دجال يقول لهم أنا الثورة؛ فحينئذ سينتظر العرب المخلص كما ينتظره اليهود، والمسيحيون، والمهديون.. فكان عماد يقول ساخراً:

- العرب سينتظرون المخلص ليخلصهم من العرب!
ويقول:

- الفتنة عند العرب كجحر الكافر مخبأ من الله لا يطلب فيه النجاة وإنما يطلب الدغ!

وفي مرة قال على أثر حديث شو:

- العرب يتوارثون الفتنة كما تتوارث الأجيال الصفات الوراثية المتنجية!

فتفهيق حامل السواك قائلاً:

- الخير في أمتي إلى يوم القيامة!

فسأله عماد:

- أو تحسب أن أمة من الأمم لا يبقى فيها نسبة من الخير!

فهول حامل السواك على طلاب الشريعة بصيحته الخطابية:

- لا خلاص لكم إلا بحكم الله!

فجذبت عينان جحا في مالك، وقال:

- الأمريكي الفصيح صعد بنا جبل المقطم ليرينا سحابة الليل التي

اختفى تحتها الحاكم بأمر الله!

فضحكوا جميعا إلى أن قال عماد متذكرا السحاب الممطر الذي

ساقه الملك "رعد" إلى بيت الشيخ عز العرب:

- للعرب سحب يظنونها ممطرة لهم وفيها عذاب الغرب الأمريكي!

ثم دعاهم بدعوة مالك للصعود إلى جبل المقطم، ولكن للاعتبار

باختفاء الحاكم بأمر الله وليس انتظار نزوله من السماء!

أما عن تشنيعه بفرعون منامه فهو يقصد الرئيس مبارك الذي رآه

عماد برفقة الدكتور أسامة الباز داخل سيارة تطوي كوبري شارع

الأزهر، وقد جعل الدكتور يقول للرئيس: لا يطول العهد بحكم مهما

كانت انجازاته ونبل غايته إلا وسأمة الناس، وتسرب الملل إلى

نفوسهم، وكثر أعدائه فيقول له الرئيس: استقرار مصر استقرار

للغرب، وللمنطقة المبتوث في تربتها بذور الفوضى، ولو لا ذلك ما

بقيت في حكم مصر وما استبقاني العرب! فيقول الباز: شبهة التوريث

هي راية الحرب التي سيرفعها كل من خرج عليك! فقال الرئيس: أنتم

من تذكرون التوريث! ويمتد الكوبري بالسيارة حتى مسجد أبو الذهب،

ويخرج الرئيس منها وحده ليتفقد على رصيف المسجد كتبا مبعثرة

منقلب عليها حواملها، وفي لحظة تالية من الرؤيا يرى عماد الرئيس

ونفير من ذوي اللحى والصفائر يهاجمونه بسكاكين تبرق في ظلام

دهليز داخل المسجد. كلهم كان يستमित في طعنه وكأن في قتله

نجاتهم، ويحس عماد بخسة الطغاة، وينقبض منها شعوره، ولكنه أبدا لم ير قتله، وإنما رأى الرئيس يتطلع ببصره إلى مسجد الحسين، وإذا بالسيدة حرمه داخله وقد طفقت مذهولة تبحث عن ابنها، وتسال عنهما زائري المقام، ويرفع لها رجل رأسه فتجده الدكتور الباز يقول: موت حفيديكما هو مفارقة حياتكما، أو هو ابتلاؤها الذي أرد الرئيس أن يختم به حياته في حكم مصر لولا أنك أردت أن تبدئي بموت الحفيد حياة أخرى في حكم مصر!

24

رجع طارق من العمرة وهو موقن أن السفر إليها كان فقدا لها، وأن الإقامة بمصر اغتراب عن حبه، وعن قلبه، وعن نفسه، ولكن الخيال الذي لمس منها الحقيقة وهي شعور في الزمن لا يزال يخفق بجناحيه خفق القلب، ودون أن يشعر هبط في أعماقه حيث قبر الغيرة كأنه الخلاص من الحب، وعكف على حديثهما الأول يقرءاه، ويعيد قراءته لينتحل منه الشك في عذرية حبها، ويقبر خياله في جبال قربتها، أو يصعقه ببرقها قبل أن يهبط إلى مروجها الفيحاء، ولكي ينتحل عذرا لغيابه أرسل إليها حديثهما الأول لعلها تعكف عليه كما عكف، وترمي إليه أو إلى نفسها طوق الشك إذ تقرءا منه:

- شكرا لقبولك طلب الصداقة!

- هذا شكر مردود لك أنت صاحبتة.. فشكرا لصداقتك!

- بصراحة أنا أتابع ما تكتبه في "جروب" عن العشق والهوى..

- وما رأيك؟

- لا! لست أنا من يقيم مبدعا مثلك.. لكن أسلوبك في الكتابة رائع!
- بمثل هذا الذوق يقيم المبدعين، وأنت أيضا رائعة بذوقك!
- تسلم!
- أنت من القاهرة؟
- لا.
- من أين؟
- قرية بابها. مدينة جبلية في جنوب السعودية..
- يا ليتك صمت!
- آسفة!
- ولماذا تبخلين علي بسؤل أحب الإجابة عليه!
- أنت قلت: " يا ليتك صمت "!
- نعم! قلت ذلك ولكنها ليت المستحيلة. ليت التي سافرت بي إلى دياركم ما إن نطقت باسمها!
- إذن هي نفسها ليت المستحيلة التي سافرت بي إلى دياركم أيضا. ليت المستحيلة هذه أنا اعرفها جيدا!
- يظهر أننا على موعد!
- لا اعلم! كل ما اعرفه الآن أن "ليت المستحيلة" أوجعتني كثيرا!
- أجل! ولكن في القلب فرحة تأتي، وتذهب كأنها سراب الماء..
- من أنت يا ابنة أبها؟
- فلانة..
- إني أسألك من أنت لا ما اسمك؟!

- هنا.. وفي عانتي، ومع أصدقائي وأقاربي يطلقون علي " عذراء الحب " لا اعرف عن نفسي أكثر من ذلك!
- هذا يكفي الآن أما بعد لحظة فلن أصبر عليك!
- "لن أصبر عليك". لماذا؟!
- لأنني طماع.. معك أنت فقط، وإن أردت الحقيقة مع أهل أبها!
- تعرف أبها يعني؟
- نعم! نعم.. أعرفها وتعرفني، وأحبها وتحبني!
- تُحب بها! أقسم، إني أريد أن احترق مع مدينتي!
- عذراء الحب!
- من ذا يغتالني، ويغتالها؟!
- عذراء الحب!
- نعم!
- اهديني من فضلك!
- أحاول منذ أربعة أشهر أن أهدأ!
- ثم؟
- تحترق روحي أكثر!
- لم؟
- كل ما أرجوه هو الرحيل!
- تكلمي.. لم الرحيل؟
- هنا.. هو هنا يسكن!
- هنا! أين؟
- في الروح، والقلب، والمدينة!
- المدينة التي تريدين حرقها؟!

- أو نحترق معا!
- كـ "روما"!
- إلى أن نستحيل معا رمادا!
- تكلمي.. لم؟
- أخبرته منذ قليل أن يرحل من هنا، وأن يعود إلى دياركم، وأن يبتعد عني حتى لا أحرقه وسط المدينة! أخبرته: أن اذهب إليها ولا تعود إلي مهما فعل بك الحنين!
- إذن هو الحب؟
- نعم هو!
- وماذا لو قلت لك أنا قلبي يسكن في دياركم التي تريدين حرقها؟
- حقا؟!
- نعم! هو هناك منذ أن غابت تلك الروح.. هي كلمة الحب، أو وحيه.. كلمة قد حملت أمانتها ولا تزال!
- حسنا! سوف استثنى هذا القلب من الحرق إن كان يسكن هذه المدينة!
- عذراء الحب!
- نعم.
- من أنت؟
- أقسم إنني لا أعرف عن نفسي سوى أنني عذراء الحب كما يطلق على أقربائي وصديقاتي!
- منذ متى تعرفيني؟
- أنا لا أعرفك!
- ألم تقرني لي؟

- طبعاً! قرأت لك في "الجروب". أحياناً أصور ما تكتبه، وأبعثه إلى بنات عمتي.. ذكرتني سأحرق كتبتي، ومكتبتي!
- وماذا في مكتبتك يستحق الحرق؟
- هو اندس بين الرفوف، وسكن الأوراق يختلس النظر إلى وأنا ابكيه كل ليلة؛ لذا سأحرقها!
- أجل أحرّقها، ولكن ماذا تكتبين؟
- أنا لا أعتبرها كتابة، ولا أرى نفسي كاتبة لكن اكتب أنه غبي، وأحمق، وأني أفقده كثيراً!
- وأين هو الآن؟
- معها.
- مع من؟
- خطيبته!
- وماذا تفعلين أنت بحبه؟
- هو لا يحبها.. الأمر معقد! كيف لي أن أشرحه؟
- لا تصديقي؟
- ماذا تعني بـ "لا تصديقي"؟
- من بشارات الحب الكاذب انتحال الأعذار!
- لا! لا تصدمني أرجوك!
- ولم صدمك هو إن كنت حبيبته؟
- مُجبر!
- لا تصديقي!
- تقول لا تصديقي قبل أن أخبرك عن السبب لربما صدقته مثلي!
- هات ما عندك أو ما عنده من أعذار!

- بمجرد أن خفق قلبه، وأحبني أخبر والدته، وطلب منها أن تتعرف على وحدث.. إصراره على أن اتصل بوالدته كان بالنسبة لي كافيا حتى احترمه أكثر، وأصدقته.. علاقته الجميلة بوالدته أصلا كانت مصدر راحة لي.

- ثم؟

- وبدأت الحكاية!

- أنا لم أسمع إلا النهاية!

- حين علم أهله بقرار زواجه من فتاة ليست من بلده قاموا بتهديده.. لديهم وكالة عامة بكل أمواله فهددوه، واستمر الخلاف بينه وبين عائلته.. والدته تعبت..

- عذراء الحب!

- نعم

- أو تسمعين مني الحقيقة؟

- هل أكمل أم اكتفيت؟

- نعم! أحب أن تكلمي تفضلي!

- تعبت والدته، وحين علمت بتعبها أخبرته أن اختر أهلك لا أحب أن يتضرر أحدا بسببي، فأرسل لي رسالة مفادها أن لا شيء ينسيني إياك! والدتي ليست بخير، وأهلي يحملوني كافة المسؤولية.. رسالة طويلة يطلب فيها السماح والعفو، وإن ما بيده هذا الخذلان الكبير! ورحل لكنه لا يتركني وشأني!

- عذراء الحب! من بشائر الحب الكاذب انتحال الأعذار.. أنت

معي؟

- معك!

- وهل تحبين أن تكوني معي من الآن فصاعدا؟
- نعم!
- حقيقة أم مجرد رد على سؤال؟
- أكون معك كيف؟ أنت اليوم كنت معي. تقاسمت معي ألمي،
- وحزني!
- المهم أن حبيبك المزعوم قفل معك الطريق!
- قفل كل الطرق!
- أصغي إلي، فلا وقت نضيعه مع من يتقنون فن الأعذار، الست
- معي؟
- معك!
- عندك استعداد نغلق طريق الأعذار على أصحابه؟
- يا ليت!
- مهم جدا الصدق مع النفس. لا تضيعي وقتك، ولا تهدري دقائق
- قلبك مع هارب منك!
- والله معك حق! أفكر في أشياء كثيرة الآن.. واجد أن معك حقا!
- إن شاء الله نتكلم غدا.
- إن شاء الله.
- مصحوبة بالسلامة!
- في أمان الله!
- ودعها طارق ليختلي بنفسه، أو يختلي بعذراء الحب يناجيها،
- ويسألها وهو يشاهد روحها تنشق عنها جبال قريتها:
- من أين أنت؟
- فتقول:

- قرية بتلك المدينة الجبلية!
فيذكرها بخيال الحب، وحقيقته التي تطير بجناحيه:
- إذن نحن على موعد؟!
فتنكر على الحب خياله الذي جاء بها لتطلب صداقته:
- لا اعلم!
فيقول وخيال الحب يخفق بجناحيه لها:
- أجل! ولكن في القلب فرحة تأتي، وتذهب كأنها سراب الماء!
ويعيد عليها سأل الظمان:
- من أنت؟
فتغويه بالحب:
- في قريتي يطلقون علي: "عذراء الحب!"
فيغويها بالغيرة، ويلمح لها بذكرى للحب قديمة في ديارها،
ويستدركها حتى تسأله هي:
- تعرف أبها يعني؟
فيجيب بلسانها لا لسانه:
- نعم! نعم.. أعرفها وتعرفني، وأحبها وتحبني!
فتسأل قلبها ولا تسأله:
- تُحب أبها؟!
ثم تصرخ في قلبه لا قلبها:
- اقسم، إنني أريد أن احترق مع مدينتي! من ذا يغتالني
ويغتالها؟! متى؟ متى الرحيل عنك يا مدينتي؟

وفي المساء التالي يسألها:

- ما أخبار قلبك؟

- موجوع!

- أنت من يوجعه!

- أنا من يوجع قلبي؟ والله ادعي كل ليلة أن ينتهي هذا الوجع!

- سينتهي إذا ما واجهتي الحقيقة. هو اختار الانسحاب، أو

المناورة!

- "إن كان ودك بالرحيل ألف طيارة وقائد كل أبوهم لك دليل". هذا

بيت شعر كتبه ابنة عمتي يعجبني كثيرا!

ثم انعطفت تسأله عن حبيبته في أبها:

- لم تنتظر في القاهرة ولا تهاجر إليها ومعك قلبك!

فيرميها بسهمها:

- لا! قلبي هو من يهاجر وحده إليكم وإليها!

فتصيبها الرمية متوجعة:

- يا لله! هكذا أنتم الرجال!

فيرميها ثانية:

- حبنا كان وليد كلمة. كلمة قلنها، ولم يقلها أحد سوانا. هي

نفسها كلمة!

فتنشد المزيد من الرميات:

- أما كان من الأفضل أن تكون أكثر من كلمة؟! أن تكون حديثا

أبديا، و حقيقيا ليكون معكما كل يوم؟

فيطعن قلبه:

- لا! أنها كلمة ينطق بها القلب، ثم تفتح أبواب ولا تزال كلمة تقال. ألسنت معي أنها كلمة تقال للقلب فيُفتح على أسرار لا بداية لها ولا نهاية؟ هكذا يبدأ الحب بدقة قلب تولد حيث تولد الأمواج، ولكنها لا تنتهي أبداً إلى شاطئ كما تنتهي الأمواج. إنها تبدأ في العمق. قلبي هو المهاجر إلى حيث ولد، وسوف يعود حتماً إلى هناك. أثقلت عليك، ولكنه الحنين، والشوق، والهجرة هل أنت من المهاجرين؟ أين أنت؟ فتقول كأنها السهم المارق في هوة العشق:

- أفكر في الهجرة عني؟!

فيرحمها:

- الله! جميلة هجرتك هذه!

ثم لا يرحمها:

- ما رأيك في ذلك الحنين الذي يهاجر بي إليكم وإليها؟

فتتوجع بها روعة العشق:

- رائع! أنت تفاجئني! هل يعقل أن هناك رجل يحب بصدق؟

فيغني لها:

- سؤال غير منطقي يا سيدتي، الرجل يحب أولاً ثم تليه المرأة.

الرجل هو من علم المرأة كيف تحب. هو الذي بدأ بالغناء!

فتصم أذنها لا قلبها عن غناؤه:

- يعلمها كيف تحب ثم يرحل.. هكذا أغلب الرجال!

- أحياناً.. ولكن لا بد من..

- لا! دائماً!

- لا أحياناً ولكن لا بد من بداية هو صاحبها!

ثم ينادي عليها ليلحق بها وهي تهاجر عن نفسها:

- عذراء الحب!

- نعم!

فيلمس قلبها:

- لو نظرت في قلبي ستجدين ربيعا للحب.. معذرة! أنه الحنين
والشوق ودقات للقلب تخفق خفقان الأمواج المتلاحقة. القلب يتأهب
للهجرة ولكنه سيصمت رفقا بك وليس بي أو بها. ماذا عندك يا
عذراء؟

- توجعت فقط! هذا ليس بجديد. أنا لا أرفق بنفسي، بل إني
أحملها فوق طاقتها!

- لا غرابة في أن تحب عذراء الحب أحمقا!

- إنه كان كاللص يسرق!

- لا والله، لم يسرق أنت التي أعطيته!

- حسنا فليرحل! لا أريد الحديث عنه الآن!

- ولن تحتاجي إلى الحديث عنه بعد الآن. أليست معي؟ قلولي

نعم!

- نعم! وبكل تأكيد أنا معك!

وفي المساء التالي تشتكيه قلبها قائلة:

- ليلة البارحة كانت قاسية جدا على قلبي!

- ما أقساك أنت عليه.. ما الذي حدث؟

- نمت، وأول ما استيقظت قرأت القرآن ثم نمت!

- هل هذه عبارتك على صفحة الفيس: أكتب لأن الحياة أصعب

من أن تعش دون كتابتها؟

- لا! الأصعبُ من غيابك قلبي الذي لا يكفُ عن السؤال، وعقلي الذي عجز أن يلقى إجابة! هذه أنا كتبتها وجميع تعليقاتي على "البوست" أنا من أكتبه.. أميل للقراءة أكثر.. وأكتب، وأغلب ما أكتبه هنا في طيات دفاتري!

- أريد عبارة واحدة كاذبة قالها لك في الحب، هل تذكرين له شيئا من ذلك الكذب؟

- لو أنني أنسى كذبة واحدة فقط: "مش هتخلى عنك أبدا" قالها بطريقة جعلتني أصدقها! وهذه كذبة أخرى: اقسم لا يوجد في قلبي غيرك، ولن يكون! والآن هو ليل نهار معها، وهذه الثالثة: أنا سأذهب إلى مصر (لأتجنز) وهنا يقصد زواجه، وأراه الآن يكتب القصائد على صفحته لها، ولا يكتفي بل ينشر صورها!

- يا ابنة أبها، من ينشر صور امرأة يقول فيها قصائد حب لا يحب فيها إلا النشر! أرجوك لا تضيعي وقت قلبك في حلبة المنافسة بينك وبين صور تنشر على هواء الفيس! لا تضيعي وقتك ولا وقت قلبك. أنت معبرة جيدة عما في نفسك. أنت ممثلة حبا هذا ما في الأمر، وقد وجدت المتنافس مع ذلك المدعو حبيباً. عديني ألا تدخلين حلبة المنافسة، ولا تقعي في هذا الفخ الذي تنصيبينه لنفسك. في يوم لن يطول قدمه سوف تحررين قلبك، وتسلميه من يستحق دقات نبضاته. أحب أن أسمعك!

- أوعدك! لن أقع في هذا الفخ، ولن ادخل نفسي في هذه الحلبة!

- وأريد أن أقرأ لك عبارات هي صورة من نفسك وليست صورة عن شخص خيالي.. هل أزعجتك؟

- لا! بالعكس أنت تُثير لي طريق مظلّم على الأقل أنا أعتقده
مظلماً!

- سوف نقول ما في قلبنا لمن يستحقه. أليس كذلك؟
- أكيد تعلمت كثيراً من هذا الدرس. أنا فتاة قليلة الخبرة،
والتجربة، وبعد الآن أنا متخمة بالتجربة، وقلبي سيكون لي!
- أنت تعجلت الحب. مثلك تتعجل ولكنها لا تضحى بقلبه عبثاً. أنا
على ثقة من أنك تملكين قلباً حياً واعياً لن يضل سبيله أبداً!
- أشكرك! أشكرك من كل قلبي!

وفي المساء التالي يسألها:
- ما أخبار قلبك؟
- الآن هادئ!
- على هواه القديم؟
- بصراحة ليس على هواه أنا هديته!
- لا! هو اصدق منك لقد حسم أمره من أول عذر تحجج بها
صاحبك، ولكنك كنت تشوشين عليه بأوهام الأنوثة، كالغرور، وحلبة
المنافسة، وعدم الثقة في النفس، نحن من نجبر القلب على الضلال!
- أنت قلت لي جملة وكانت حقيقية جداً. صدقت!
- وما هي؟

- أنت ضحية نفسك، واني أخاف عليك من الحب وليس المحبوب.
معك حق أنا أثقل على قلبي احمله مالا يحتمل!

- والأصح أنك كاتبة تغتلع بمشاعرها الحبيسة المتدفقة!
- أكتب كي أفرغ شيئاً مما بداخلي، والله! أكتب كي لا أجن!
- أنت موهوبة لك عبارات لازعة وفي غاية العذوبة!

- أشكرك!

- ولعلي أنتظر منك الكثير، وعندي المزيد إذا ما وعدتني أن تتفرغي للكتابة!

- أعذك بكل سرور! نحن بمنطقة جبلية. جبالنا عالية جدا يغطيها الضباب.. أشعر وكأن الصبح كله لي كأنه خُلق من أجلي وحدي.. هذا هو سر الصباح. لطفا لا تخبر أية فتاة بهذا السر فتأخذه مني! - وهكذا يكون الشفاء من قلب نقي فهنيئا لك بذاك القلب، ولكن احذري أن تسلبيه نقاءه!

- أشكرك!

- وليكن شكرك لقلبك فالنقاء هو سر ذلك القلب!

ثم قالت تواجه الحقيقة التي أضمرت:

- كنت انتظر أن يسقط عنه قناعه الأسود، ويظهر على حقيقته. كنت انتظره، هو بنفسه يسقط هذا القناع الملائكي. كنت انتظر أن يهشم ذاكرتي، وينهي كل شيء له بقلبي تماما.. الحمد لله اسقط قناعه بنفسه. ليلة البارحة لم يبقى منه شيء في الذاكرة أو الحنين أو العتاب. صورته تعرت تماما، وهو بنفسه من فعل ذلك. درس قاس جدا، وتعبت كثيرا حتى أصل بنفسني لهذه الحقيقة. بقدر وجعي الآن اشعر بالفرح لأنني لن اجلد ذاتي بسببه بعد الآن. غدره، كذبه، خيانتة، لؤمه، طمعه، أنانيته، صورته الملائكية المزيفة، تمثيله المتقن، كل هذه الحقائق لتذهب معه للجحيم!

- الآتسة العزيزة.. أخشى ما أخشاه عليك أن تكوني عدوة لقلبك. أنت كمن يحقن قلبك بالسوموم. من فضلك دع قلبك ونقائه فهو ليس في حاجة إلى أوهام حبك ولا هو في حاجة إلى ملائكية غيرك!

- صدقت!

- أرجو ألا تعيد الكرة.. لماذا لا تصديقين انك من صنعتي هذا
المحبيب من أوهامك وليس من وشائج قلبك؟! كلما أحسست بالراحة
والاطمئنان عليك أقصيتني عنك لماذا؟ نعم لماذا؟

- أعدك والله لن أعيد الكرة!

- لو تعرفين بما خفق قلبي وأنا أقرأ كلمة أعدك؟

- لم أقصيك عني.. فقط لم أرد أن أحملك وجعي، وأنا والله، أعدك
حقا لن أعيد الكرة!

- يا ابنة أبها، لديركم حرمة من الحب، وحرمة من الوفاء، ولعلها
حرمات من شعائر القلوب!

- لديارنا نقاء وصفاء كاد يلوثه مجرم مثله!

- لا تذكره بينا، ولا بينك وبينك قلبك. أرجوك لو كان فيه خيرا
لساعتك في أمره، ولكنني أفهم ما لا تفهمينه أنا لذي من مثله
الكثيرون. أفهمي ما يقوله صديق يحبك ويحب لك الخير، وليس بينه
وبينك إلا الرجولة والحق. مفهوم يا بنية!

- مفهوم! لن أذكره بيني وبينك، ولا بيني وبين قلبي، ولا بيني
وبين احد!

- هل أثقلت عليك؟

- بالعكس!

- يا ريت يكون كلمنا خفيف عليك كما نقول في مصر!

- خفيف، وواقعي جدا!

- أنا أخاطب نقاء قلبك ولا أخاطبك فحسب، ثم ماذا حدث البارحة؟

- أتعلم من طلب مني المساعدة؟

- لعله صاحبك؟

- نعم هو!

- كيف؟

- قد قال لي من قبل انه مرتاح ماديا وانه يفكر في عمل مشروع

كبير حين عودته لمصر، ثم بعث رسالة أن الأمور تسوء في عمله،
وأnhem قد قطعوا عنه راتبه، وليس هذا فحسب فقد ترك مكتبه لبضع
دقائق فسرقت مبلغ.. يقول أن المصائب تنزل على رأسه ولا يعلم
السبب!

- ثم

- ثم طلب مبلغا من المال ولأنني لا امتلك كل المال الذي طلبه

اعتذرت منه بكل أدب واحترام ؛ لأجده بعد ذلك يبعث رسائل ويقول
كلما ما توقعت صدور منه، مثل: كيف لا تمتلكين مبلغا تافها زي ده؟
تطاول كثيرا في الكلام.. استطيع أن أقول أن ليلة البارحة كانت الليلة
الوحيدة التي كان فيها أقرب لحقيقته بعيدا عن التمثيل والتصنع!

- وأنا ما استدركت للسؤال عنه إلا لثقتي في انه سيؤدي بي إلى

حقيقة ذلك النطع، أو النذل الكبير الذي شملت نذالته بحاسة الرجولة.
لقد تعمد العبث بك، واستغلالك من أول لحظة، والله! كان القلب
يرتجف خوفا عليك من هذا النذل، وقد لاحظت بنفسك نفوري من
سيرته وذكره، بل نفرت من أن تذكره بينك وبينني، أو بينك وبين
قلبك!

- وهو والله كذلك نذل كبير!

- يا لهفت قلبي عليك يا بنية، كنت كمن يرى الخنجر في يد من

يريد طعنك، وقد خفت أن تسيء الظن بي أو لا تتحملين نفوري!

- حتى وإن أثقلت فهي الحقيقة طعني بها، وما كنت أستطيع أن أكمل قرأت رسائله. كنت امسحها دون قرأتها. تساقط أمامي تماما!
- ألم أقول لك انك كمن يحقن نفسه بالسموم!
- نعم قلت! استعدت قلبي وهذا يجعلني سعيدة جدا الآن!
- أن صدقتي مع قلبك فعلمي أن ما أرخصه من حبيب، وما أرخص كلماته في الغرام!
- ليلة البارحة تذكرت كثيرا عبارتك: من بشائر الحب الكاذب انتحال الأعداء. انه الحب الكاذب يا سيدتي النبيلة!
- يا ليتك تسمعين دقائق قلبي لقلبك!
- قلبي سمع صدق كلامك معي سمع هذا الخوف عليه!
- هذا النذل لا يعرف أن حياتك قد دخلها من سيجرس قلبك. كان يظن، ولا يزال أنك وحدك تحقنين قلبك بسمومه غير مختارة.. نعم أنا أريد أن أكد وجودك الذي ظن انه سيأخذه منك أو يغيبك عنه!
- أود أن أشكرك كثيرا من هنا من جبال أبها حتى القاهرة عندك. بفضل الله ثم بفضلك رأيته على حقيقته. انتهى لوم نفسي لقلبي. بفضلك عاد هذا القلب، وبفضلك لن أبث فيه أية سموم!
- إياك وخداع قلبك!
- أعدك أبها الصادق لن يتكرر ذلك أبدا.. لن أضحي بقلبي من جديد. لقد استعدت قلبي!
- أرجوا ألا يكون بينك وبين قلبي غادر مثله!
- لا.. لن يكون بيني وبين قلبي غادرا مثله!

- ما رأيك في هذه العبارة أليست بلسم يا بنية، لو تفهمين أو
تشعرين بها. هي من وحي الغدر! أو من الوحي الذي بين وبين قلبك.
هل يخفق قلبك الآن؟

- يخفق بسعادة كبيرة!

- وسوف يخفق دائما صدقا وإلهاما.. لا تنسي أول يوم تخاطبنا
فيه، لا تنسيه يا بنية!

- وكيف أنساه؟! عرفتني وأنا أريد أن احرق مدينتي، والآن
وبفضل من الله ثم منك أشعر أنني أريد أن أملئها فرحا كالذي يملئ
قلبي!

- هنيئا لي ولك ولقلبيننا!!

- وللمدينة التي هي هجرتك!

- هي مثابة للقلب يا بنية، مثابة ومولد وممات، وربما التقت
روحك بروح هنا وقلب يشبه قلبك!

- كما أنا سعيدة بك أيها الصادق! سعيدة جدا. أود لو اخرج إلى
البلدة واغني من فرط سعادتي بك وبقلمي العائد!

- ولكن احذري من الإفراط في الحركة!

- أريد الذهاب إلى أعلى قمة جبل في أوربا!

- إذن حرك جناحيك ولكن احذري القمة الباردة!

- الفتاة في ديارنا مقيدة منتوفة الريش مقصوصة الجناحين!

- ربما يا ابنة أبها!

- وترقبت المساء التالي لتسأله:

- ألا تخبرني من أنت؟

قال باسم:

- قد سُئلت ذلك من قبل فوجدتني أقول لسانلي: أنا من صنع قدره. فما رأيك؟

- كيف صنعت قدرك؟

- بالرضا عنه وعني!

- البشر لا يصنعون أقدارهم.. لكنهم يستطيعوا أن يصنعوا حظوظهم. معذرة! ممتاز ما قلت: بالرضا عنه وعني!

- فأنا وهو لا يظلم احدا الأخر قد اجهل بعض مراميه، ولكني لا أتعجله الحكمة. أنا صبور مثله، واعلم أن الحكمة في المراس والدربة والرضا، والجميل في القدر أن حكمته هي حكمتي دون زيادة أو نقصان.. أنا طبيعتي من طبيعة قدري.. فما رأيك؟

- رأيي، انه كم جميل أن يكون الإنسان راضيا بقدره؟ وكم جميل أن تكون بهذا الصبر؟

- أجل! هو الرضا والصبر. أنا وقدري دائما على موعد!

- كيف لك أن تكون بكل هذا الرضا والحكمة؟

- المواجهة، أنا لا اهرب فطائري أبدا معلق برقبتي!

- إلا تقلقك المواجهة؟

- كيف وأنا التقى بها لقائي بنفسي؟ أين أنت؟

- معك! أفكر.. أنا أخاف المواجهة!

- لهذا التقينا على موعد، ولكني أسألك أو يفرق معك لقائنا من

عدمه؟

- يفرق طبعاً!

- فيم؟

- لا اعرف! لكني اعتقد اني اُتعرّف على شخص مفيد. يعني مختلفاً!

- وربما قد نرى فيه بعض ملامحنا.. ما أخبار قلبك؟

- لسه هادئ!

- ما رأيك في هذا السؤال المباغت؟

- كل مرة تسألني ما أخبار قلبك ينقبض! رأيي انه مباغت مثل ما

قلت!

- كان هذا اختباراً، ولكني لا أظن انك قد فشلت فيهِ!

- كيف اختبار؟ وكيف لا تظن اني فشلت فيه؟!

- أين قلبك الآن؟ لا أظن انه في مكان هو هائم في دنيا الأرواح!

- إي والله! هائم في دنيا الأرواح!

- انه النقاء يا عذراء الحب! أنت تعيشين الآن في عالم النقاء.

عديني ألا تضحين بقلبك!

- أنت تظن اني أضحي بقلبي، وأنا أظن أن قلبي هو من ضحي

بي! على العموم أنا اقتنعت أني كنت من يضحي بقلبي، واقتنعت أن

بعض الظن إثم!

- أنا أرى قلبك يهيم. كنت اعرفه. اقصد اعرف قلبك كأنه قلبي!

هل أثقلت عليك؟

فتنسى نفسها وتذكره قائلة:

- لا! الآن شفت صورتك بصفحتك وأنت إلى جوار الأهرامات!

وتسأله:

- فيم شروذك هذا بجور الأهرام؟

- هذا حالي في الشرود. كنت في عالم بين الموت والحياة هناك فوق هضبة الهرم الأكبر، ولعل هذه الرحلة ورحلات غيرها إلى أسوان والأقصر والدير البحري، وغيرها من الأماكن الأثرية في مصر كان لها أثر كبير فيما أكتب!

- جميل!

- أنا أم شرودي؟ أم حياتي بين الموت والحياة؟
- جميل أنت بالطبع، وإن كنت حزينة أن حياتك بين الموت

والحياة؟

- هناك فوق هضبة سقارة إلى جوار الأهرامات وبين آثار مصر القديمة في أنحاء البلاد تبدو الحياة وكأنها نصف الموت، أو يبدو الموت وكأنه نصف الحياة. هناك لا الحياة ولا الموت يجير أحدهما على الآخر كلاهما قنوع بنصيبه، كلاهما لا ينتصر على الآخر، كلاهما صورة للكمال أو طرقه التي يجب السير فيه دون أن تذكر أنك ستموت، أو أنك ستخلد. هناك تلمحين الخلود وكأنه صورة الحياة وصورة الموت! أين أنت؟

- أتخيل تلك الأماكن!

- ألا تريدين مرشدا سياحيا مثلي؟

- بكل سرور! ولكن هل محبوبتك كانت تهاب تلك النظرة؟
فلا يصدق أنها تهاب نظرتي، ويقول لعلها تشعر أنه يتحدث عنها:
- حبيبتي كانت مغرمة بالنظر إلي! ودائما ما تقول لي اخلع هذه النظرة! تقصد نظارة الشمس التي أواظب على ارتدائها..

فتقاطعه:

- وبلا شك كنت رجلا عنيدا لا تخلعها بسرعة؟

- هههه! إلا معها. العند معها لا يساوي لحظة واحدة من حضورها، وكيف أعاندها وقلبي بين يديها؟
- مممم! لِمَ ضحكت؟ لأنك عنيد؟
- إلا معها ولكني اعرف كيف أخاصمها متى شئت هي الخصام، وكيف اهجرها متى شئت هي الهجر، وكيف، وكيف كيفما شئت وشاء القدر!
- جميل!
- ما رأيك في أن تحب المرأة مثلي؟
- فتسأله عن نفسها لا عن يزعم:
- أين هي الآن؟
- فيناجيها هي دوى سواها:
- يا هجرت القلب، انه المهاجر إليكم هل تصدقين انه كالطيور ولد هناك، وهجرته لن تكون إلا هناك حيث ولد، و"حقيق" يريد أن يقضي نحبه! أقصد حيث! هي حيث هذه التي يرتجف منها القلب. أرايت؟ أسمعت ارتجافه من "حيث" هذه؟ هي حيث التي بها ولد، وبها يموت، فما رأيك في ذلك القلب المهاجر؟
- وفي للحب، وفي لها، وفي لقلبك!
- ويستجديها لعلها تعترف أنها أحبت وهما:
- هل حدثك صاحبك بما أحدثك به الآن؟ هكذا ينطق القلب الصادق. إنه الخفقان صدقا!
- قال لي مرة: أريد أن أضع حدا لشوقي لك، لكني لا أستطيع.. وقتها ابتسمت!

- وكيف الحال وقد استطاع؟ للقلوب لغة إذا ما أحببتك لا أخطب إلا إياك وقلبك. هي لغة ليست لأحد غيرك. هي مرآة قلبك ونفسك. هي لغتك وإن نطق بها قلبي!
- صدقت والله!
- كل حرف هو حرفك!
- إذا ما أحببتك لا أخطب إلا إياك. الحب خطابه خاص جدا. أرجو ألا أكون قد أخذتك من نفسك!
- نفسي مفقودة! كانت عند احدهم وغدر بها. لا يهم نعود لحديثنا قلت أن للحب خطاب خاص؛ أأمن بذلك وخطابه كله كان كذبا!
- دع قلبك يخبرك بالحقيقة!
- لقد اخبرني قلبي.. وكما قلت أنت قلبك قد حسم أمره!
- لم تغرب عن بالي دياركم!
- لا تدعها تغرب إذن، كم جميل أن اعرف رجلا أحب فصدق رغم بعد محبوبته عنه؟
- ومن قال أنها بعيدة؟
- أنا إنما قصدت بذلك المسافة فقط!
- ولا المسافة تباعد بيننا، وأين هي المسافة بالنسبة إلى القلب؟
- معك حق أين هي المسافة بالنسبة إلى القلب؟
- آه منك! ألهمت قلبي شوقا، وحنينا يا ابنة أبها!
- ما أظن لهيبه قد انطفئ من قبل!
- أنت تتركين قلبي!
- والله! آسفة!
- بل ترجفين به، بل ترجمينه!

ثم يعود لقلبها يسأله ولا يسألها:

- ما أخبار قلبك؟

فتخاطب قلبه ولا تخاطبه:

- لو أرميه بعيدا!

- لا! لا! أنه عزائك عند كل غدر، والله! أنت التي تفسد على ذلك

القلب نقاءه!

26

فقدتها هناك وهو معها وبينهما حمام الحرم، ولم يفقدها في القاهرة وهو مع حضورها الدائم؛ فطفق يحفر في قلبه قبر الغيرة، فيما كتبت هي تقول على أثر هاتفها: " بعد تلك العلاقة جلدت نفسي، ولم أسامحها لمجرد أنني أطعت فضولي، وسمحت لأحدهم أن يتحدث معي فقط.. لمن نحفر قبر الغيرة لقلبك أم لجنين قلبي الذي ولد على يديك، ومن قبل كان خيالا للحب يصون لنا الحقيقة؟ أرجوك تعالي ننهي هذا الخصام فوراً.. "، وظل على عصيانها لولا أن دار مساوئهما في فلكه المقدور فسعى إليها يقول:

- أنا أغر على عذرية قلبك!

فناجته متوسلة:

- أنت أبين قلبي، ولم يمس عذريته غير قلبك!

فصادقها:

- هذا ما اعرفه معرفتي بقلبي، ولكن كيف خفق قلبك لغيري؟ هذا

هو السؤال على ما فيه من أنانية!

- والله! إنني من أجبر قلبي على مشاعر الحب تلك!

- إذن هي مشاعر، وهي إذن حبا؟

- قلت لك مسبقا أردت تجربة تلك المشاعر. أردت أن أعرف كيف

يتبادل الناس مشاعرهم، وكيف يعبرون عنها. أجبرت نفسي على

الحب حتى أعرف ما أريد، أوهمت قلبي باختصار أنني أحبه. لم يكن

أبن قلبي على الإطلاق، وأقسم لك إن قلبي كان ينبذ ما أفعل به!

- ربما أكون مثاليا، أو هكذا يريد قلبي، يريد المثالية، وإن شئت

العذرية، لا عليك من العذرية تلك أتركها لمثلي!

- أنا فتاة لا تعرف من الحياة الكثير، وربما لم تعرف منها إلا

حبك، أنا لا امتلك قلبا قويا جبارا، ربما كلمة تجرحه، وأبكي منها،

وربما نظرة تفعل به ذلك من أي أحد. في الحياة استطعت أن أصلح ما

فعلت بقلبي، ويستطاع هو أن يسامحني، ولم يتعلم منك كيف يكون

حرا في مشاعره، هو في أصله حر المشاعر، لولا أنني لا أتدخل فيه،

أنا تعلمت معك كيف لا فسد علي قلبي مشاعره، ولا أتدخل فيه. لم أقل

لهذا الشخص أي عبارة مما قلتها لك أصلا، أنا لم أقل له شيئا!

- قلبي هو المغصوص كأنه قد فجئ بتلك العلاقة التي نعرفها أنا

وأنت، فهذه كلمات كتبتها لك سالفا: قلبي في خصامك كان يغترب

عني! ومنذ الغيرة هو المغترب عنك كأنه مع قلبك وليس معك، أو أنه

يلومك، كيف أقحمت عليه تلك العلاقة؟ قلبي باختصار مغترب عني

وعنك. أي والله! هو الآن مع قلبك أو هما في خصام مبين معي

ومعك!

ويهتف بها من قبر الغيرة:

- ألم تهيمي به حبا حتى شرعت في إحراق أبها بجمالها؟

- وهل أحرقتها؟
- لا والله! أبها كما هي، وربما جبالها أيضا نجت من الإحراق!
- ربما! ربما أحرقتها الآن لكن هل يسمح لي ضبابها؟
- سله إن استطعت؟
- سألته!
- وما قال لك الضباب المسكين؟
- ننتظر الإجابة منه!
- أبق على انتظارك!
- أجل! فأنا والانتظار رفقة!
- وتصمت باكية، ثم تقول:
- أنت في حضرة عناقي منذ أتيت بعد غيابك! أنا لا اصدق أنك تستمتع باستحالتني رمادا!
- فبيثها شجون المساء:
- من أين يأتي الحنين إليك مني أم منك، أم يأتي من قرينك؟ أنه قادم، ولا يبرح يأتي، لماذا لا يصل يا بنية؟ لم ننتظره دائما وأبدا؟ أين رحيق قلبك؟ دعيني وإياه، لو يضمني قلبك، لو أسمع خفقته! ماذا يقول قلبك الآن؟ دعيه يقول فقوله حقيقة المسها كما المس سحب قرينك. تعالي إلى قلبي المغترب عنك وعني. تعالي إليه فلعله يعود إليك. هل آتيتي يا بنية؟
- أجل! أتيت إليه، وهو منذ اغترابه عني وعنك، وأنا لا أستطيع إلا المسح عليه!
- كيف مر عليك الغياب؟
- كان مؤلما! بل مؤذيا للغاية!

- هل أردت أن يطول؟
- لا أبدا! وأنت؟
- لو أردته أنت أردته أنا!
- لكنك لجأت إليه!
- أجل! حتى يقول لك قلبك الحقيقة!
- أنت حتى الآن غاضب مني!
- لا أعرف ما بي ولكني أتساءل أنت راضية عن نفسك؟
- لا!
- هذا ما أشعر به، وأشكرك جدا أنك لم تنكري ذلك، وأرجو أن تصارحيني لم أنت غير راضية عن نفسك؟
- لأنني لم استطعت أن أحتوي غيرتك، ولم أطمئنك كما يجب!
- وذاك ما يؤلمني، وكنت أقارن بيني وبينك، وأجد أنني لم أقصر في طمأننتك، كنت أكثر وضوحا وصدقا، بل كنت أستحضر مشاعرك، وأشباح الغيرة لا تزال تهجس بك ثم اذهب بتلك الأشباح بعيدا، أما أنت فحسبي أنك غير راضية عن نفسك، وهذا دليل على أنك غير واثقة من مشاعرك تجاهي، أو أنك على حنين من صاحبك، وهذا أمر لا أعاتبك فيه مادمت تقرين به، أما أن تحتالي على نفسك وعلي فهذا لا يلق!
- غير صحيح ما قلت أنني غير واثقة في مشاعري تجاهك، لطفا!
- لا تقل هذا ثانية، أنا لم أحتوي غيرتك، ولم أطمئنك كما يجب وهذا ما ألوم نفسي فيه، لكن والله يعلم إنني فوجئت بها، وفرحت بها، ولم أنوي التخاذل في طمأننتك، وأقصى ما كنت أود أن تعرفه، و تشعر به أن تعرف ما تفعله بي الغيرة، أما طمأننتك فقد اعتقدت بما أنك تعرف القصة كاملة أن هذا سيطمئنك كثيرا، وهو اعتقاد لم يكن في محله،

وهذا ما أدركته فيما بعد، أو في وقت أنت أردت الابتعاد فيه، أنا لم
التقي به أبدا حتى لو كان في أبها بعيدا عن قريتي، والله! ماكنت
لألتقي به إطلاقا، ولا كنت لأسعى لذلك أو أفكر فيه هو رجل كان
يستمتع بكذبه، وأنا حاولت أن اخدع قلبي بحب ادعيته، ولم أوقن إلا
بعد مرور بعض الوقت إنني من أدعى ذلك، وقد آذيت نفسي بلوم
كبير، وبعدها لامني قلبي، تركت نفسي بين هذين اللومين إلى أن
آتيت أنت؛ فعاقبت نفسي أولا لأنني لم أخبر أمي عنه إلا في وقت
متأخر، وهذا دليل قاطع على أنني بالفعل لم أحبه، وعاقبت نفسي ثانيا
لأنني كنت أعرف حقيقة قلبي، وحاولت تجاهلها. أنا لم أحبه، ولو رأيته
الآن لن يحرك ذلك بي شيء، هذا باختصار كل شيء!

- وهذا ظني بمن كان ذكاؤها ذكاء الأنوثة في ألا تنخدع لأحد
حتى استدراكه إلى اتهام نفسه قبل اتهامها إياه.. كنت موقن من أنك
تلك الأنثى التي تعرف من يخدع نفسه قبل أن يخدعها؛ وإلا فلن
تكوني من وثقت في كمثال لضميرها وليس مثال قلبها فحسب!
- أن تثق بأحد هذا يعني بأن تصدقه، وتصديق كل ما يقول،
ويخفق له قلبك دون خوف من أي شيء.. أنا لم استطع أن أقول له
أنه كاذب، ولم أوجهه بما عرفت من كذبه على الإطلاق، وما قلته
أصدق وأجمل تعبير عني: أنت وثقت في كمثال ضميرك وليس مثال
قلبك! أنت ضميرك حي كما ضميري تماما!

- أو علمت الأم بخصامنا؟

- نعم!

- وهل لاحظت أي تغير عليك بعد ذلك ينم على أن خصمنا قد زال؟

- لا!

- والبنات؟
- لا!
- كيف لا؟! أنت تزعجهن فقط!
- لا والله! أنا لا أزعج أحدا! سألوني عن " مذبح الفداء " وماذا تقصد به، وأنا لم أجبهن!
- أعز الله مولاتنا عذراء الحب؟
- ما أقول لك؟ أقسم أنني لم أكن مركزة معهن!
- لا بأس! هل كنت بينك وبين نفسك في حاجة إلى الابتعاد ولو قليلا؟

- لا.. لم أرد ذلك إطلاقا أما أنت فنعم، أنت أردت ذلك، صح!

- أنت اعترفت بأنك غير راضية عن نفسك لأنك كنت في غمرة الفرح بغيرتي، ولعلك تعمدت أن تلهي عصب الغيرة، وهذا ولا شك أربكني، ولكني قلت: لها ما شأت، ولعل الأمر فرصة في أن تراجع نفسك، وتعلمنا شيئا مفيدا عن مشاعر النساء، ولكني كنت مهينا لما يريحك، ويرضيك، ويرضي غرورك، وأقسم لك كنت سأحترم صراحتك، بل كنت سأشجعك على مصارحة نفسك، المهم أنني أردت أن أعطيك أكثر من فرصة، وأهمها مراجعة مشاعرك، ويلي ذلك معرفة كيف يكون الفراق إن وقع؟ وبالمناسبة أسألك بناء على ما عشته في هذين اليومين، وما كان فيهما من تهديد لهذه العلاقة، فهل تستطيع عذراء الحب أن تكمل فراقها، أو تستطيع حقا الصمود؟ وهل فكرت في ذلك، أو رغبت في الاستمرار فيه على سبيل التجربة؟

- " دعي قلبي يغترب عني وعنك ولو قليلا.. " هذه عبارة أنت أرسلتها لي مع عبارة أخرى قلت فيها انك لا تعص قلبك، وبهذين

الرسالتين شعرت أن الابتعاد تريده أنت، فخفته و لن أحتمله، ولن أعيقه.. هذا ما كنت أعرفه تماما، و كنت أفكر في أنه واجب على أن أطمئنك، ولا أدع الغيرة تأكل قلبك، وإذا بي أرك تلوح بالغياب من بعيد! - معقول! ولكن هل أردت الاستمرار في الغياب على سبيل التجربة؟

- لا! لم أفكر في ذلك حتى وأنت تلوح به وتمضي فيه!
- أنا خضت فيه لأضعك في الاختبار، ولكن السؤال: هل تقدرين على البعد، أو الفراق؟
- لا! لن أقدر على فراقك.. أنا لن أقدر على ذلك، وما أعرفه عن نفسي أنني لن أسمح لأي شخص بالاقتراب مني، وسأتفرغ حينها لوحدة ساحبها!

- معقول جدا.. ولم تركت قلبي تأكله نيران الغيرة يا متوحشة؟!
- أنت من أرد ذلك، و أرسلت تقول أن شعورك بالغيرة هذا لم تعهده من قبل، وأدعك الآن!
- معقول! أنت لا زلت معقولة معي ومع غيرتي!
- وأنت غير معقول!

- والله! أنا اضعف خلق الله أمامك، ولا يغرك قوتي فهي لك، ولن تكون عليك في يوم من أيام الحب. أنت قد جللتك الرهينة في الحب برفق المودة، فلو أضمك كما أضم الرمال، أما قلبي فهو لم يغترب عنك خفقة قلبك، بل كان اغترابه كله عني، دائما أنت مبرأة في شريعته من كل هفوة في حبك، وأنا المتهم دائما في شريعته، فقد راح يغترب عني كلما تماديت في خصامك وفرضت عليك هواجسي،

ويسألني القلب: ألا تعلم بأنها هي الراهبة على حبها التي تنتيه في
رمالها كما تنتيه في سمائها كطائر جل أمله أن يموت هناك!؟

- بعد الشر على طائري. أرجوك لا تذكر الموت!

- لو تأخذيني إلى قلبك! أرجوك خذيني إليه، أنت قد تشفعت لي
عنده لما خاصمتك. أنا أعرف أن قلبك هناك، وهو يعرف أنني في تيه
الرمال. رمالك أيتها الراهبة خيال، والله! إنني لا اظماً فيها أبدا وأن
تحدثت بحديث الظمأى!

- أنت لا تبرح قلبي حتى أأخذك إليه!

- هذا لسانك، أما خفق قلبك فلا يزال بعيدا عني، ولا يريد لي
سماعه، إنني اعرفه فهو قلبي!

- الله يشهد أن خفقه، وحاله معك، أنت لا تتركه حتى أأخذك إليه!

- أنت! آه منك! ما سرك مع قلبي، أنت راهبته، أم أنك راهبة على
الحب!؟ ها هو حارس قلبك القديم قد خرج إلى تيه الرمال. ربما آت
يوم نرى فيه أنا وأنت رمال مصر!

- يا رب! تعالى لجوار قلبي الآن.. هيا تعالى!

- ها أنا أتهيب قلبك، هل أخذت بيدي!

- أجل! ماذا في صدرك حتى أختبئ فيه، وفي كل خفقة من

خصامك؟ أنا أحبك، أحبك جدا!

- سحابة من سماء قريتك تمر الآن كأنها المطر. كأنها ظمأ لقبلة
واحدة لا تريد أن تستيقظ من حلمها. قبلة هي الحلم والنعاس، ووابل
المطر. أين شعاع جسدك المذهب؟ متى أراه في الشمس؟ هل بقريتك
شمس مثل شعاع جسدك المذهب؟ نعم هي شمس قريتك التي وهبت
ذلك الجسد شعاعها وألوان طيفها. أين أنت يا شمسها؟ سوف أنظر

إلى سماء القاهرة لعلي أرها. ها هو سر مطرك. هل ترينه كما أره، أو تسمعيه كما أسمعه؟ آه من مصريتك! بنت الجزيرة تعرف متى تكون مصرية لحبيبها. أليس في ذلك دعوة للحب والوله؟ أين عينيك، وصبو حنينهما؟ قال لي الحب: جسدها المذهب يرق به الحنين فيبدو كطائر وديع يخفق بجناحيه على نافذة الحب! أرق الناس، أنا أعيش انتظارك لي هناك بتلك النافذة، أما عن الشوق فقد تجسد في طائر يخفق بجناحيه على نافذتك، لن ابتعد عن ثغرك للحظة فائتة، نعم فائتة، أريد أن أعود بك إلى البداية، يا الله! من شوق البداية هل تذكرينه؟

- أجل أنكره!

ثم روعته:

- ألا تعلم أن عملي بجده يوفر لي من المال ما يتيح لي القدوم

إليك؟!

سألها:

- أنت جادة فيما تقولين؟

فقالت:

- وماذا لو أنه المزاح الجاد؟!

فتوعدها مغصوص القلب، ومكبل الخيال:

- إياك أن تذكرني هذا!

وناشدها، أو بالأحرى ناشد نفسه:

- أو ترضين لي ذاك وإن ارتضيه لحبنا؟ أنا الأجدر بالسعي إليك

وأنت الأجدر بانتظاري. أنا من خلق للهجرة إليك وأنت من خلقت

لاستقبالي. أنا من تحمل في حبك مسؤوليتك ولن أرضى في حبك

بالفرار، فأما أن تكوني بنت أبيك أو لا تكونين، وأما أن تكوني ابنة

الجزيرة أو لا تكونين شيئا مذكورا. أظنن أننا لم نعرف من الحب إلا غروره، وأنايتته، وأعداره، وتنحله؟! لو أنني أحبك حقاً لتحملت مسؤوليتك. لن نكون أنا وأنت إلا مثالا لغيرنا، ومن ثم ذكرت مذبح الفداء، ولن يكون للحب مذبحا بدماء الآخرين ولاسيما إذا ما كان الآخرون هم الأحباب، ومن كانوا سبب وجودنا، أنا وأنت من سيجعلان الحب مثالا لا أمثلة. أنبل ما في الحب هو عاطفة الأبوة. من أحب حقاً يعطف على حبيبته عطف الآباء، وأنا حبي لك يشمل الجزيرة العربية بما فيها من قبائل وعشائر، وبما فيها من عادات وتقاليد، ما أنبل تلك العبارة التي اتفقت عليها نساء أسرتك الكريمة إذ قلن ببديهة الأمهات الحرائر: " يجب أن تظل رؤوس الآباء مرفوعة!" فكيف لي و لك أن ننجب أولادا نرجو منهم أن يرفعوا رؤوسنا ونحن من ننكس رؤوس الآباء؟! أنا لن أرضا لك إلا ما يرضيه الآباء لأبنائهم، ولن أرضا للحب أن يكون غرورا، وهروبا من المسؤولية، أو يكون شعوري فيه هو شعور عدو الحب، وعدو حبيبته، أنا سميتك الراهبة على حبها لأنني اعرف أنك ستعيشين لحبنا وهو ثمرة وليس لأنك ستعيشين عليه وهو رميم. لا لسنا نحن من يعيش على الحب وهو أمثلة في أفواه الناس، بل نحن من يعيش له و به وهو مثال في قلوب الناس!

فقالت:

- الحمد لله إنني أحببتك ولم أحب أحدا سواك. أنا فخورة بك،
ويحبي لك!

فقال يداعبها ويروح عن قلبها:

- لو قدر لي في مسائننا هذا أن أقبلك فلن أقبل منك إلا تلك
الراهبة على حبها، أو عذراء الحب تلك!

فسألته مطمئنة راضية:

- كيف ذلك؟

فقال باسمها لقلبيها:

- كيف هذه رغم غموضها إلا أنني أجذك في صفاء من شوقك أنت، وكأن الحب غائب فيك ولست أنت من تغيب فيه. هكذا أنت الليلة ثم يأتي الحب بعدك. لا والله! ما هي قبلة في أثير الهوى وإنما هي الخشوع للحب في ديره. أين تلك الحُجب التي بيننا من رمال وأمواج؟ تعالي نذوق معا قبلة تلك الراهبة حين تغيب الحب وتذهله عن نفسه. تعالي نذوق حضورها وهي حرة لا يستبد بها شعور، أو فكرة، أو خيال لأنها هي هي الفكرة، والشعور، والخيال، هكذا أنت أو هي في ليلتنا هذه. آه! منك وأنت فكرة في الهوى، آه! منك وأنت أنثى فقط! ما أعذب أنوثتك الليلة لو أنني أتشم رحيقها. إذا أسدلت جفونك الآن لا ترفعي يدك عن قلبي فهنا يكون الحب فجرا، وتكون العذرية ندى. لا ترفعي رموشك حتى يجري المطر بيننا. أصمتي فحسب فقد نذكر هذا الصمت عند الفراق. قللي نعم سنذكره معا!

فهتفت به:

- لا.. لم اذكره وأنت تذكر الفراق!

فسألها متوددا:

- فيم صمتك؟!

ف قالت:

- ذهولي بك أو ذهولي فيك!

- لم تخلقي لغيري، وهذا الخلق من عجيب حبنا!

- لم اخلق لغيرك!

- أجل! فعذراء الحب لا تستبدل بالرهينة نسلا إلا حين يكون الدير هو الحب، أو نعمة من أنغام الحب. إن فاتك مائي تيبست أرضك ولو كان المطر مطر قريتك. هل تفتحت زهور عذريتك أم أجفلت من صوت المطر؟

ثم يسألها:

- ما بال زهور عذريتك الليلة؟

فتسأله هي:

- ما بالها؟

فيقول:

- حبيبك في مناجاة مع فكرتك وخیالك وحلمك. آه! منك وأنت

فكرة للحب، وخیال للعدرية، وحلم للنسل!

فهتفت به:

- وآه! منك وأنت بين الحقيقة والحلم والواقع!

فأفهمها:

- ما أنت إلا كلمة كالرمال لا يخوض فيها إلا من عزم على

الهجرة!

فقالت تفهمه أو تذكره:

- إني فتاة القرية والريف، والله! لا اعلم شيئا عن هذا العالم،

وكيف يعيش الناس فيه، أنا فتاة قرية لا تمر بها السيارات في اليوم

إلا قليلا، إن ذهبت لجدة، أو الرياض اشعر أنني في بلد غريب، تعودت

على القرية، وأحببت الناس بها، والعالم الخارجي لا اعرف عنه شيئا

إلا من "الإنترنت"، كما أنني لا أتعقب أخبار الناس ولا ابحت فيها اكتفي

بعالمي الذي صنعه لنفسى، الأهل والصديقات والخالات والعمات والأخوال والكتب، والمشي في القرية هذا هو عالمي الذي أحبه!

- أجل يا حبيبتي! واذكري إن حبيبك قال انك جزء من قرينك بسمائها، وأرضها، وجبالها، ومراعيها، وأهلها وعاداتهم!

- نعم قلت! أو تعتبر حياتي هذه غريبة؟

- لا أبدا! هذه هي الحياة المثلة لفتاة في ثقافتك، وتعليمك،

وأريحيته، ولك رأي مستقل، وضمير يقظ في تعامله مع العالم خارج القرية، وحسبك ما صنعت من عالم باستقلال رأيك، ويقظة ضميرك..

أنت تعرفين ما لا تعرفه نساء المدن الكبرى، ثم أنك مثقفة بما لا يقارن بنساء المدن الكبرى، وتفهمين ما لا يفهمن، وتعبرين عما تفهمين بما لا يستطيعن، ولك آراء لا تستطيعن غيرها في السياسة،

والأخلاق، والدين، والحب، والحياة، ثم أنك من أحببت وفي يوم سأفرغ لك!

- وأنا احبك ولا أفرغ من حبك أبدا!

- في يوم سأفرغ لكل شيء فيك. أنت سماء من المعاني

والمشاعر، آه! لو تعلمين ما تفعله النظرة الواحدة لوجهك، أنا أحب

ذلك الوجه، وأحب تلك الروح التي تسمى بعذراء الحب!

- أنت ترسم ابتسامتي الآن بهذا الكلام الجميل!

- أو ترغبين في الحياة بقريتك إن قدر لنا الزواج!

- طبعاً! إن كان هذا يناسبك؟

- أعلمى إذن إن قرينك في خيالي وقلبي جزء من حبنا، وأنا

اعرف مدى ارتباطك بها!

- احبك! ووالله! منذ قليل خطر لي أن أقاطعك وأقول لك تعال إلى قريتي! قريتي فحسب لا لجدّة، ولا الرياض، ولا أي مدينة أخرى!

- أجل! وهي القرية التي يتجلى فيها سحر حبك، وصدق شاعر العربية في قوله: وأحبها وتحبني وتحب ناقتها بعيري!

- ههههه! هذا بيت شعر جميل ومشهور!

- أجل فهذا هو الحب في الإنسان والحيوان مادام الحب قائما بين المحبين، نعم مشهور فهل لك ناقة يا ابنة أبها حتى يحبها بعيري! أين عنائك أيتها النبيلة؟

- آه منك! ومن قلبك حبيبتك مشوقة لعناقك!

- يا ليتته شعورا واحدا، أو شعورين، أو ثلاثة وإنما شتى من مشاعر تغزو قلبي بمجرد أن المح وجهك فيما بين حمام الحرم وحمام البقيع!

- هل تناسبك حقا الحياة في قريتي؟

- اسمعي، أنا حين فكرت في الارتباط بك كزوجة لم أرى لك وجودا في غير قريتك، فمن غير المعهود في مشاعر الأم والأب أن يفرطا في ابنتهما لرجل غريب عن الديار، وهذا بالنسبة لأي أسرة فما بلك بأسرة عربية تغار على بناتها، وتأخذها الحمية في الغيرة عليهن؟ ثم إنني اعرف مدى ارتباطك بقريتك، ثم في حبي لك خيال يدعوني إلى الهجرة إليك، وكما تعرفين هي هجرة حياة وممات! ولكني أسألك: هل الزوج بي أمل موجود أم هو أمل لا وجود له إلا في الحب؟!

- الأمل بداخلي، وأنا مؤمنة جدا بألمي في أن الله عز وجل قادر على جمعنا، لا اعرف رأي بابا ولا إلى أي حد سيمانع، ولكني اعرف

أن ماما وإخوتي لن يكون عندهم أي اعتراض. أين سأجد قلبا يقرأ قلبي كما تقرأه أنت؟ أنت تملئ حاضري كله ومستقبلي كله!

- هل ستحزني على فرقنا؟

- لا تذكر الفراق هذا، لا تذكره أرجوك!

- وأنت اذكري أنك من جعل الحب يخاطبني، ويقول لك ما لم

يقوله من قبل، ولكني أخاف عليك كأب!

- أجل! فأنت من يخاف علي كأب.. ألم اقل لك إني لن أجد مثلك

يفهم قلبي، يا الله! الآن أريد لو أطيّر إليك فوراً! ثم تقول: ماذا تفعلين

بي يا عذراء الحب وأنت هو الذي يفعل بها!

- أين يدك؟

- في حضن يدك!

- ها أنا أقبلها امتناناً وحباً لك!

- ولم امتناناً؟

- لأنك أكثر حرية من مطر قرينتك ورعدها وهوائها!

- تكلمت عن المطر والرعد والهواء وكأنك هنا ترى وتسمع! الفجر

أتى يا رجل، الفجر وتمطر الآن!

- أجل! ومن غيرك تسهر بي إلى الفجر؟

- بل هو الصباح أتى، والغيم الكثيف جعلني أراه فجراً!

- أنا الذي كان يفر من الناس إذا هموا بتغييري ما اعتدت عليه

في حياتي ولو أقل تغير، وها نحن قد قلبننا حيثنا بأيدينا أنت من هنا،

وأنا من هناك!

- لم تسهر لهذا الوقت أبداً يا حبيبي؟

- لم أسهر باختيارى إلى هذا الوقت، وجئت أنت وقلبت حياتى منقلبا غير معهود!
- ههههههه! سأعلمك عاداتى السيئة!
- الويل لى، وربما لك!
- الحمد لله! إنى غيرت حياتك إلى ما تحب وأحب أنا معك!
- ماذا بك الآن وحتى هذا الصباح؟
- ماذا بي غير حبك؟
- آه! من حبك وحبى، وحياتك! سوف اجعل من هذا الحب مثالا يتخطى ما وراء جزيرة العرب. لقد حان الوداع!
- أجل! حان الوداع وأنا يجب أن أقوم للصلاة!
- استودعك الله! ولا تنسينا فى دعائك!
- استودعك الله وطاب نومك وصحوك! ولن أنساك يا حبيبى، فى دعائى!
- مصحوبة بالسلامة يا ارق الناس!

27

- وتحتفل بصفاء الحب المشوب بغيرتها فتعد قطعة من الحلوى وتصورها بكاميرا هاتفها وترسلها إليه، ثم تلتقي به قائلة:
- هذه قطعتك من الحلوى التى أعدتها، ورسمتها كحرف من أسمك، ولكن السكين جرحت يدي وأنا شاردة فيك!
- تسلم يدك! لو أعانق تلك الفراشة المتورطة فى حبى، والجريحة فى شرودي!

- فراشتك غاضبة!
- وما يغضب فراشتي؟
- ما تظن انه يغضبي؟
- لا ادري والله! ربما التأخر عليك!
- ربما!
- هل هناك ربما أخرى غير ربما هذه؟
- من هي شاعرة الشجن التي وصفت لغتها بأنها اقرب إلى إيقاع الموسيقى، ولكن الشجن يغلب علي موسيقاها؟
- يا قلبك!
- لم يا قلبك هذه؟!
- لأنه قلبي وأنا اعرف ما به!
- ألا تقول ما به؟!
- شوقك إن لم يظهر على ثغرك الآن سوف يظهر على جسدك
- الندي المذهب، فأيهما تريدان له الظهور: شوق الجسد أم شوق الشفاه؟
- كلاهما!
- تعالي أيتها الفراشة المتورطة. تعالي إلى قلب حبيبك. هل أتيت؟
- أتيت!
- تعالي ها هنا في مكانك من القلب. هلم لا وقت حتى للغيرة!
- ضمنى لقلبك؟ كم بحاجة أنا لحضنك!
- هو ذاك يا حبيبتي! هو الشوق بسرعة قلبينا، وإياك أن تغرمي بالغيرة كوسيلة للخصام، إن أبطنت بك الغيرة فاعتذري!

- أجل اعتذر منك يا حبيبي! ولكن الغيرة وحش على هيئة عفريت.. عشت يومي مع الوحش!
- فليذهب هذا الوحش السخيف إلى الغابة ويترك لنا مرعى الهوى!
- فلينصرف إذن!
- غيرتك يا بنية لا يتحملها القلب فلا تعودني إليها في غير داعي!
- ليته بيدي!
- لا وقت أبدا، ثم ماذا في الشعر إلا أنت؟ وماذا في شجن الشاعرة إلا أنت؟ الأستاذة كانت تنشد لك وحدك شعرها، والناقد قال ما قال لأنك حاضرة هناك، بل هنا إلى جوار قلبي. أسالي البحر هل كان بيننا اليوم؟ أسالي أمواجه، وبحور الشعر كم خفق قلبي لك!
- أجل يا حبيبي!
- من أكل قطعت الحلوة التي صنعتها يدك الجريحة جرح قلبك؟
- أنا!
- ألم تطعم حبيبك منها؟
- طبعا أطعمته منها!
- لا توجعي القلب بغيرتك.. ألم يصلك خفقه؟
- يا حبيبي! والله هذا ما بإرادتي!
- لا لوم عليك.. أين يدك؟
- في حضن يدك!
- أهى الجريحة؟
- نعم! جريحة جدا!
- هل اقبلها؟
- قبلها يا حبيبي!

- آه منك! ومن جرحك الذي هو جرحي؟
- أحبك!
- هل أخذت كلمة الحب هذه من ثغرك إلى قلبي؟
- افعل! فقلبي لم يعد قلبي، وجسدي لم يعد جسدي! كيف تلمسني من وراء ذلك البحر؟ أرجوك لا تبقى البحر بيننا! ها أنا أخذك بيدك إلى الفجر البازغ هنا ليكن هو غطائنا!
- كان حلمنا رائعا.. تعالي إلى حلمنا! أنت دائما ما تدركين قلبي في لحظته الأخيرة. حمد لله! على سلامتك أين قبلة الوصول إلي؟
- وأنا أخاف دائما ألا أدرك نقطة الوصول هذه.. ها أنا أعانقك يا حبيبي وأقبلك!
- ما كل هذا الشوق إليك؟ أنا الهث وراء قلبك، ووراء شوقي إليك باختصار: أنت الشوق!
- يا ريتني! استطيع احدد مدى شوقي لك. أنت ببالي مع كل طرفة قلب!
- هو ذاك يا ارق الناس، وما رأيك في رسالة اليوم، أو ما قاله الحب في رسالته؟
- رسالة الحب هذه كانت رقية للقلب!
- يا ليتها رقية شرعية تعويذتها الزواج! تعالي واسمعي خفق قلبي الذي هو قلبك. لا تضيعي وقت حبنا القلب في انتظارك!
- ها أنا في حضن قلبك يا حبيبي!
- لك حضور في خيالي من حضور القلب والعين. ما أروع اختيارك لي! هذه هي روعة حبك كما قال الحب في رسالته: افتتاني بك ليس لأنني اخترتك، بل لأنك أنت من اختراني. لقد اخترت " مذبج

الفداء ". في كل شعور منك نبل يسمو بقلبي، ويسمو بالحب، لو
تنظرين إلى جمالك بعين وقلب حبيبك، أنت نبض الحياة الجديدة، وما
نبضها إلا من نبض جمالك!

- تكلم يا حبيبي، ولا تنس أن كلماتك هي كلماتي، وإحساسك هو
إحساسي!

- ولا تنسي أنت إنني من قريب كنت أحصار قلبي، وقلت لك لن
أحاصره لقد فات أوان الحصار. لن اسكت أبدا في حبك. كتابك فتح يا
ارق الناس، كنت أريد أن أحيا بنبض جمالك. كلمة حبك التي تؤثرني
أنك قد اخترتني بكل شوقك للحياة، وبكل أمل فيها، وبكل رجاء يبقى
منها، بل اخترتني بذرات جسدك، ووشائجه التي تربطه بالنوع كله من
أوله إلى آخره. يا ليتك تنظرين بعيني إلى جفونك المسدلة فريما عرفت
ماذا قالت من ظلال حياؤها؟

- شيء بداخلي يصرخ فرحا الآن! ويردد أنت الرجل الذي
سأ تزوجه لا غيرك!

- أنت الراهبة على حبها، وأنا الراهب الذي يحرس قلبك!
- بحبك!

- أنت في جسد مذهب ينبض بحبيبك نبض اللحظة الدائمة. لو
أرتشف من ثغرك رحيق قلبك وأذكر انه الرحيق! لا تضيعي وقت حبنا
فلعله قصير جدا!

- لا! ليس قصيرا.. مفهوم!

- ربما يا أرق الناس! قللي لنا: جفونك مسدلة على عذرية قلبك
أم عذرية جسدك المذهب؟
- أنت ساحر على فكرة.!

- قلبي ولا تضيعي وقت حبا. أنا راهب عذريتك، وأنت من فتنتي
حبيبك باختيارك له وليس اختاره لك، واذكري أنك مثال للحب فيما وراء
قريتك!

- اذكر طبعاً!

- هل تذكرين أن كل كلمة قلنها كان لها ماضي لا نعرفه؟ اقصد
شعوراً قد سبقنا!

- أجل!

- نحن نسير بسرعة قلوبنا، وقد كنا هناك وبيننا ثقة نبيلة لو
انهارت انهيار اختيارك لحبيبك، وحق على قلبك الانتحار، كل ما فيك
جاء إلي الدنيا من اجلي اختيارك لي، ومن اجل حبك لي!
- نعم يا حبيبي!

- لحبك وحي سبقنا لذلك كنت مثال القلب فيما كتبت من كلمات
الحب، لو أرتشف رحيق قلبك العذري من حياء ثغرك! اذكري أن حبيبك
في حبك يتكلم بثلاث كلمات، لم يتكلم بها من قبل، وهذه الكلمات
الثلاث هي: " قال لي الحب "، وهكذا قدر لي أن أرسل لك كل يوم
رسالة مما يقوله الحب، وهكذا قدر لك أن يكون صوت هاتفك من
هاتف قلبك!

- يا لله! عبارتك قال لي الحب تفعل بي الكثير! إني انظر لها كثيراً
قبل أن أقرأ أي عبارة بعدها!

- حبك هو من يقول لي. كل كلمة هي من كلمات حبك، ومن
المستحيل أن تكون من غير حبك لأنها لن تكون لغير عذراء الحب!
- بحبك فحسب!

- ها أنا ارتشف كلمة الحب من حياء تغرك، وأوصلها قلبي كما هي، فماذا يقول الخيال، والإلهام و أنت تنطقين بها؟ دعيني، أقول مثل ما تقولين: " احبك "! سيحيى بنا الحب كيفما شئنا وشاء لنا الهوى!

- تعال لصوتك قبل الوداع!
- صوتك ندى منك لا أظمأ عنده ولا أرتوي. ندى يتجدد به الشوق إليك، وهكذا أنت شوق مسافر ولا يعود برسالة!

28

ويخبرها صباحا بسفره إلى مصيف الإسكندرية فتخبره هي عصرا بمرضها، ولا يأتي مساء اليوم التالي إلا وهو يسألها:
- ماذا عن تلك الحساسية التي سهرت عليها بعيدا عن شاطئ الإسكندرية؟

- الحمد لله! بخير! خفت كثيرا، وكيف سهرت عليها؟

- كما أسهر على حبك. أنت بخير!

- أنا بخير والله! اطمئن!

- دائما بخير! وكيف حال أسرتك الكريمة؟

- الجميع بخير.. الحمد لله!

- دائما بخير!

- شكرا لك!

- وماذا قال لك الحب اليوم؟

- والله! يقول لي الحب أن أتركك في المصيف تغير جو مع
أصدقائك!

- وماذا لو سمع كلامك، ولم يرسل لك الحب رسائله اليومية مع
الموج؟

- إذن عدت؟

- متى تريد العودة؟

- حالا!

- أنا يا حبيبتي، أكلامك من البيت الآن!

- والله! كيف ذلك؟ يعني عدت!

- هذا هو حبيبك!

- متى؟ وكيف؟ أنت بالفعل عدت!

- لم اصبر على تلك الحساسية التي أصابت ندا جسدك المذهب،
فأسبابها نفسية، وسوف يرتفع توترك دون أن تشعري حتى لو كتبت
لك كل خمس دقائق رسالة مما يقوله الحب، وقد حاولت، وحاول الحب
معي في أن يرسل لك لعلنا نضبط توترك!

- احبك!

- هل استراح قلبك الآن؟

- استراح! لكني حزينة!

- لم الحزن إذن؟

- كيف أفسدت عليك رحلتك؟ ما كان يجب أن أخبرك!

- لم تفسدي شيئا.. دعك من هذا سوف اذهب إلى البحر الذي

بيننا وليس بحر الإسكندرية!

- تعالى أنت تستحق عناقا طويلا!

- أنت التي تتأخرين دائما!
- كيف تأخرت؟
- لقد قبلك ما إن وصلت، وتحدثت إليك!
- احبك!
- ها أنا أصل إلى رحيق قلبك، هل لي أن المس مواضع تلك الحساسية من جسدك المذهب؟
- أجل! لك طبعاً أن تلمسها!
- ماذا في جمالك إلا ملامح، وقسمات هي مورد الجمال؟ في كل لمحة إلى وجهك تعبير للجمال طريف ينسني أنه من ملامح، وقسمات!
- مmmmmmm!
- أين هي مواضع تلك الحساسية؟
- حقيقة أنها في كل مكان!
- هذا ما تمنينه ليدي وعيني وقلبي، أما الخيال فله سماء غير سمائنا!
- جميل جداً يا حبيبي!
- بنيتي! ماذا في جمالك إلا جسد هو عذرية الزهرة وعبقها الندي.
- جسد مذهب بلون الشمس. توهجه حنين، ودفنه شوق، وما غروبه إلا تفاني في ذلك الفجر الوليد!
- اشتقت لك والله! رغم أنك هناك في القاهرة لكني شعرت بأنك تسافر من بيتي إلى الإسكندرية!
- كنت أعرف أن سفري سوف يشعرك بغربة لأنك لا تعلمين ما يحدث فيه؟

- وما يحدث فيه؟
- قد تحدث ظنون!
- لحد البكاء بحرقه.. اشتقت لك!
- هي الدموع لها لوعة يعرفها الله!
- والله! بالفعل سفرك أعطاني هذا الإحساس بالغربة!
- لا تنسي أن حبيبك يعيش داخل قلبك!
- ما يحدث في المصيف وبعده، والله أقلقنتني!
- لو راجعت ما قال الحب إليك لعرفت أنني أقول ما تريد عذرا
- الحب قوله بلسان قلبها!
- قال لي الحب: هي سر الحب الذي مابرح يتسلل إلى قلبك حتى
- تحبها بقلبيها!
- أرايت؟ صعب جدا أن تفرقي بين قلبك وقلبي، وهذا سر آخر
- كتبه الحب لك، ولم أرسله اليوم، وغيره كثير مما قال لدرجة أنني خفت
- أن أكون بودعك. أين أنت؟
- معك!
- أين كنت؟
- كنت أفكر!
- فيم؟
- كنت أفكر في قولك لدرجة إنني خفت أن أودعك، وأنا خفت أيضا
- حين قلت أنك ستسافر بالقطار!
- كان قلبي قد تعلق بأمواج ذلك البحر الذي بيننا. كان يجري مثل
- أمواجه ليصل إليك ولا يريد التوقف كأنه يخاف إلا يجدهك هناك، لقد فك
- حصاره، أو فك عنه حصاره فلم يبالي ماذا يكون غير السعي إليك،

ولكنه تخوف من إلا يجدهك هناك. هكذا هي فرحة القلب بعد فك
الحصار عنه، ولابد للفرحة من أوهام، أو حقيقة مثل الأوهام! وماذا
عن مشاعرك أنت؟

- أنا كنت حزينة جدا!

- هذا كان يقيني!

- لا أريد أن تسافر، ولا أريد أن يفوتك السفر!

- ولم الحزن؟

- افتقدك! لأنني افتقدك كثيرا، واكتشفت أن انتظرك كل يوم ارحم

ألف مرة من أني اعرف أنك لن تأتي بسبب السفر!

- لطفا يا بنية! وماذا لو قدر علينا الفراق؟

- كان يجب أن لا تنهي رحلتك. أنت تدلني فوق العادة. دعك من

الفراق أنا لا أفكر فيه. الكارثة في ألا أعود عليه!؟

- ذلك السفر هزك بعنف ألا تقولين سبابا واحدا؟

- فعلا.. أنا انتظرك كل ليلة. كيف تمر ليلة دون أن انتظرك!؟

وهذا سبب كاف يهزني بعنف!

- كنت تخافين أن يأخذك السفر من انتظار حبيبك!

- نعم! والسفر يأخذك مني أقنعت نفسي بسفرك، وأنها فقط أيام،

ويعود، فلا داعي للقلق!

- قلت لك أني قد شعرت بمشاعرك تلك لذلك حرصت على

مراسلتك هاتفيا، ولكني لم اصمد لها جس الحساسية فقد قضى على

أي تردد في إرجاع حالتك إلى ما كانت عليه، وأظن أن السفر أو

إحساسك به لا يزال له توابع!

- حبيبي!

- معك

- أنا لم افسد عليك رحلتك بالفعل؟

- لا أبدا.. أنا أحببت الرجوع إليك، ولا تنسي أن قلبي هو قلبك حقيقة وليس هذا من مجازات الحب، فمن واقع حبنا أن كلماتي هي كلمات قلبك بحروفها ومعناها. انظري مثلاً إلى ما قاله الحب في استهلاله: ماذا في جمالها؟ أنت كنت في غاية الحاجة إليها، لا لأنها كلمات إطراء، وإنما لأنها كلماتك أنت التي قلت أنا فيها إني أدخرك لميعاد، ولأنها سطر من كتابك أنت ولا احد سوك، فأنت كنت تنتظرين أن أقرأ لك من كتابك المفتوح كسمااء الهجرة، ألسنت معي أن هذه الكلمات كغيرها مما يقوله الحب لك ميقات من قلوبنا، بل وما تنطوي عليه شخصيتك وشخصيتي؟ أنت قد رأيت نفسك اليوم بعين حبيبك، وشعوره، وخياله!

- أرجوك لا تسافر إلا إلي!

29

وقد يغضب منها ولا يدري لم كان الغضب فيرتد إليها كأنما المساء قوة من جاذبية الكون، أو دورة من دورات العشق وإذا به يتلقاها معتذراً:

- أرق الناس، لن اغفر لنفسي إني قد أغلقت الهاتف عليك، واني قد قسوت عليك، فهذا من آلامك التي لا اعرف كيف اغفرها لنفسي، فاعفري لي أنت، ودعيني اكرر ذلك حتى تتشفعي لي في المغفرة، اعذريني يا ارق الناس، هذا ألم لا اغفره لنفسي أبدا!

فلا تذكر إلا عودته متوسلة:

- أجل! لكن أرجوك أنا سامحتك فلا تثقل على قلبك!
- عبارتك في رسالتك: لا تعود إذن! أما أنا فسوف أبقي، وانتظر!
- جعلتني لا أطيق لك الانتظار وحيدة فليت نداءك، أو نداء عبارتك
بسرعة قلبينا!

- صدقتي لم يكن عندي شك في أنك ستأتي إلي. كنت واثقة في قلبك وأنه سيأتي بك، واقسم أنها كانت أطول دقائق تمر علي!
- يظهر أنني اقرب منك إلى قلبك، ولا ترتابي في ذلك، فأنا اختيارك الحر النبيل، وكم لي في حبك من سمو، ونبل؟ لكل شيء فيك معنى، وذكرى بعيدة، أنت هي الحياة التي تعبت لكي أصل إليها، أو تصل هي إلي، لو أرتشف من حياء نغرك رحيق عذرية الحب التي أحيا بها حياتي الجديدة!

- وماذا تنتظر يا حبيبي؟!
- لا انتظار بيننا إلا انتظار الشوق، وتلبية الحب، وها أنا ألبى!
- أنت تسكنني كلي! أرجوك لا تبقي البحر بيننا!
- لقد أوضعنا موج ذلك البحر كلمات حبا التي سيسمعها كل من يجلس على شاطئيه: شاطئك، وشاطئ!
- نعم يا حبيبي!
- إلى أين يذهب بك السرور في حبا؟
- إلى كل خلية في.. إلى كل عصب يا حبيبي!
- جميل! ألا تغمضين عينيك علي حتى احلم لي ولك؟
- ها أنا افعل!

- آه! من جفونك تلك لا تغلقها على إلا وأنا معك أسير بلا إرادة
تريد. الشوق إليك يمتزج بالحياة وهي نهر أو ماء يجري بالحياة!
- أو تذكر حلمك في اليوم التالي بعد العمرة؟
- أجل أذكره!

- لقد حلمت مثلك بحمام الحرم يتناوب الوقوف على قلبي!
في اليوم التالي بعد العمرة يعود من عمله، ثم ينام القيلولة فيرى
حمام الحرم يتناوب الوقوف على قلبها، ولكن ثوب إحرامها الأبيض قد
بدله الحلم ثوبا أسود، ولم ينتبه إليه إلا وحركة الحمام العفوية تُوهن،
ويوشك أن يجهضها المجهول فناجاها: لن يفلت حزنك هذا دون أن
أتأمله أو يتأملني في حومة الحلم، لثوب إحرامك لوان. للأسود منهما
حياة ولكنها حياة حزينة، فمتى ترتدين هذا الثوب مرات لأرى تلك
الحياة التي جعلتها للون الأسود في غير ذلك الحزن؟ أرجوك تقبلي
اعتذاري عن كل لحظة من حزنك في حبنا. فهذا قلبي يخفق بما
اجهل، والله! إن كل شيء في يتعثر في حزنك؛ فلا تتبعدي عني
باختيار أبدا، دعيني اكرر هذه العبارة كلما أيقنت أن حبك مثل قلبك
راهب. لو ترسلين لي الشوق المهاجر إليك. لو ترسلينه حتى أسأله
عن حزنك. ها هو حزنك قد بداء رحلته الجديدة معي. ماذا سيكون
اللون الأسود بعد أن أحييته؟ القلب يخفق بما اجهل ولا ادري من يريد
البكاء العين أم القلب؟ تعالي حتى تسمعي ما يخفق به القلب فربما
تعرفين ما اجهله من ذلك الخفق العنيف المخيف. حزنك كتب عليه
الهجرة مثل حبنا. ماذا في هذا الحب لا يهاجر؟ ماذا في هذا الحب
يسكن لقدره ومصيره؟ آه! من حزن عينيك في ثوب الحلم وثوب

الإحرام، وآه! من هذا الخفق المخيف الغامض. لم لا تبكي العين
ليستريح القلب؟

فتناديه حمام الحرم يسترد عافيته متناوبا الوقوف على قلبها:

- طارق!

- آه! من ضعفي معك!

- أتيت! الحمد لله! أنك قد أتيت!

فيقول:

- حمام الحرم هو من يأتي بي إليك!

فتأكد له:

- وقال لي: بعد قليل ستشرق الشمس، ويجف هذا التعب من

قلبك!

- هل توضأت للصلاة؟

- أجل! وأنت من ستصلي بي!

ثم يأخذهما حمام الحرم إلى حمام البقيع، وهناك يسألها:

- أتريدين الخلاص من أعباء الحب!

فيعاتبه شغف عينيها:

- ليس للحب أعباء إلا البعاد.. لم الخلاص وكلماتك بلسم روحي،

وتعويدة قلبي؟ لا تذكره وأنت من يجيد دائما طمأنة قلبي، وهذا سبب

كاف لأحبك أبدا!

- آه منك! ومن رضاك هو غاية مناي، وغاية حبي لك!

- أنت تعرجُ بي من الدنيا، وتأخذني إلى الفردوس!

- أجل! أنا اصعد بك إلى فردوسك وأنت تدخليني إليه!

- الحمد لله! أني أراك. فقط أراك!

- لقد كشف عنك حجاب الحب يوم الحرم!

- كيف؟

- ألم أرى وقارك في رحاب الحرم؟ ألم أرى ذلك المثل الوقور الذي نقلت عنه ما أكتب؟ أجل رأيته، وكشفت عنك حجاب الحب. كم لي فيك من حجاب يا ابنة الجزيرة؟ آه من أسرارك! وكم من سر عرفت، وكم من سر لازلت اجهله؟ فمن ذا الذي يفهم منك نظرتك؟ ومن هو الذي سيرتشف رحيق قلبك؟ كم لي فيك من سر؟ وكم لي فيك من نور؟ أنت السر الأول في حبنا. أين أجد مثلك، ومن غيرك تختارني، ومن غيري يختارك؟

- معك أعرف أنه لن يصلح لي غيرك. هذه حقيقتي!

- أي والله! حقيقتك ومن يعمل ضدها ظلوم جهول! ما أسعدني بك بين حمام الحرم وحمام البقيع! أيتها الفاتنة الوقورة لا تخجلي من الحمام، ولا تنزعجي من تلهفي عليك وما فيه من احتدام، دعي ذلك الشعور يحتدم. أنا من يطوى عنك حُجبك وأسراك كل يوم، أنت كل يوم في سر جديد، لقد كشفوا عنك في قريتك حجاب الحب حين قالوا عنك: "أنت عذراء الحب". ها هو الحب يأتيك من إلهامه. قال لي الحب: حبيبتك كلها أسرار من الحب، السر الواحد منها حياة. أيتها الفاتنة، هل هي فتنة الحب أم فتنة الوقار؟ كم لي فيك من فتنة؟ "جنين قلبك" ينتظر في سماء قريتك قدوم طائر الحب!

فضحكت تذكره:

- جنيتي ستأتي بك!

قال باسم:

- لا والله! لن تفرد لطائر الحب أجنحة حتى أكون صدى نداءك، أو صدى قلبك، لن تحتاجي لمن يأتي بي إليك أبدا، أنا من سيأتي. قال لي الحب: لن ترضى عنك حتى تكون صدى نداءها، وصدى قلبها.. أيتها الوقورة الفاتنة سرك خفاؤه نور في القلب، أنت بسيطة بسيطة الماء والهواء، وكالحب إذ ما سُمي باسميك. كيف احبك فوق حبي؟ يا ليت قدري يمهلني حتى اعرف أسرارك جميعا، هل أمهلت القدر حتى يمهلني؟

فينير الشغف عينيها قائلة:

- أنت تغمرني اليوم! لا اعرف ما أقول لك غير أنني احبك. احبك جدا!

- هو ذاك الحب الذي بيننا، هو ذلك الموج الذي سيغني كلمات حبنا، وسوف تجلسين عند ذلك الموج ما بقى لك من حياة بعدي، وسوف تنظرين إلى الماء وهو سحب في سماء قريتك! فتحذره:

- إياك أن اجلس عنده وحدي!

- ربما! ولكن جلوسك إلى الموج قدر مقدور، وسماعك للغناء قدر مقدور!

فعاتبته ناظرة إلى حمام الحرم وحمام البقيع:

- ثم ماذا؟!

فقال يعتذر بغرابة أملهما:

- اغرب ما في حضورك أنه أمل الحاضر، وكأن لا شيء قبله ولا شيء بعده اذكره. هو شعور يملئ قلبي بحياة لا اعرف اسما لها. هو شعور فحسب ولكني اصدق معه إنه قد امتد بي في جذور النسل. أنت

ملاح كثيرة من الحياة. دائما تتعدد ملاحك كأنك أكثر من امرأة، وأكثر من أنثى. حبك كله إشفاق. أشفق عليك وعلي، وعلى كل ما بيننا حتى البحر والرمال والقبائل وحمام الحرم، وحمام البقيع. شعور يسمى حياة تمتد بي في الزمن لا المكان، ولكني لا اعرف لها اسما. لا تصمتي في الحلم. صمتك يستنزف حياتي وحلمي في لا شيء، يا لك من عذراء تجهل ما تفعله بصمتها. ها هو قلبي يستنزفه صمتك. ها هو صدى صوتك القديم يتردد في قلبي، ويلومني: ألا يشفع لها عندك ما كنت تحسه في صوتها، وكيف كانت تستجمع كل قواها لكي تشعر بك بأنها معك، ألم يسمو بك حيائها وخجلها وصمتها في الواقع؟ صدق القلب في إلهامه حين قال كأنك قد سافرت إليها لتفقدوها، كيف طاوحت قلبك في حبي؟ ألا تبتسمين معي؟ تعالي اقبل ابتسامتك هذه. تعالي أطبع شعورها وفكرتها في قلبي. ألهذا أنجبني قلبك تحت تلك الشجرة؟ إن مررت بها نادي على جنين قلبك فربما تسمعين له صوتا هو صوت رحمك كعاشقة!

- ومن قال إنني لا اسمع له صوتا تحت شجرتنا!
- أريد أن انظر إلى سماء القاهرة وأنا في أديم البقيع. سحابة تناديني بأنها قادمة من قريتك، فانظري إليها بقلبك وجسدك وروحك، انظري حتى أغشاك كما تغشى الأرواح الأرواح. ليل القاهرة مثلك حزين، أما سحبه فهي تتباعد جدا كأن بينها بحر مثل بحرنا الساكن بيننا، انظري معي إلى تلك السحابة التي تباعدت لها السحب، واسمعي صوت ندائها فقد تسمعين صوت قلبك وقلبي. انظري حتى اقبل ففتنتك، ويا لها من فتنة! تبعدا من الشفاه ولا تنتهي إلى الشفاه!
- رؤيتك تعبت بأدراج ذاكرتي وتفتح في صدري شرفات للغيم!

- إذ نظرت في عينيك ألا تمكينني منها حتى أصورك صورة العمر الذي مضى. أنت ماضي الحب الذي يأتي قبله المستقبل! ما هذا الرقي في جمالك الحزين؟ تعالي من حيث سكنت في ذاكرة القلب.. بتبسمك تبدد ما في اللون الأسود من وحشة، والله! إن تبسمك هذا لقلب ينبض بالأمل رغم حزنك. تبسم هو أمل ثوب الإحرام الأسود. ارفعي ذراعيك وضممني إلى تبسمك وما فيه من أمل، ودعيني أعيش حياتك من خلال وجهك وقسماته. أنت لا تفهمين ما أحبه فيك لا وقت لا وقت بيننا!

- لا تقل هذا لطفا!

- أرجوك افهمي هذا القلب انه يحيا بك وبملاحك أرجوك افهم عنه هذا!

- افهم هذا!

- انه لا يريد أبدا أن يفوته شيئا منك، لو قدر لك الآن أن تضعي يدك على قلبي ما رفعتها عنه إلا بالموت معه. موج من موج البحر يتلاطم بين قلبي وقلبك. تعالي والمس قلبي إن استطعت وإلا فدع قلبك يخبرك بالحقيقة!

ثم يودعها وحمام الحرم يودع حمام البقيع..

30

وتسافر والدتها لإجراء العملية فيسألها:

- ألا تعلمين لم سألت الأم عني وهي على سفر مرضها؟
فلا تكذب حدثه قائلة:

- بلى اعلم! أنها تظمن علي معك في غيابها!
- فيقول وهو قريير بحدثه:
- لحبنا ثقة يعرف نبليها كل من رافق حبنا!
- ثم يذكرها بأيام الإحرام:
- رؤيتك بجوار الأم وأنتما تطوفان بالحرم تعاودني، وتأخذ حنيني كله.. شعوري بكما هو شعوري بألمي فيك، فقد استرح قلبي وتفاعل بذلك الطواف، وإن قلت في نفسي حينها وأنا أنظر إليكما: في هذا الطواف أمل حبكما إن كان لحبكما أملا!
- رغم قلقلي على أُمي إلا أن خيالي كله يأخذني حيث أنت!
- هكذا يكون لقائنا في غير الأيام!
- أجل!
- وهكذا يومي كان بين الارتواء من ارتوائك، والارتواء من ظمئك، وهذا من غريب حبي لك أن أرتوي بارتوائك وأرتوي بظمئك!
- وهكذا يكون ظمأي وارتواء منك!
- الحب فيما يقوله لا يحيد عن إلهامه: " حين ترتوي هي ترتوي أنت! "، فما رأيك فيما قال الحب لك اليوم؟
- مدهش!
- ماذا قالت الأم عني!
- سألت تظمنن عليك!
- والله! سؤلها عني فيه من حنين وثقة حبك الكثير!
- هي تدعو لك بكل دعاء جميل.. وتريد أن تراك هنا!
- جميلة والله! هذه السيدة ألا تسمعينا حروف كلماتها؟

- دعت لك، تقول الله يحفظك، ويرعاك ويفتح لك أبواب خيره، ثم
- قالت بلهجتها الجنوبية الخالصة: يشهد الله إني أرتاح له!
- وبيارك فيها، ويعافيه، ولا يحزنها في حبيب أو قريب!
- اللهم آمين!
- كيف أحببت أن ترانا في قريتك؟
- في البيت هنا، أُمي تحب أن تراك هنا!
- هذا الحب من سروري بأبنتها، وسروري بأسرتها الكريمة!
- نادرا ما اختلفت معها، وإذا ما اختلفنا في أمر دون وفاق تقول
- لي: اسألي طارقا وهو يخبرك بما يجب أن يكون!
- والله! لا أمل في حبنا إلا في هذه الأم الحنون!
- أي والله! فلا تنفك تقول لي: أنا ثقّتي في طارق مثل ثقّتي فيك!
- الحمد لله! أن لحبنا أم تثق فيه ثقّتها فينا، والحمد لله أن ورم
- الأم حميد!
- الحمد لله! قال لي الدكتور أن هذا النوع من الأورام الليفية حين
- يأتي في هذا السن فأنه يتقلص.. سبحان الله! بمنه لا يمكن له أن
- ينتشر!
- الله الشافي وله في المرض أبواب من الرحمة، وليكن رجاؤنا
- فيه كحسن ظننا به، ولعل الأم صابرة راضية!
- يا رب يشفي والدتي وكل الناس!
- اللهم آمين! ألا تريدان الراحة الليلة؟
- لا! بتواجدك تكون راحتني، أو تذكر حين شعرت أُمي بأن بي
- شيء قد تغير، وقالت لي: تغيرت يا بنت! اعترفي إيش السبب؟
- أجل اذكر! وها أنا أسألك ثانية: أو اعترفت يا بنت؟

- وها أنا أجيبك ثانية..قلت لها مبتسمة: إني أحبها جدا!

وأعطيتها دوائها ثم نامت!

- يا لك من محبة!

- كانت تشعر بي بلا شك، وقد فهمت ما بي لكني سكت ولم أريد

أن أقلقها وهي مريضة!

- عافها الله! كانت تشعر بسهرك على حبك، وربما فهمت أننا

نعيد خلق الكلمات!

- يوم قرأت عليها كلماتك في طفلها المريض بكت، ثم رغبت في

أن أقرأها مرة أخرى، وها هي كلماتك الرائعة أمامي: قلت لك انه أخذ

من الحكمة رضاه بالابتلاء ليس عن عجز أو تسليم بمقدر، وإنما عن

رياضة نفسية قد ولد بها ولها! وربما كان رائدا في التفكير المفارق

للمألوف لأن الإنسان الذي يولد بالمرض يطبع على الانشغال بنقائص

الحياة.. إنه الطفل الحكيم اليوم وغدا سيكون الحكيم الطفل!

- والله! إن شعوري بك يمر من خلال هذه السيدة الحنون، ولا

ادري سر ارتباطي بقلبك، ولا ادري لماذا يخفق قلبي كلما ذكرت الأم!

- إيماني تام بأنه لا شيء يمر بداخلي لا يشعر به حبيبي، وأنا

أودعها سألتني: لم أحبيبك؟ فقلت لها: لا اعرف يا أمي! أحيانا اشعر

إني أحبه هكذا دون أسباب، فقط أحبه لأنني أحبه! لكنه يذهلني جدا

بمعرفته لكل شعور بي قبل أن أتكلم أو المح له.. أنت تفهمني أكثر

مني وهذا سبب كاف حتى ينجرف وراك القلب، هل لديك إي مانع في

أني احبك دون أسباب؟

- لا والله! فهذا هو الحب في أعرق وصدق معانيه ولولا انه بلا

أسباب ما سرنا فيه بسرعة قلوبنا!

- الحمد لله! ظننت أن حبي لك دون أسباب أمر سيزعجك!
- وكيف يزعجني؟ وحبي لك بلا أسباب وما أقوله في الحب هو وصف للمشاعر التي نما بها الحب أو وضع بذورها، أنا استيقظت من النوم لأحبك، أو نمت لأحلم بحبك، أو هاجرت لأحبك، أو شعرت بك لأحبك، أو التقيت بك لأحبك هذا كل ما في حبي لك؛ ألا تذكرين عبارتي أو شعوري بك في حديثنا الأول: لهذه الفتاة سطوة محبة للقلب، ولعلك الآن في سماء الهجرة إليها! هكذا يحدث الحب وما بعده ليس إلا وصفا لما حدث دون أن ندري ما هو السبب، والأروع من ذلك أن النساء تتوارى تماما، أو يذهبن ولا يعدن أبدا، فليس إلا المحبوبة في الوجود والقلب، والمشاعر تتولد مع كل خفقة قلب لذلك الحب يكلمك ويكلمني مثلك تماما فيما يقوله كل يوم وأرسله على أثير الهاتف، واقسم لك! إنني محاصر بالأمل فيك ولولا هذا الحصار، وعمله الخفي في وعي وخيالي لقلت العجب في مشاعري، وحبي! إن ما نقوله طريف عميق صادق كالصفاء!

- صدقت!

- حسبك من الحب أن يكون يومي بين لمسك كحقيقة والتفكير فيك كامل!

- ستوقفني كثير كلماتك: "التفكير فيك كامل" ..ها أنا أسمع كلمة أمي: لم يتبق إلا والدك!

- أتشعرين أن الأم تريد حقا لنا الارتباط أم أنها تجاربك فيما لا حيلة لها فيه؟

- أنا متأكدة من أنها تحبك، وقد قالت لي ذلك من قبل: أنا أحببته واسترحت له، ولم تجاريني! هي لا تجاريني.. لا يوجد أم تجاري أبنتها في أمر كهذا!

- حقا! اقصد أنها لا حيلة لها.. أين أنت؟

- آسفة! شردت قليلا فيما لو كان بيد أمي حيلة أم لا.. لا يوجد امرأة لا حيلة لها كما قلت لك سابقا!

- ولكن ما مدى ثقتها في نجاحنا؟

- ثقتها كبيرة جدا!

- هل أخبرتك بذلك؟

- بالطبع قالت لي ذلك! أمي تثق بي جدا، وتثق في رأيي كثيرا، ونادر ما اختلف معها في أي رأي، فما بالك شعوري بها أو شعورها هي بي؟ قالت لي ذات صباح: كيف طارق؟ هل يغيب عنك؟ وأنا أجبت: لا.. لا يغيب عني هو دائم الحضور في كل وقت، وأذكر تماما أنها قالت لي: والله! أنا ارتاح له راحة غريبة، وسألته: هل تثقين به مثلي؟ أجابت: أثق فيه مثلك، وطلبت منها أن تكرمنا بدعائها وان يكتب الله لنا كل خير! وهي أجابت أنها ستدعي بالطبع لنا، وأنها لا تعرف لم تثق أن علاقتنا ستوفق بإذن الله!

- أجل! أنت الشاهدة وأنا الغائب، ولعلك تذكرين إنني حزنت حين أخرجت عني مقالة الأم هذه، وقلت لك حينها: كان بي حزنا كبيرا لم تنزله أنت وإنما أزالته تلك السيدة الكريمة التي منحتني ثقتها رغم أنها لم تتحدث معي بحرف واحد! أنا اقدر هذه السيدة وأنت تعلمين هذا، وسيظل تقديري لها كبيرا مهما كان مصير علاقتي بك!

- أجل! هي جديرة بذلك، وقد قالت تأكد ما تشعر به في صدقك مع نفسك ومعى: هو صادق حتى ولو لم يكتب لكما نصيبا!
- أجل! هو الصدق مع النفس ومعك، والله! أنها سيدة جديرة بالاحترام!

- أمي مثلي لا تعرف كيف تسلم ثققتها، أو حتى عقلها، أو حتى قلبها لأي احد، هي لا تعرفك إلا من حديثي وتصديقك كما يصدقك كل من يعرفني!

- حين قلت لك أن أنبل ما في حبنا، وأدوم ما فيه الثقة بيننا قلتها وأنا اعلم تمام العلم بأنك شخصية تكتشف الآخرين. تكتشفهم وتجد متعة في ذلك، ولكنها لا تمنحهم ثققتها إلا بشق الأنفس.. لقد أحببتك لأنك اختارتي وأنت على يقين من أي جدير بك وجدير بثقتك، وهذا من عمق حبنا؛ فأنا مثلك اكتشف الآخرين ولا امنحهم ثقتي إلا وهم يثقون في ثقته في أنفسهم!

- حقيقي جدا ما قلت، وأنا أسعد بثقتك كما أسعد بقلبك، وحين حزنيت من تأخير لي لمقالة الأم عنك خشيت خصامك!

- لا خصام بيننا هو العتاب الجميل، كل لحظة معك هي نبض قلبي، أو هي حياة بكل ما تحمله الكلمة من معنى. ثقتك في هي ما أدور في فلكها، وهي التي تجذبني بجاذبيتها، وإن لتلك الجاذبية لحكمة تتأدب بأدبها ما بقى حبنا في القلوب!

- أجل! ما بقى حبنا في القلوب!

- اعذريني كلما استطعت، أو كلما قلت لك: لست أنا من يسبب لك المشاكل مع أسرتك لأنك بطبيعتك مسالمة ومعتزة بأسرتك، وقد اخترت منذ وقت مبكر جدا أن تكوني أما لطفلين عزيزين، ولها في

حبها كل هذه المشاعر، وغيرها مما يجعلني في حساسية مفرطة في أمرك وأمر أسرتك!

- والله! انك لا تسبب لي أي مشكلة مع عائلتي، هنا أمي تعرفك ولا تخصمني، والبنات يعرفنك ولم يخصمنني.. لا احد يخصمني بسببك، واقسم بالله إنهن جميعا يردن لعلاقتنا التوفيق!

- إن شاء رب العباد!

- ثم إنني لم أخبرك بأن العمة حلمت برجل مصري يتقدم لخطبتي، وقد باركت العائلة الخطوبة، حكّت لي الحلم، وضحكت وقالت: "هذي آخرة اللي يجلس معك يصير مصري!"

- شعوري الغالب علي أن هذه السيدة تنتظرها حياة حافلة! يا رب يكون هذا الشعور حقيقة وليس مجرد إعجاب بها أو ورجاء. أنا أقدر العمة وافهم ما في نفسها من حياة، وما في عقلها من أحلام!

- العمة قالت لي مرة لا تتراجع عن شيء أنت مؤمنة به لأن

ثمن التراجع عمر يا ابنتي! وكانت تهتم بالقراءة كثيرا، وكان عندها مكتبة كبيرة جدا في الطابق السفلي، وللأسف قد أحرقت كل ما فيه بعد وفاة جدتي رحمها الله! ولم تدخله منذ أحرقت كل ذكرياتها فيه حتى يومنا هذا!

. أجل! فهي العصماء.. لحبها عصمة من نذرت نفسها للوفاء!

. ولادة أخي وبقائه معها شهور طويلة وأمي في باريس مع طفلها

المريض الصغير جدا أعطها شعورا جديدا بالحياة!

. قلولي لها أن مثلها تذكر بعد ذهاب الراحلين!

. أخي الذي بقى معها اليوم رسم لها قلبين صغيرين على ورقة في
كراس الرسم. قلب له وقلب لها وقال هذا قلبي وقلبك خديهما معك,
ووضعهما لها في حقيبتها قبل أن تذهب إلى بيتها في أبها!
. أجل! فهي قلب كبير يعتصم بالذكرى.. قلبي لها: ما نصيبك من
الذكرى يا عماه؟

. ما تظن نصيبها منها؟
. نصيبها من الذكرى يأتي بعد الحياة! ما أروعها من سيدة, نعم
سيدة, رأيت تلك العصماء التي تعتصم بقلبها?
. ورأيت تلك العيون ونظرتها!
. سيدة تلهم الخيال وتضعف القلب. حبيبة إلى الضمير حبيبة إلى
النفس!

. شفاه حزينة حزن عينيها.. ماذا فيك سعيدا يا عماه؟ والله إن
جمالك وأنوثتك لم ينقص الحزن منهما شيئا, هذا الجمال من جمال
الضمائر الحية, وهذه الأنوثة لا تنتظر شيئا سوى نداء الأمومة!
. والله! إن ضميري يحب هذه السيدة, وقد صدق حدثي في أن
جمالها من جمال الضمير.. ما اقرب روحها إلى معاني الضمير
والقداسة!

. الحياة تريدها فلماذا لا تريدين أنت الحياة!؟ ستبقى ملامحك هذه
في ضميري, وما بال هذه السكينة في عيني, كيف يغشاها مثل هذا
الحزن والعزوف؟ عن أي شيء تعرضين؟ عن نفسك وضميرك الحي؟
أم عن نصيبك الهين من الحياة؟ ما أهون نصيبك منها إن قيس بقلبك
الكبير, والله! إنني أرى في جمالك ضمير الإنسان الحي!
. هذه السيدة من ودائع الضمير!

- عمتي طيبة القلب جدا وحنونة للغاية. أعطت في حياتها ولم تفكر أن تأخذ مقابل عطائها مطلقا !
- يجب أن تتزوج هذه السيدة الممتلئة بالحياة!
- الحزن سكن عينيها منذ زمن بعيدا! وفاة جدتي اثر بها جدا , وهي بطبيعتها حساسة جدا !
- أجل إنها لتسعى في الماضي قدما.. أنا لا أراها إلا عائدة دوما لماضيها!
- أجل حتى أنها باعت منزلها الجديد في أبها وعادت للبيت القديم.
البيت الذي ولدت فيه , وعاشت فيه أجمل سنين عمرها كما تقول.
قالت لي مرة: هذا البيت ولا ألف قصر يساويه عندي يا ابنتي! ولا تنفك تحدثني عن جيرانهم القداماء . جيران الحي , وأقرباء والدتها..
أبها بالنسبة لعمتي ذكريات , وذلك الحي بالذات أمتلى بذكرياتها..عمتي إنسانة تحيي على ما في ضميرها!
- لم تقولي لنا هل سمعت الأم بحلم العمة؟
- نعم! وضحكت قائلة: إذن سنزوجهها من مصر انتهى الأمر! و البنات يقلن أحلام عمتي تصبح حقيقة!
- حسبك من الحب أن يكون يومي بين لمسك كحقيقة والتفكير فيك كامل!
- أنا تتلمذت على يد مصريات في الجامعة لهن سنوات طويلة في السعودية , وكان معهن دكتور مصري.. ويقيم في أبها مصريون كثيرون يدرسون في جامعتنا.. والمصريات يتزوجن من سعوديين , أعرف شيئا هنا متزوج مصرية , وأعرف مصري تزوج من سعودية وهي الآن مرتاحة معه هكذا تقول..المصري هنا يُقدر جدا , ويحترم

جدا..والدي مثلاً يقدر المصريين ويحترمهم كثيراً، وله أصدقاء مصريون.. يا حبيب القلب وعيونه، ادع الله عز وجل! مثلي لدي شعور إنني سأجتمع بك!

- ونعم بالله! المصري عنده آداب موروثة قبل الإسلام.. والرسول الكريم قال عنهم إنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة، والمصري بطبعه مهذب، ويحكمه في جميع تصرفاته آداب الأسرة!

- أنا على ثقة إن والدي سيحبك!

- للرجل مودة خفية في قلبي كما قلت لك!

- اعلم ذلك!

- وأنا حين أقول ذلك أقوله بمعزل عن ضلال مشاعري تجاهك، فأنا لا اغرق في الأوهام وأعرف ما لي، وما للحقيقة المجردة عني وعن خيالي ومنطقه. أنا لا أترك شعورا، أو فكرة إلا وقلبتها على كافة الوجوه..أنا صديق نفسي في أحيان كثيرة!

- وهل قلبت شعورك تجاهي على كافة الوجوه؟ ثم ما كانت النتيجة؟

- شعوري بك هو شعور البداهة القلبية، والغريب إن النظرة الأولى لك كنت اتجه بها نحو المعشوقة وإذا بي انظر إليك كمن يتفقد زوجته؛ وبالتالي اجتمع لدي منك المعشوقة والزوجة فلم استطيع مراجعة نفسي، وأطلقت العنان لقلبي لأن لا مراجعة مع حكم البديهة!

- وإذا بي انظر إليك كمن يتفقد زوجته! بحبك!

- كم أحب أحاديثك، وروحك الملموسة في ثقافتك وتربيتك، ثم أنك لم تتكلفني في شعور واحد أبدا، أو حتى تتمنعي ذلك التمتع الذي لا معنى له!

- أنا قليلة الصبر فلتأتي إلي قبل أن اذهب إليك!
- أنا المهاجر وأنت من تنتظر!
- على فكرة أنا قرأت على أمي عبارتك لوالدي: أن في مصر من يحب أسرتك!
- وماذا قال وجهها قبل لسانها؟
- ابتسمت ابتسامة جميلة وقالت اممممممممم! وهزت رأسها!
- ونور قالت يحب الأسرة كلها؟ ولأجل عين تكرم مدينة!
- حين تعود الأم بالسلامة، وقد فتح الله بينها وبين مرضها بابا من أبواب رحمته؛ قولي لها إني وكي لها الحاضر عنها في الخوف عليك! حان صلاة الفجر وفي حبك معنى للفجر!
- هنا أيضا حان صلاة الفجر.. أحبك!
- ها أنا أوصلها من ثغرك إلى القلب !

31

حين أرسل إليها طارق كتابيه عن طريق دار النشر حرص والدها على قرأتها، ولما فرغ من إحداها أسلمها إياه بعد أن قرأ كلمات الإهداء بصوت مسموع: " الآتسة الأدبية قد علمنا ما لك في لغة العرب من نصيب، ولعله وافر بحسك وذوقك الراقين ولمثل هذا الرقى اهدي عملي هذا! "، ثم قال لها: هذا الكاتب يقول كلاما جميلا ولكنه " مو سهل! "، ولما قرأ الكتاب الثاني وأسلمها إياه قال لها: هذا الكاتب فنان موهوب.. وكان ذلك في حفل العشاء أو الوليمة التي دع إليها والدها بمناسبة شفاء الأم ونجاح عملياتها، وبعد الحفل التقت بطارق

وأخبرته بما قال الوالد ففرح ولكنه اقتصد في فرحه، وقال يهنئها على نجاح عملية الأم:

- حمد لله على سلامتها!

فشكرته قائلة:

- منذ خروجها من المشفى لم تسألني إلا كيف طارق؟

فسألها:

- والسيد الوالد؟

قالت:

- والدي يحب مصر كثيرا، وهو يثق بي وقد إعطانا الثقة في كل شيء، ونحن البنات نفخر بهذه الثقة، ويقدر ثقته هذه أشق انه سيتفهم الأمر كله. اليوم كنت أتحدث مع أمي في الصباح عنك بعد أن خرج أبي والبنات لعيادة طبيب العيون. جلسنا بعد الفطور، ومن حديث لحديث إلى أن وصلنا إليك، ووالله! قلت لها: ليس هناك مثلك يناسب أبنتك، فتبسمت! والحقيقة إنني لم أرغب أن أرهقها بالكلام، ولكنها قالت: أنا لست بساهية عما قلت!

- ثم؟

- ما إن خرج والدي إلا وقالت: وأنا يعني مالي كتابا؟

- راقية في مشاعرها مثل ابنتها، منذ ثقته في وأنا أكن لهذه السيدة محبة وتقدير، ولا انفك اذكرها وأعجب بهذه الأم التي حملتني مثل ابنتها أمانة تلك الثقة. شكرا لهذه السيدة على ثقته التي تقول لك أنت جدير بها وبابنتي. هي الفطرة النقية التي تحسن الظن حين يكون حسن الظن مغنما، شكرا لهذا السيدة الكبيرة في نفسها والكبيرة في تقدير الناس، لقد أحببت تلك الأسرة وأنا اعتر بذلك الحب!

- شكرا لك يا حبيبي! وبالمناسبة البنات البارحة ونحن نتحدث هنا
كن يناديني، ويتكلمن وما إن يفرغن من حديثهن الذي لم أركز فيه
حتى يسألنني: ماذا قلنا يا فلانة؟ ناهد أعلنت مقاطعتها لي بالأمس
لأنها ونور تكلمتا معي أكثر من مرة، ولم انتبه لحديثهما، وما إن
أنهيت حديثي معك لأحدثهن إلا ونور تقول: لن نستمع لك إحنا طول
اليوم نتكلم وأنت ولا أنت هنا!

- وماذا عن اليوم ألا تزال المقاطعة مستمرة؟
- كن نسين أمرها وتذكرنها الآن، وها هن على رأسي ولا يترككني
اكتب لك!

- هذا حصار لا مقاطعة! كان بودي التدخل!
- كنت سأطلب منك أن تتدخل!
- وأنا على أتم الاستعداد بشرط موافقة الأطراف كلها، أظن أن نورا
سوف توافق، أما ناهد فربما ترددت!

- العكس هو ما حدث ناهد أعجبها تدخلك، ونور تحتج!
- نعم! هذا ما أردت أن استدرك به نورا إلى الموافقة، ولعلها الآن
نادمة.. لماذا لا اسمع صوتها؟

- تريد أن تستمع لك!
- وكيف تستمع لي وهي تعترض على تدخلتي؟
- هي اعترضت لأنها تريد أن يستمر الحصار كعقوبة!
- وأنا معها بشرط أن تريد ناهد ذلك!
- ناهد راق لها جدا أن تتدخل لكنها مع الحصار طبعاً!
- إذن لم افلح في شق الصف المتكتل ضدك. أنا ضد الحصار
والمقاطعة ما لم اعرف الأسباب فورا من أصحاب الحصار والمقاطعة!

- أما أسباب الحصار فهي تركيزي معك وليس معهن!
- هذا سبب ينصفك منهما ولا تستوجب حصارا ولا مقاطعة إن
شعرتا بما تشعرين به أنت!

- فأتين تغفر لي دائما إن نادت على ولم انتبه!
- أنا عندي اقتراح أو اختبار إن نجحتا فيه سوف انضم إليهما!
- أي اقتراح هذا؟
- عليهما أن يكملا هذه البيت لابن الرومي وهو: أعي الهوى كل
ذي عقل فلست ترى إلا صحيحا له حالات؟
- تحمسن البنات!
- أنا في انتظارهن!
- وأنا معك انتظرن!
- أين المقاطعات؟ بل أين المحاصرات منك، ومني، ومن ابن
الرومي؟

- ههههههه! هن في ورطة الآن!
- ماذا عندك؟ أظن أن الحصار قد تقوض والمقاطعة غير مجدية!
- هههههههههه! إي والله! نجحت في فض الحصار.. تقول ناهد
في تكملة البيت: له حالات مجنون!
- هن لنا لا علينا إذن؟
- أجل! هن الآن معي ومعك!
- من أكمل البيت؟
- ناهد!

- يا لها من ناهد! على أية حال بما أنها قد أكملتة فهي أولى من غيرها بتفهم مشاعرك، ولزاما عليها أن تتضامن معك، ولكن هل أنت به من الذاكرة أم من البحث؟
- صدقا من البحث، وقد قالت وهي تبحث لعله لا يراني، وترجتي ألا أخبرك!
- لا حاجة لها وإنما الحجة الآن عليها بعد أن عرفت ما يقول ابن الرومي في أحوال المحبين!
- صدقت! وقد فهمت هي ونور لم هذا البيت بالذات!
- أين هي من تريد أن تحاصرك؟ بل أين من عجزتا عن أكمال البيت، أو زالتا على حصارهما؟ أظن أن الحصار تقوض، ولا صوت عندك غير صوت الموافقة على فض الحصار!
- البنات ابتعدن الآن وتركني وقلبي أخيرا، ما كان لينفض الحصار لولا تدخل طارق القلب! لو تنتظر إليهن الآن!
- ماذا عندك؟
- سكووووت! حزينات لأنهن لم يكملن البيت!
- أنت الآن من تحاصرن!
- يا لك من رجل! يعرف كيف يدافع عن حبيبته. أنت أوصلت رسالة مهمة لهن. فقد سكتن تماما بعد معرفة معنى البيت كاملا، وخاصة التكملة التي طلبتها من هن!
- هذه هي الأسرة في شمانلها الكريمة، ما أكرمها من أسرة تعرف للحصار موضعه، وللحق موضعه اشكرهن جميعا، ولكن قلولي لهن فا ليترقبن الاختبار القادم!

- ههههه! ناهد تقول: لطفا اسألها في الرياضيات بعيدا عن ابن الرومي حتى تكسب!
- قللي لها هذا ظني بها!
- وهي تشكر! ولكنها تسألك: أو صحيح أن الخط المستقيم هو الأقرب بين النقطتين؟
- قللي لها: لا.. فالخط المنحني هو الأقرب بين نقطتين وليس الخط المستقيم هذا ما يفترضه الفيزيائيون، ويقولون إن المكان في الكون منحني، أو يتمدد، أو يتشوه، أو يتمزق من السرعات العالية.. أحب أن اسمع تعليقها!
- تقول أنها تريد أن تتخصص في الرياضيات وحبذا لو وجدت معلما يشرح لها كما فعلت الآن بطريقة سهلة بعيدة عن التعقيد!
- اشكري هن جميعا، وأنا أتمنى لها وللأسرة الكريمة الستر والرضا من المولى عز وجل، واخبري الأخوات إنني أحبهن، وأقدرهن ولم أشك لحظة في أنهن جديرات بكل إخلاص ومودة!
- وهن أيضا يبادلنك هذه المحبة!
- البنات سعدن بنا ويحبنا لعلّي أكون قريبا من قلوبهن!
- نعم! وسعدن بحديثك اليوم معهن!
- الحمد لله! وأنت إلى أين تذهب بك مشاعرك أو إحساسك في مصير علاقتنا؟
- لا فكر لي إلا في أسرتي أنا وأنت.. هذا هو البعيد القريب يقول لي قلبي: أن الله عز وجل قادر بدعائك أن يقرب البعيد!
- ونعم بالله! ولكن أنت أكثر إصرارا على نجاحها والمضي فيها؟
- بكل تأكيد! وأنت؟

- الشعور الأول هو الشعور الأخير إن كنت تذكرين؟
- أجل اذكر! واليوم وأنا أقرأ أحاديثنا مررت بهذه العبارة ودونتها في دفترتي الخاص بأحاديثنا!
- جميل! ولعل السيد الوالد كان حريصا على ألا يبدي أية انطباع فيما يخص الرواية حتى يفرغ من قراءتها!
- ما لاحظته أنا وأمي انه كان مهتما لأمر الرواية. اقصد قراءتها.
- بابا متذوق للأدب ويعشق المتنبي!
- جميل! وأنا اقدر شاعر العربية الكبير!
- هو شاعر العائلة الأول!
- وشاعر حبيبك الأول، ولا انقطع عن قراءته، وكان يعينني جدا أن اعرف رأي الوالد فيما اكتب ما دم من المحبين للمتنبي!
- وأنا كنت على وشك أن أسأله عنها فلم يكن لي طاقة بتحمل صمته!
- ها هو قد أرحك! ما يشغني الآن عين نور، فماذا عنها؟
- أنت تأتي بذكرها وهي تشعر فتأتي ثانية! الحمد لله! لكنها تهمل كثيرا في تنشيط عينها الثانية!
- هذا خطأ كبير يا نور، أرجوك قللي لها ربما كان في اسمها حياتها الكاملة التي اختار القدر كل تفصيلاتها. أرجوك قللي لها أنها ستكون دائما وأبدا مع القدر. أرجوك قللي لها إن القدر يحبها، ويصطفئها فلا ينبغي أن تهمل في عينيها أبدا!
- لم القدر يحبها ويصطفئها؟
- شعوري الغالب علي أن لهذه الأسرة علاقة حميمة بالقدر! فكل فرد من أفرادها لن تكون أردته إلا إرادة القدر؛ فكلهم في ابتلاء، وأظن

أن الإرادة الصلبة والحياة العميقة هي محصلة علاقتهم بالقدر. أريد أن أقول إن السعادة والشقاء صورة لإرادة ونفس كل شخصية في الآسرة الكريمة مع المرض.. حين يقترب معنى السعادة والشقاء في القلوب فالفائز هو الإنسان!

- أظن أنها ليست على ما يرام، فقد خاصمتها في إهمالها لعينها وكنت قاسية معها!

- أرجوك قول لها فوراً أنت صورة رائعة للقدر، وسوف يقترب في قلبها معنى السعادة والشقاء لتفوز هي بالإنسانة التي تأملها لنفسها وحلمها. أرجوك قل لي لها ذلك، وقولي لها سارعي إلي اختيار قدرك لأنه قد اصطفاك!

- وهل نختار أقدارنا؟

- نعم! إذا كان القدر لا يكف عن ابتلائنا فنحن الذين نختاره ولو في نهاية المطاف!

- ها هي تقرأ ما قلته!

- أتوافقني في أننا نختار القدر إن كان القدر لا يكف عن ابتلائنا! هي لا تعرف بما تجيبك!

- أجل يا عزيزتي! لن تجيبي الآن لأنك لست في حاجة إلي تلك الإجابة، ولكن لا بد أن تعي أن القدر قد وقع اختياره عليك لتكون مثله في صلابته.. شكراً نور لصبرك علي فأنا والله قد خاطبني قلبي فيك فقلت ما قلت، طمئنيني عليك دائماً!

- ها هي تجيبك: إن شاء الله! شكراً لاهتمامك، ولك السلامة دائماً والرفقة مع الله!

- لا تنسي نفسك يا آنستي العزيزة! أرجوك اذكري نفسك هذه!

- تقول لك: النفس أحيانا هي من تنسانا!
- قلولي لها: فلنذكرها نحن كلما نسينا!
- تعيد شكرها، ودعائها!
- ولتكن في حفظ الله ورعايته، وفي رفقته دائما! الخجل لم يعطيها فرصة لأقربها من نفسها وهي في أمس الحاجة إلى ذلك!
- نعم.. هي تقول أنها في غاية الخجل منك!
- وليكن.. فهذه مرة سيكون وراءها مرات!
- إن شاء الله!
- قلبي كما قلت لك قد خاطبني في هذه العزيرة،
- ويظهر أنها كانت تريد أن تسمع ذلك من احد!
- وما تأثير خطابي عليها!
- كانت سعيدة به غير أنها تقول: لا أعرف بما أجيبك!
- هذه العزيرة سوف تصاحب القدر كأنه زوج لها! ألم تخبريها بما قلته عنها منذ أيام؟
- نعم.. وقد تأثرت جدا بما قلته لأنني قرأته عليها!
- وما قولها؟
- بكت!
- ألم تعلق؟
- بكت فقط! وأكدت إن كلامك صح خاصة الفراغ الذي تشعر به بسبب مرض عينيها. يظهر أنها تمر بأزمة ما.. بها شيء لا تفصح عنه!

- أخشى أن يكون لمرضها علاقة بما تشعر به من رجة في حياتها، وربما كانت تتأهب للثورة على نفسها وواقعها، ومرضها، أو قدرها!

- لا اعرف! يا ليتها تتوافق مع مرضها!

- لابد أن تقتربي منها، وتتفهمي حالتها النفسية في هذه المرحلة من عمرها، وهذا طبيعي جدا ومتوقع، فلا تقلقي!
- إنها تعيش في فراغ مطبق!

- نعم فراغ عاطفي ونفسي، ما يحدثه المرض فينا من فراغ لهو فراغ قاتل، ولاسيما إذا ما كان له علاقة بالبصر، ولكنها سوف تتعايش معه بإذن الله.. ما تعيشه الآن هو مرحلة مهمة في حياتها، أو في رياضتها النفسية مع المرض، وأظن أن التعجيل بهذه المرحلة أفضل في منعة الشباب، ولكنها لابد أن تتكلم كثيرا.. اهتمي بها في هذه المرحلة، أنها تتناسى النظارة الطبية كأنها ليست مريضة!

- بكاؤها المنى كثيرا!

- قولي لها إنني أسأل عنها دائما، وكنت أحب أن أقرأ ما تكتب فهذا سيساعدني على الترويح عنها، أو تقريبها لنفسها أكثر. ألم تتحدثي معها؟

- تحدثنا فذهبت تبحث عن الفراغ النفسي في "جوجل"! لقد بكت. بكت كثيرا، وسألتها: طارق معه حق؟ فقالت: نعم.. وسألتني إيش يقصد بالفراغ النفسي؟ وراحت تبحث عنه في "جوجل"!

- الفراغ النفسي الذي اعنيه ألا يجد الإنسان نفسه، وقد يشعر بغربة عنها، وعمن حوله، واعني به أن يفقد الإنسان الرغبة في

الحركة، والتأمل.. ألم تنقلي لها عبارتي: أنها في معية الله ولن يضيعها؟

- نعم قرأتها لها.

- أين ما تكتبه فهو مهم جدا بالنسبة لي، لاحظي أنها لا تتكلم

كثيرا!

- نعم! لكني لا أستطيع أن أرسل شيئا هي تخفيه أصلا عن الجميع، فلا أصدقاء لها أنا صديقتها الوحيدة. كنت مرة خارجة إلى أصدقائي ثم قالت وهي جالسة بسريري: أنا لا يوجد لي أصدقاء مثلك اخرج معهن، وقع هذا في قلبي ولا أنساه، اذكر إنني تجاهلت غصتي وضحكت قائلة لها: أنا صديقتك، وناهد صديقتك، وفاتن صديقتك، فهي لا تبرح تقضي يومها على أجهزتها الحديثة، ونخرج معا أنا وهي، ونقوم بالرياضة معا، ولنا نفس الاهتمامات، والكثير من آرائها توافق رأيي!

- وما نوع الكتب التي تقرأها؟

- الشعر.

- طبعا! فمثلها جل اهتمامها بالشعر، وبمن تهتم من الشعراء؟

- أشعار بدر بن عبد المحسن، وأشعار خالد الفيصل، وطبعا

الكبير محمود درويش، وتحب شعر حافظ إبراهيم، وتقرأ روايات وخاصة تلك التي يكتبها الكاتب عبده خال!

- ألم يتقدم احد لخطبتها؟

- بلى! يتقدم لها وهي ترفض.. ترفض لأنها لا تريد الزواج!

- أجل! فهي تخاف ألا تقوم بواجباته كما ينبغي! أسرتك هذه

كريمة جدا مع المرض.. الحمد لله! ولكني لا اخفي عليك عذابي

ببعدي عنك لقد أشعرتني مرض نور، ومن قبل السيد الوالد وأبنة
العزیز، والأم بمرارة هذا البعد المقيت! تعالی نصل لقطرات الندی الذي
سعت إليها في يومي هذا، جميل أن يكون لرمالك ذاك الندی. أعرف
أنك في دير حبك ومغلقة عليك الأبواب، فلم أغلقت أبوابه الليلة يا
حبيبتي؟ وهل أنا أخذت شعورك في هذه العبارة؟

- أجل! أخذت هذا الشعور، أو هو هرب إليك!
- يومي كله عشته في سراب تلك الرمال، أخوض فيها لأصل
إليك، كيف يُقطع علينا وعلي الحب طريق الرمال؟ ألم ما بعده ألم أنا
أكون قعيد القاهرة!

- لم تجاهلت ثغري الليلة؟
- السعي إليك شغلني حتى عن ندى ثغرك، وأنت ما شغلك؟
- وهو السعي إليك ما شغلني، ولم أغلق أي باب اليوم دونك، فقط
أشعر إنني القريبة من نور جدا، والبعيدة عنها جدا هذا شعور بالنسبة
لي قاتل!

- أجل يا حبيبتي! هي ذاتها بعيدة عن نفسها! أعلم بأنك شاردة،
ويكاد قلبك يتحلل من كل قيد، هل يخفق قلبك الآن؟
- أجل يا حبيبتي!

- بعدي عنك يسلبني الطمأنينة عليك، وعلى البنات والغلامين
العزیزين!

- لا أرجوك! لا تفعل هذا بقلبك، ولا تحمل هذا الهم أيضا!

- أنا يا حبيبتي، همي الأكبر بعدي عنك!

- وأنا لا أريد إلا أنت هنا!

- ما ظنك بإنسان على يقين من أن حبيبته قد أعطته ماضيها كله، وحاضرها كله، ومستقبلها كله ثم هو بعيد قعيد بلده؟ غصة في القلب، لو تضعين يدك على قلبي، لو تبددين هذه الغصة!
- ها أنا يا حبيبي اجمع قواي واقهر المسافة والشم ثغرك!
- تعالى بكل ما فيك إلي القلب المتلهف عليك. تعالى نمران على شجرتنا، وانغمر في أعماقك انغماري في كل ندى لك، ولا فرق بين يقظة و منام، أو واقع و خيال!
- بحبك! حتى شجرتنا مشتاقة لك!
- تعالى لوداعنا!
- أنت تتعمد فعل هذا بي!
- أي فعل؟ ألا تسمعين صوت المطر أنه شلال البداية يهدر بنا، فلم العجب أن نطلب النجاة من الوداع؟ تعالى إليه فلا حيلة لنا فيه ولا في هدير الشلال.. فيم تشردين؟ لهذا الصمت شلال يهدر، ألم تبكي هناك؟
- أجل بكيت يا حبيبي! بكيت وأنا انصهر فيك وبك!
- أو ناديت علي اليوم؟
- كما أنادي عليك في المنام!
- تعالى نتجو بالوداع فالصبر ضجر منا الليلة!
- فقدت نفسي منذ ليل البارحة والآن عادت بفضلك. بحبك!
- وأنا الساعي إليك يفر من رمالك في رمالك، آه! منك لا تريدن لي النجاة بالوداع!
- تطلبت النجاة بالوداع وأنا الغريقة!
- طبعاً! وهكذا تطلب عذراء الحب الوداع لتغرق!

على أثير هاتفها المحمول كتب تقول: "اليوم في حفل تخرج ناهد
أختي كان لمصر حضورا وأي حضور!؟" فاستقبلها في المساء قائلا:
- يا لك من محبوبة تجهل أن حضورها دائم. فهي معي دائما!
- ههههه! والله! كنت أعلم اليوم بذات أني سأعاكسك وأنت تكتب!
- هو ذاك، شغلتنى كثيرا. كنت تقطعين على أفكاري وخواطري
حتى أنني كنت انهض لمراجعة الفكرة أو الحدث كأني ابتعد عنك قليلا،
ثم أعود فأجدك إلى جوارى كما تركتك!
- أي والله! لابد أن تعرف أمرا في غاية الأهمية حبيبتيك جدا
شقية!
- وحبيبك يحب أن يلمس تلك الشقاوة بيديه لا بقلبه فقط.. لقد
فرحت بقلبي الذي احبك، ويراقبك وأنت هناك، ويستأذنك وأنت هنا!
- بحبك!
- لن اسمح لك بالابتعاد عني لحظة الإلهام، لقد انكشف عني
حجاب الحب منذ قلت: نحن على مذبح الفداء! فهاهو الإنسان في
يسجن الفنان بقضبان من حبك. قلت لك إنى إذا ما رأيتك عرفتك ولو
سألت عنك قبل لحظة لقلت: أنا لا أعرفها! لم استغرب ثورتك على
الأعراف في أول حديثنا، بل كان لدي يقين من أن ثورتك هذه على
الأعراف سوف تتحول معي أنا وليس معي غيري، سوف تتحول من
ثورة إلى مرارة ويأس عقيم، كنت موقنا من أنك تشورين من أجل حب
لم يقع بعد ولكنه سيحدث عما قليل؛ وحينئذ ستنفذ الثورة ونارها إلى
قلبك وحده وليس إلى أقرب معلم من معالم مدينتك!

- والثورة ونارها نفذت إلى قلبي صدقت، وأنا لا أفكر في مرارة هذه الثورة، ويأسها وعقمها، ولا يهمني إلى أي حد سيحرقني قلبي!
- لقد عاتبت فيك القدر، وربني منه أن يضعنا على مذبح الفداء، ثم يقطع علينا سبل الوصال!

- أي محب أنت لهذه العذراء على حبها.؟! أنت تتجاوز بي عما في خيالي، وتأخذني بعيدا.. بعيدا! واقصد عما في خيالي صورة خيالية قد رسمتها لحبيب لم أظن أنني سأعرفه يوما.. أوريد لو أسخط على القدر لكني أخاف أن يغضب فيحول بيني وبينك أكثر.. الآن اشعر بغصة لم اشعر بها من قبل، لم أنا هنا، لم أنت هناك؟!

- العبت بك يا بنية، عبت بقلبي!
- أعرف أنك لا تعبت بي ولا بقلبك!
- القدر جعل للحب طائرا سيطل في سماء الهجرة حتى سقوط الموت المفاجأ!

- لا تقل سقوط الموت! أرجوك لا تخيفني!
- ربما عرفتني كفكرة أو كمعنى يحتاج وقتا لفهمه، ولكني كنت أعرف أن تعمقك في فهمني سوف يؤلمك جدا، وسوف يُدمي قلبك الراهب. كنت أريد أن اعرف كل أسرارك في اقصر وقت متاح. كنت أعرف أنني قد أخذت منك ما لم تستطيعي استرداده أبدا. حين قلت لك: سنكون مثالا للصدقة قد كتمت عنك ما يريد أن يقوله القلب، وهو: سنكون مثالا للحب تتردد أصداء سيرته فيما وراء الجزيرة!

- حين قلت أننا سنكون مثالا للصدقة كنت أعرف أن قلبك يقول: مثالا للحب، والله! كنت أعرف رغم كل شيء يحول بيننا.. والله! إني

فتاة محظوظة. كنت اعتقد إنني فتاة بلا حظ، والله! أنا فتاة محظوظة

جداً بك وبقلبك وبحبك رغم كل الظروف!

- كل شيء فيك جدير بحبيبك!

- عسى القدر يخبئ لنا شيئاً جميلاً، وإن لم يفعل فلا بأس

بالوحدة على أن يقترب مني غيرك، سأستمر في الإبحار معك على

متن زورقتنا!

- الحمد لله إنني قد عرفت الحب بك!

- وأنا أيضاً احمد الله أنني عرفت الحب بك، برسالتني اليوم إليك

أحببت أن يكون لك حضوراً مثل حضور مصر في حفل تخرج ناهد،

لقد كان لمصر حضوراً طاعياً! قلت لنفسى حتى هنا يا مصر في حفل

تخرج ناهد الصغيرة تلحقين بي.. استمتعت كثيراً.. كان حفلاً رائعاً!

- تهانينا الخالصة، وألف مبروك لنا بعة الرياضيات! حضرت مصر

في احتفالكم إلا أنا!

- لا! أنت هو مصر لذلك أرسلت إليك وأنا في الحفل!

- شكراً لأرق الناس!

- أنا رأيته في وجوه كل الحاضرين!

- ألم تسال الأم عني ولو بالعينين؟

- أي والله! تفعل.. وتنظر إلي وتطيل النظر، ثم ابتسم لها.. أظنها

باتت تعرف حالك من حالي!

- هو ذاك يا بنية، وماذا عن أحاديث الأخوات؟ أما أنه الصمت

المعبر!

- أي والله الصمت المعبر!

- الحمد لله! إنني صادفتك في الوقت المناسب لك!

- أي والله! الحمد لله!
- لن أجد مثلك كثيرا وربما لا تجدين مثلي كثيرا.. هو أنا من ظهر في وقته!
- لن أجد مثلك لا كثيرا ولا قليلا!
- لأنك فلانة وليس لأنني فلان!
- بل لأنك طارق فقط!
- وليكن ذاك هو إيقاع حبنا ومشاعرنا!
- أحبك! هل أخذتها إلى حيث تعرف؟
- مع كل خفقة أمر على ثغرك!
- وليكن خفقا ومرورا!
- أنا ما زلت اجمع شتات قلبي ولم افرغ لك بعد! هل رفعت يدك إلى شفاه حبيبك؟
- طبعاً!
- هل قلت لحبيبك كلمة الحب حتى يأخذها إلى حيث تعلمين؟
- بحبك!
- لشفاك نكهة الظمأ فمتى يرتوي حبيبك؟
- بحبك!
- حبيبك يعجز عن الابتعاد عن نكهة الظمأ!
- لا يبتعد إذن!

في معظم أيام العمرة كان صائد الإطلاق يطمئنا على طارق هاتفيا،
 وحين أخبره بقدومه مساء هو ووجدني استقبله بعناق من يتبرك
 بضمير مهاجر، وقلب سلك ضربا لليقين، بينما تفقد طارق عشاق
 الجسر بقلب ينفطر به الأمل، وضمير تغترب به الهجرة عن موطن
 الممات، ومرر بصره عليهم، أو على أملهم الجاري مجرى النهر حيث
 يعزلهم العشق الجارف، وتواريهم نباتات الأحواض، وشجيراتنا كأنها
 حائط للعشق يهتبل عشاقه من وراء جداره فرصة النسل، وفرصة
 بدايته المستحيلة على رصيف الواقع؛ استحالتها على جسر الغزوية
 المنسوب لعراء مستقبلهم. كم موسم للحب جمع عشاق النهر
 وأسماءه وقد طغى فيضانه؟ وكما تغرق هوام الأرض غرقوا بماء
 الخصوبة والظمي. أجلسه صائد الإطلاق إلى جواره، وشكره على
 السبحة القيمة، ثم تحدث عن طريق الحج المسيحي الذي عبر فيه
 شمال سيناء، أو طريق العائلة المقدسة، ولكنه لم يبدأ من القدس
 حيث بدؤوا، وتحدث عما تركه الحجاج المسلمون من كتابات بمحراب
 الجامع الفاطمي داخل دير سانت، وعن مكتبة هذا الدير وما تحتويه
 من عهود أمان لأهل الذمة، ومما أدهش بائع الذرة وجود كنيسة داخل
 قلعة صلاح الدين الحربية بجزيرة فرعون؛ فهتف مسمعا عشاق النيل:

- والناس في حبه سكارى!

وتبسم قديس الإطلاق للرجل قائلا:

- ستجد على قمة جبل موسى كنيسة وجامعا ملتصقين، وعلى
 قمة جبل الطاحونة بوادي فيران ستجد الكنائس يجاورها الجامع!

ثم ضحك يخيره قائلًا له:

- في سيناء حمام لفرعون وكهوف لقديسين هربوا من الاضطهاد الروماني فأيهما تفضل إن حجبت معي بعد موتي؟!
فهتف بائع الذرة الأريب:

- والنيل بجنبنا يجري حتى كهوف رهبان سيناء!
فاحتفوا بسجيته الرجل في تسامحها ونقائها، وأحب وجدي أن يحتفي بقديس الإطلاق أو "صخرة الصيد"، فقال يشير إلى اسمه الذي جارت عليه سمكة الإطلاق بجسر الصيد:
- أنا لا أنسى زيارتي لضريحي القديس بطرس في روما!
فقال الأب بطرس:

- الكاثوليك يزورون سراديب الأموات تحية لعظام الشهداء، وهي تحية محبة لشهداء في المحبة!
وضربت ذكرى المحبة قلبي الصديقين طارق، ووجدي، أما هذا فقد ذكرى زفاف حبيبته، أو من وصفها: "ببرزخ الحب"، و"الزرقاة الآسرة للدنيا"، و"أغنية الرياح الأربع"، و"أمد الذاكرة"، و"تدفقات الرحم".
وذكرى زوجها صاحب بزار شرم الشيخ الذي رآها لأول مرة في تلك الرحلة التي اصطحبها فيها إلى مياه سيناء الزرقاء! أما طارق فلا يزال يحلم بعذراء الحب وهي تقف مبتهلة بين حمام الحرم وحمام البقيع. تسأل وجدي دون أن ينظر إلى العشاق:

- ما مصير عاشقات الجسر؟

وصمت مع الصامتين ليتساءل:

- وماذا لو ذهب العشاق بهن إلى مياه سيناء الزرقاء، أكانوا يكرهن بإخلاص كما أحبهن بإخلاص؟

وانتفت إلى صديقه في الهوى يناجيه: إلى أين يهاجر العشاق إلى حمام الحرم والبقيع، أم إلى تيه الرمال؟ وماذا لو كانت هجرتهم إلى محيط الأمريكتين؟ أكانوا يهتدون بالانتحار الجماعي للحيتان التي ضل قائدها، أم يهتدون بذاكرة الآباء الوراثية، أم بحقول المخابرات الوهمية؟ بائع الذرة ينعي على العشاق كثرتهم لا حظهم، ويتلصص عليهم وهم يتناوبون التخفي بين نباتات الأحواض وشجيراتهما في انتظام شهواني كأنهم عقارب ساعة تدق بعمر الشهوة المتقارب القصير، ويقول لنا: زمان كان صوت الهواء هو ما يفصل بين كل اثنين من العاشقين، واليوم يفصل بينهما صوت شهوتهم المسموع. كان صوت الهواء يرهب قلوبهم، واليوم صوت الجسد هو الذي يرهبهم. زمان كانت مناديلهم من قماش مزهر يجففون بها عرق الحياء من العشق، واليوم مناديلهم أوراق يجففون بها عرق نزق من شهوة. زمان كان عمال النظافة يدعون لذريتهم وهي لا تزال في أصلابهم، واليوم يسخطون على ذريتهم وهي نطفة فواحة ملقاة في أوراق منديلهم. اليوم كثرة من قلة الأمس. اليوم شره من حياء الأمس. تنبه وجدي على صوت قديس الإطلاق يقول:

- لا تمر ليلة إلا وأنا أشجع عشاق الجسر على البداية، ولكنهم يسيئون الظن بأنفسهم وليس بالفافة!

فقال وجدي باللهجة الحياة وهي عاطفة عامة مجردة كقوانين الصيد، أو بعاطفة الأسماك المهاجرة ببويضة النسل:

- أية بداية تلك تشجعهم. بداية العفة وشوقها الجارف أم بداية "العنوسة" وحجابها المبلل بعرق النسل؟
فهتف بائع الذرة المتلصص:

- إنها نهاية ماء النسل وهو بمناديل ملقاة لعمال نظافة ساخطون على الذرية!

فنظر الأب بطرس لوجدي يقول:

- كل ميسر لبدايته وحيث تكون البداية يكون الختام!

فناد وجدي كأنما يُسمع ما بقاع النهر أو قاع مياه سيناء الزرقاء:
- يا خواتيم الأسماك كيف كانت بدايتك؟

ودون أن يشعر نهض ليرتفق سور الجسر، وتترأ له تلك السمكة التي هاجر إليها حيث استرخت "برزخ الحب" لجبروت البحر. من مياه سيناء اصطاد تلك السمكة. من نفس العمق الذي غرق فيه الحب اصطادها، وإلى نفس العمق أطلقها ولكنه خلع فكها وهو يحرقها من الخطاف البرنزي. استدار يسند ظهره على حديد الجسر، ويأع الذرة يتحدث عن طالب الأزهر النيجيري الذي قرأ القرآن على الجسر. يقصد الشيخ آدم فقد حضر أيام العمرة مع عماد، وراقه أن يرتل القرآن بصوته النقي العميق، والذي يفخر بثناء أستاذه طارق عليه إذ يقول لتلاميذه المصريين: "صوته في الخطابة تتعلق بعمقه الأئدة، وصوته في نقاء التلاوة على صلة بأسرار القرآن، وحي التلاوة". والشيخ آدم وحيد أبوين يعملان كملحقين بالسفارة، وبإحالتهم على المعاش تأقا للخاتمة بأرض الوطن، على أن يبدأ آدم حياته من حيث بدأ هما كدبلوماسيين، وكان مولده في القاهرة معززا لنظرية الهجرة الكونية التي بسطها له أستاذه، ويقول: "أنا ولدت في هجرة ومعاشي كمماتي هجرة!"؛ لذلك حضر إلى جسر الصيد لعله يطلق سمكة واحدة مهاجرة، ويلتفت إلى وجدي هاشا بألة الصيد، ويقول كأنما يطمئنه على حياة الأسماك التي اعتزل صيدها:

- الليل ينقضي دون أن تنجذب لي سمكة واحدة!
فيلومه وجدي باسماء:
- أدعى لمن كان مولده في رحلة ألا يقطع الطريق على الأسماك!
فقال يعلق برقبة الإنسان المدني طائرته، وهو يعلم أن الحراية في رأي شرعي تكون خارج المدن:
- الحراية وقطع الطريق على الناس لا تكون إلا خارج الأنهار
حيث يكون الإنسان المدني!
- ضحك وجدي قائلاً:
- هذه شريعة من يصيد، وللأسماك شريعتها!
فقال بائع الذرة يوفق بين الشرائع المتنازعة:
- ألا يأكل الإنسان الميتة مضطراً كما تأكلنا الأسماك مضطرة؟!
ثم ناد على الناس والأسماك:
- من سد جوعه ما ظلم!
وذهب صائد الإطلاق مذهب البائع الأريب، ولكن على طريقته التي تجرد الصراع في غاية أكبر منه، وأولى بالحكمة من رؤية الدماء.
قال:
- لو لم يسبق الماء الإنسان ما تعلم الإنسان العوم!
ويسألهم:
- هل نقصت من الأنهار قطرة واحدة مما يشرب الناس، والأحياء، والأرض؟ لا الدماء تبطل حكمة الفداء، ولا الموت نفسه ينقص من الأحياء شيئاً!
- وقال عماد يذكر زميله بأن هذه جلسة الوداع قبل العودة إلى
نيجيريا ليحتفل هناك بتخرجه من كلية الشريعة:

- أين هي سمكة الإطلاق؟

فتجث عينا آدم في صائد الإطلاق ويسأله:

- أين هي سمكة الإطلاق؟

فيقول له باسماء:

- إنها لا تنجذب إلا للمهاجرين!

فيستبشر قائلاً:

- إن شاء الله ستكون هجرتي إلى ما هاجرت إليه!

ثم قال يبرئ ذمته لفداء الهجرة:

- أنت أطلقت سمكتك الصائمة في هجرتها، وإن قدر لي الليلة

سأطلق سمكتي في هجرتي!

ويسمل راجياً ممن سخر لنا الأشياء أن يرزقه سمكة الإطلاق

حتى تحرر سريرته وهي مسخرة بين الموت والحياة، ويستلهم من

حرص الأسماك على الحياة أن الجهاد الأكبر هو جهاد النفس، ويردد

كلام طارق: إن "لحظة القتل" تستعبد القاتل، وتحرر المقتول كما يحرر

فداء الهجرة المهاجرين من أمثال البشر. من أخطأ الحكمة من وراء

تلك اللحظة لن يخطئه العدم، ومن حمل سلاحها كان عبداً للسلاح،

ونظر في المجرى المزين شاطئاه بمصابيح هي الدليل لظلامه الضارب

فيما تملل من أضواء غيمتها الشبورة، ثم خاطب سمكة الإطلاق:

- اصعدي إلينا من ظلام الماء أو ظلام النفس عسى أن نجاهد

في إطلاقك الجهاد الأكبر!

تسأل عماد:

- أين شيوخ الجهاد وفتواهم التي يقاتل بها العرب العرب؟ أين هم

ليتغفوا تغف الأسماك عن الكذب؟ ألا فليعلم شيوخ الجهاد، وأمراء

الصراع بالوكالة، ونشطاء السياسة والدين أن من قتل والسلاح في يده
كمن عاش والسلاح في يده كلاهما عبدا للسلاح وليس عبدا لله!
فيسأل الشيخ آدم:

- لِمَ يصنع الإنسان آلات للحرب؟
ويجيبه وجدي:

- لأنه المخلوق الوحيد الذي يسيء الظن بنفسه دون سائر
المخلوقات!
فيهتف آدم بسمكة الإطلاق كأنه يراها في ظلمة النفس لا ظلمة
الماء:

- أيتها المجاهدة في سبيل نسلك، مَنِي علينا بما نجاهد فيه
الجهاد الأكبر!

بينما هتف بائع الذرة بوحيد القرن الأفريقي:
- يا وحيد القرن لِمَ زرعوا لك ثلاثة قرون؟

يشير الرجل إلى محور نقاشهم في سهرة الأمس عن دول القرن
الأفريقي التي زرعوا لها ثلاثة قرون: قرن أمريكا، وقرن فرنسا، وقرن
إيطاليا في عملية تهجين استعماري استخدمت فيها هندسة السياسة
السرية، وأهدافها شبة المعلنة لتنشيط المصالح الحيوية الأمريكية في
القرن الأفريقي، وهو ما يعرف "باحتواء أي تدفق غير منضبط لمصادر
الطاقة". ضحك عماد قائلا:

- تلك هي القرون الناشطة، وهي غير الأسلحة الناشطة،
والمنظمات الناشطة، والدول الناشطة، والأفراد النشطاء!
وفي أثره قال وجدي:

- وهي غير الدول "المارقة"، أو الأنظمة المارقة التي ستكون
"مرقة" للدجاج الكنتاكي!

فقهه آدم ليقول له بائع الذرة وهو يشير إلى البراد في المجرمة:
- نصيبك من الشاي محفوظ ولا نصيب لنا في "شربة" الدول
المارقة منها والصديقة!

تضحكوا جميعا ولكن الشيخ آدم ارتج في مقعد الصيد هاتفا:
- سمكة الجهاد الأكبر تنجذب لي!

وأخذ يستشعر "الجذبة" بسبابته لتستولي السمكة على قلبه وهي
تهز الولا ببنقرات متباعدة. راقب وجدي نقرات السمكة ورجح إفلاتها،
ونغر قلبه الفك الذي خُلع في يده وهو يحرق سمكة سيناء من خطاف
الصيد، وناجاها كأنه يطلقها ثانية: ما مصير إنسان العرب، وإنسان
القارة؟ فهذا حياته تهجير من الداخل وهجرة إلى الخارج، وذلك حياته
جهاد في الداخل ولجوء إلى الخارج. بأي شيء يهددون في الهجرة
والتهجير، والجهاد واللجوء؟ أيهددون برحم القارة أم أرحام العرب،
وبأعراقها أم بعرقها الإثني؟ وبحدود الاستعمار الوهمية أم بحدود
القبايل، وحدود الدم؟ وباللغة يهددون أم بفتاوى الدين؟ و برفقاء
السلاح، أم تجار السلاح؟ وبالاستعمار أم بالاستثمار؟ وبالقرود أم
بالماس والذهب الأسود؟ وبحضارة الرجل الأبيض أم بطمي الرجل
الأسود؟ وبالأنهار أم بالسود، وبالشلال أم بالمصب؟ يا إنسان العرب
ويا إنسان القارة الأسماك في صراع الفداء حافظت على نسلها، وكافة
أنواعها منذ آلف السنين وهي تهتدي بحقل الأرض المغنطيسي،
وبذاكرة الوراثة، و بتيارات البحار، وبما لا يعلمه الإنسان!

حين قال صائد الإطلاق الذي خاض حروب مصر خلال قرن
مقاتلا، وأسيرا، ومؤرخا: القتل بالدين قديم قدم القتل بالجنس والعرق!
لم يكن وجدي قد اعتزل الصيد، وأمن مثله بفلسفة "إطلاق
الأسماك"، ولبت يراقب آلة الصيد وهو يجاوره على كرسه البلاستيك
الذي يحضره في سهرات الجسر، ثم قال يذكره بتسخير غلمان القارة
السمراء في حروبها الأهلية:

- أليس من الوارد تسخير غلمان الدين في حروب إقليمية، أو
قومية، أو عقائدية؟
فقال صديقه طارق:

- ما يحدث في غابات القارة السمراء هو مشروع قطري فوضوي
لما سيحدث على حدود الدم في بلاد العرب!
فنهض وجدي تاركا آلهة على حديد الجسر، ومن سوره شخص
ناحية ظلام الضفة ليرى غلاما مرسل الذقن يتسلق حائط غراب يفصل
النهر عن الدير العتق، ولكنه لا يبلغ نهايته إلا وتتحرك به الرمال
حيث حدود الدم، ثم يمد به الحائط ولا يسقط إلا ورأسه مرفوعا إلى
حيث يرى الإحدى عشرة كوكبا دون أن يرى الشمس والقمر. استدار
وجدي يسند ظهره على حديد الجسر ليخبرهما بأضغاث الحقيقة، ثم
قال:

- هذا الغلام المتسلق حائط الغراب لم أعرفه إلا وهو يسقط!
وأضحكهما وهو يقول:
- هذا الغلام هو أنا!

وشاركه طارق أضغاث الحقيقة قائلا:

- حائط الغراب الحديث سيفصل المسجد عن المسجد، والدير عن الدير، والرعية عن الرعية!

وسنح لطارق صديقه اليتيم بين إخوته الأكثر من إحدى عشرة كوكبا من زيجتين، وينهض إليه قائلا، أو مشيرا إلى أبويه:

- غياب الشمس والقمر يوحش النيل!
فيجاوبه:

- ويوحش الحقيقة يا طارق النهر!
وتنبه الاثنان على صوت صائد الإطلاق يقول:

- اللولب ياهتز، وأظنه اهتزاز سمكتين!

فرجع وجدي إلى آله يناور بها إلى أن تحكم في الصيد، وجذب الخيط جذبة حاسمة، وأرخاه ليسحبه مديرا الآلة، فيما ترقب طارق ما سينبثق من ظلمة النهر، وما لبث أن بسم لصائد الإطلاق تبسم يهنئه بفراسسته، أو بشعوره الذي يرففه ارتعاش الأسماك وهي في مخالاب الصيد، وقال له:

- صدقت! هما سمكتان!

وهول بائع الذرة إلى السلة يقربها إلى وجدي فرآها كحائط غراب يتسلقه الغلام مسرعا إلى خيط الآلة المتأرجح بالسمكتين. كان يريد للغلام أن يحررهما من الخطاف البرونزي تحرير الإطلاق، ويتنبه ثانية على صوت صائد الإطلاق يستحثه قائلا:

- ألا تطلقهما في النهر؟

فشخص للسمكتين المرتعشتين كارتعاش ثنائي للقتل يبرق في ظلال الليل القديم، وإذا به يدفع الخطاف لبائع الذرة يناشده:

- ألا تطلقهما في النهر كما يطلق العبد سيده؟
ففحص الرجل تبسمه، ولما أعياه غموض الضمير المتبسم فحص
السمة الأولى وقد خلصها وجدي من الخطاف البرونزي ليهتف به:

- ألا تطلقها كما يطلق العبد سيده؟
فترك الرجل السمكتين لمصيرهما الأمن، وقال منصرفاً إلى سائر
السلال وأسماكها التي يغتنمها من صائدي الجسر كأنها ضريبة
الاستماع لجهاز عريته:

- للأسماك رب يطلقها متى يشاء!
ولكنه التفت ليشاهد وجدي وهو يطلق السمكتين في النهر كما
يطلق الحر الحر، فيما رجع طارق من سور الجسر إلى صديقه آخر
العنقود المتأرجح بخيط الرحم الوهمي، وقال باسم:

- خشيت أن يكون أوان الإطلاق قد فاتك، ويظهر أن أوان الهجرة
قد بداء في ضميرك!

وتتم صائد الإطلاق المعنى قائلاً:
- للأسماك هجرة خارج الماء حيث يكون ضمير الإنسان!
ولم يدعهم بائع الذرة يهنئوا بتبسم الضمير وهجرته، وسمعوه
ينادي:

- يا أغلى من الإنسان يا ضمير!
فسأله وجدي:
- هل رأيت في تلفزيون عربتك المرأة المقتولة التي خرجت من
رحم النهر، ونبذت بشاطئه؟

فضحك كمتجسس على كل من بالجسر، وقال مردد كلامه:

- ورأيت بطنها الممتلئة بالبداية المقتولة والمعشوشبة بالنهاية الحية!

اغتموا مع الرجل الضحك إلى أن قال صائد الإطلاق:

- إن لم تتخلص الأسماك من الماء الذي امتصته أجسامها انتفخت وماتت، وصراعات القارة كهذا الماء الخلاص منه قريب المنال لولا الإسراف الحضاري من الغرب!

فقال طارق:

- إنهم يُريدوننا أسماكاً غير منتفخة، ومع ذلك يزودوننا بالماء الذي يقتلنا أو بالسدود التي تمنعه، ويريدوننا أطفالاً متحضرة ويرسلون إلينا الرشاشات. القنابل أعلى إسراف حضاري وهي أول ما يلقي على الفقراء!

ورجع بائع الذرة الأريب بسلة الصيد وهي معبئة بالأسماك الطازجة، ثم قال:

- هذه الأسماك قد استوفت نصيبها من الصبر الليلة!

فقال طارق معجباً بتلميح الرجل المخضرم:

- الصائدون صبروا والأسماك دفعت ثمن الصبر!

وينفذ بصر صائد الإطلاق إلى قلب طارق الحي قائلاً:

- الحكمة قائمة على الفداء!

فقال وجدي نافذا ببصره إلى نظرته، أو نظرة الإطلاق المتسامية:

- أو قائمة على الافتراس!

وقهقه بائع الذرة وهو يدعو الجميع مشاركته النظر إلى السلة، ثم قال:

- للأسماك رأى ثالث في الحكمة؟

فتضحكوا إلى أن قال صائد جادا:

- الأسماك يضحكها من يقطع طريقها دون أن يعطيها شعوره كله
في خطاف الصيد!

فهتف بائع الذرة بشعور أسماك السلة:

- كلنا قاطع طريق إلا بائعي الذرة!

فتضحكوا إلى أن قال طارق:

- الأسماك يضحكها قاطع الطريق والقارة السمراء يشتهيها قطاع
الأرحام! ما أصدق الأسماك وما أكذبنا أكلناها حية، وأكلتنا مواتا.
أكلناها وتفننا في تسميتها، وأكلتنا جثة واحدة تحللت هويتها، وأسمائها
المستعارة من النهر إلى الخليج!
ثم ناد:

- يا قارة، ضحكت من سمارها الأسماك والدود!

فسأله بائع الذرة عن سمكة النيل ودودة الخليج، وكان طارق قد
قرأ عليهم حوارا بين السمكتين كتبه عقب سماعهم لتقرير "الماس
الملطخ بالدماء"، وفي الحوار تقول سمكة النهر لدودة الخليج:

- الجثث في المجرى بطعم الماس!

فقالت الدودة:

- والجثث في الرمال بطعم القار!

سألتها متفكرة:

- القار؟ أظنه لحم إنسان!

- لا! لا القار شيء مثل الماء!

- هل يخرج من الأرض؟

- سمعت أنه يخرج منها!

- و يعود إليها مثل الماء؟
- سمعت أنه لا يعود!
- أبدا؟
- ذاك ما قالت له لي جثث جزر الفاو، وجثث لبنان، وجثث الكويت، وجثث العراق، وجثث فلسطين!
- فهمت بها سمكة النهر:
- على رسلك! وما هذه الأسماء؟
- فسألتها دودة الخليج:
- ألم تحدثك جثث النهر بمثل هذه الأسماء؟
- فقالت سمكة النهر:
- جثث النهر كلها أجنة!

أغلق وجدي آله كأنه لم يشرعها للصيد قط، وخلص قلبه للسمكتين وهما ترتعشان في ارتعاش ثنائي للقتل يبرق في ظلال الليل القديم، وتحول ببصره يناجي قديس الإطلاق، والمقاتل الذي حرر رمال سيناء وماءها الزرقاء: القارة قبلة للقتل فأينما نولي وجوهنا فثم القتل! إنه أسهل من الصيد عندنا واطلم من الصيد الجائر عند الأسماك، ولكن جثث انهار القارة ليست كأسماكها، فهذه يحملها الماء الجاري، وتلك يحملها الثأر الآسن. القتل في غابات القارة بريء براءة الغلمان حاملي الرشاشات، وبديهة الإنسان لا تصدق أن الرشاشات التي في أيديهم تقتل إنسانا. بيننا من يقتلنا يقينا، ولكن نحن من يقتل، ونحن

من يُقتل! صائدو الجسر بصروا ارتعاش القتل الثنائي بنظرة الصيد
ويشاشة صبرها، وغنم غرورها، بينما ارتعاش القتل نشر ماء النهر،
ويبرق به كما برق بالسمكتين. أهما عاشقان من الأسماك انجذبا إلى
شعور قلبك كما تنجذب أسماك القارة إلى قلب صائد الإطلاق؟ أم هما
غريمان تنافسا على شراك الطعم؟ وبداية تحتضر تلك أم مصير معلق
كمصير القارة؟ ألم الحياة في خطاف الصيد البرونزي كانت تنتزعه
السمكتان، وترتعش به في رقصة أفريقية مع السحر والقتل، وأرواح
الحلم وأشباح الواقع. إنه الألم السابق على ألم الإنسان ومع ذلك
اختراع له آلة متطورة. ألم السمكتين لا يزال يرتعش في يدك رغم
إطلاقهما من خطاف القتل، وها هو يبرق بالحقيقة كأنما ألم الأسماك
يتجدد منا، ومن أيدينا الملطخة بماء حياتها. ألم مرتعش أعرق منا،
وأعمق من الظلمة التي تضاء فيها الأسماك، وتجعل من النور لغة لا
هي إثنية، ولا هي عرقية، وإنما هي من لغة الدين الذي لا تفرق فيه
كما يقول قديس الإطلاق. ألم الأسماك المرتعش في خطاف القتل يبلغ
العمق الذي لا تبلغه آلامنا، ولو رجعت بنا أحقاب النسل سيرتها
الأولى، إنه الألم المتجرد منا، ويعيد جدا أن نتجدد منه وهو يتجسد
في ضمائرنا، ويسطو بوعينا حتى لو تأجل حدوث القتل في سلة
الصيد، أو أختصر في ارتعاش يبرق، ويسبح لبرقه الكروان تسبيح
النور، كما سجدت الأشجار المائلة سجود الخوف على الجثث الهملة،
والمتناثرة بطول مجرى الإبادة. جثث لغلمان قتلوا غلمانا، وجثث لشباب
قتلوا شبابا، وجثث لمرتزة قتلوا مرتزة، ولكن من قتل حيوانات الغابة
بالرصاص الحي؟ قتل ملطخ بالقتل، وإنسان ملطخ بالإنسان بينما
وحوش الغابة قد ألفت بينها صوت الانفجارات وأزيز الرصاص. أجل

أيها المقاتل الذي حرر القتل، والأسير الذي حرر رمال سيناء ومياهاها الزرقاء: "لحظة الصيد كلحظة القتل بالنسبة للإنسان فهي مبتورة في الزمن خالدة في الضمير!"، وربما زهدت فيها النسور والجوارح إذ تحلق أدنى الصليبان، وجثث الصراع، وجثث انهار الإبادة. أجل! فهي لحظة مبتورة في الزمن خالدة في الضمير. من قتل وسلاح الشمال في يده كمن عاش وسلاح الشرق في يده كلاهما رفيق سلاح، وأمير حرب ولو زين ذراعه بشارة عدل الثروات الموزعة، أو زين رأسه بقبعة حقوق الإنسان الزرقاء، أو تدل في وجهه لحية الصراع. بالقارة رفقاء حروب، ورفقاء ثورات مدعاة، ورفقاء لحي مرسلّة، وبالقارة رفقاء تمرد، ورفقاء انقلابات الثائر منهم قاتل لا يميزه المقتول عن القاتل المأجور المستبد. ألم الأسماك حي مرتعش، وألم الإنسان متحلل فانتك، وثمة ألم رسخ في الضمير رسوخه في وجه تلك المرأة العارية، والغارقة بشاطئ المجرى، وقد اعشوشب بطنها، وانتفخ بنهاية للنسل تشبه رماح الغيلة، ورصاصة الاغتيال التي وأدتها حية دون أن يحفل بها نفير الغلمان حاملي الرشاشات. نهاية أبدة سوف يرسخ ألمها في وجوه نساء القارة كلما تهجرن في الأدغال أو هاجرن منها، أو كلما رقصن مع القتل على شواطئ الأنهار، أو جفت أثدائهن جفاف المجاعة وجفاف الثروات، أو كلما قطعن أثدائهن كنساء الأمازون. نهاية مستباحة لا تُعدم القاتل. الكل يطعنها، والكل يتبرع من مصيرها، والكل يجهل حكمته. حتى أمي قد أزوت وجهها عن شاشة التلفزيون، وتساءلت بكربها: هذه المرأة قتلت وهي حامل أم انتفخت بطنها من تحلل الاغتيال؟ ونظرت إلى الغلمان نظرة الأم لطعنة أبنها النافذة في رحمها، وتولها صمت مريع حتى صرخت في وجه المذيع: لِمَ حرّموا

جنيها من بكاء الحياة؟ وقاطعته: ومن هؤلاء الهوتو ومن هؤلاء
التوتسي؟ ثم استجارت به: ولم تفرقهم فرنسا، وتفتنهم في أجليهم؟
بانع الذرة شاهد بطن المرأة المعشوشبة بنباتات مجرى الإبادة، والراقدة
بشائنه كقذيفة حرب عظمى عاشبة بشعاب قاع البحر، ولكنه لم
يستدعي إليها عاشقات الجسر ليشاهدن البطن الحبلى بالحقيقة،
والمطعونة من الكل، والمُتبرئ من مصيرها الكل كما تبرعا عشاقهن من
نسل العشق، ووأدوه في مناديل ملقاة لعمال النظافة كأنه قريان "يمن"
رب الخصوبة الفرعوني. الحقيقة حبلى ولكن رحمها لفظ خارج بطن
القارة كما تلفظ الثروات من هاوية الجحيم. لو يعلم الغلمان حاملي
الرشاشات أنني قد ناهزت عمرهم وأنا أذاكر دروسي على الكنبه البلدي
المتصدرة شاشة التلفزيون، لو يعلمون أنني قد رفعت لهم قلم المذاكرة
وهم ينظرون مثلي إلى المرأة في غير مبالاة، وموج الشاطئ يحرك
جثتها حركة الحياة كأن الجثث تقتل، ولا تموت! جثة هي الحقيقة
المنتصفة بالخرافة كأنها إنسان الماء المنتصف بالحيوان، ولكن شتان
نظرتي من نظرة الغلمان. هذه نظرة مشينة كالقتل وتلك نظرة مقدسة
كالموت، يقينا قد علمت المرأة الحبلى بالحقيقة أنني لم أغض الطرف
عنها وأنا اكتب لها بالقلم في كتاب المدرسة: "أنا موتك الذي مضى
وأنت حياتي الآتية". يقينا قد بدا لها الغلمان وكأن أشباحا خبيثة
تمسهم بأزيز الرصاص، وصراخ الوحوش، ولكنه صراخ يقول لها:
نحن لم نقتلك بالأمس فلا تقتلينا في غدا. نحن لم نكن يوما حراسا لك
فلا تكوني يوما حارسة علينا. نحن لم نكن يوما أبناء لك فلا تكوني
يوما أما لنا. كنت أدير نظرة القتل عليهم، وارفع القلم قائلا لهم بصوت
سمعته أمني: "ذاك القلم من رصاص حي!"؛ فالتفت الأم تسأل المذيع:

ماذا لو بلغ هؤلاء الغلمان أشدهم وتلك الرشاشات في أيديهم؟ فأجابتها: سيكونون قبائل تحمل الرماح، وأنزلت قلمي لأكتب في كتاب المدرسة سؤالاً ظل حياً كلما قتلت الجثث في حروب القارة الأهلية: لماذا تطفو الجثث ولا تغرق؟! ولما عرفت أن الهواء يحمل الطير كتبت في الصفحة القديمة: والهواء يحمل الجثث أيضاً! كان جلوسي للمذاكرة أمام شاشة التلفزيون ينعس بي في أحلام كحفريات الصخور، أو حفريات النفس ما هي إلا فجوات زمنية كما يقول صديقي طارق، وإذا بي إنسان ماء يغوص في أعماق الحقيقة الملقاة على شاطئ الخرافة، وهناك أجد المرأة فأزيل بقلمي عن وجهها، وبطنها، وسائر جسدها ما أعشوشب من نبت الإبادة الشيطاني، ثم أسألها: "تهرك رحم للهجرة، أم أنه تهجير إبادة؟" فتفتح عينيها على نظرة القتل لأجد فيهما الغلمان يرقصون حولها رقصة المحارب الجنانزية، ويحكمون عليها دائرة القتال في تكتيك من الكر، والفرو، والطعن، والتدفق الحر بالسلاح، ثم التأرجح والترنح كأنها النهاية التي يتبرأ منها الكل. كانت المرأة الحبلى مسجاة في مركز من رماح الجنوب وليس مركزاً من رشاشات الغرب. هدير من أصوات البشر، ودقات الطبول، وشهب تحترق تُسلط أشعتها على جسدها وطعان الرماح. لا سكون، ولا حركة، بل تموج سريع، واهتزاز، وتأرجح، ولا بداية أو نهاية وإنما قفز كالسقوط، وصعود كالغرق. الحقيقة السمرء في مركز الطبول والرماح والحلم، والخرافة بينما قلم المذاكرة لا تطفأ شعلته ماء الأرحام المتناحرة. إنه قبس من نار "بروميثوس" المقدسة، والمشتعلة إلى الأبد في معبد دلفي وغابات القارة. كانت الأم تقيم رأسي المنكس على كتاب المدرسة فافتح عيني لأقول لها: المرأة ولدت الغلمان من ظهرها، وقد

خرجوا منه يحركون رؤوسهم، وأطرافهم ليرسمون في الهواء أشباحا من الندم، والفرع، والانتحاب، وقد تغلق التلفزيون فأقيم رأسي من الكتاب لأقول لها: إنسان الماء المنتصف بالحيوان هاجر بالمرأة من الشاطئ إلى الشاطئ! ثم بلغت أشدي فكتب في الصفحة القديمة قدم صفحة النهر: إنسان الماء المنتصف بالحيوان هاجر بالمرأة القارة من شاطئ الحقيقة إلى شاطئ الخرافة! كانت تصدقني باكية وأنا أقول لها: رأيتني أغوص بقلمي إلي رحمها، وأزيل به أعشاب الإبادة، ولما فتحت عينيها بقينا معا برفقة الأسماك، وقد تصمت الطبول، وأصوات البشر، وأزيز الرصاص حتى يظهر المذيع في عين حيوان مستنسخ في معامل الحضارة فأسأله: هل تريد لجنين المرأة بكاء الحياة أم تريد له الاستنساخ من حيوان في معمل الشمال؟ وقد يظهر المذيع في عين حية مجلجلة، ولما تنفخ فحيحها بقوة عاتية يتثائب المذيع حتى يخرج من فمه ثعابين تشبه ثعابين طمي القارة السوداء وغرينها الذي يحف ببداية الخليقة حيث انفصلت أنبل صخور أوربا، وتجسدت في أشهر جبالها الشامخ فوق لوحة الفسيفساء. ثعابين تشبه ثعابين القارة السمراء تخرج من صخور أوربا، وتزحف على بطونها حتى مجرى الإبادة، وفي مائه تهاجم بطن المرأة نازعة أحشائها ثم رحمها فيخرج الجنين سابحا كثعبان يهاجم فم المذيع ولسانه المستشعر كيميائ الإنسان!

وجدي هو الابن الأصغر للشيخ عبد العزيز مقرئ الإذاعة، أو آخر العنقود في شجرة الحضارة كما يصف نفسه ساخراً. تخرج من كلية السياحة والفنادق، ولكنه لم يستقر له عمل في فندق ولا سياحة في سفر، فهي أشهر معدودة ثم يعود من إيطاليا، أو فرنسا، أو تركيا، ثم فكر في السفر ولم يسافر، وأعتقد أن امرأة فرنسية أسلمت على يديه؛ فأطلق لحيته بعد أن تزوجها في شقة أبيه بحارة أم الغلام خلف المشهد الحسيني، ولم يمضي على زواجه عامان حتى طلق المرأة وحلق لحيته، ثم احترف رحلات الصيد خارج القاهرة إلى أن رافق صائد الإطلاق بالجسر كمحترف لا يباريه أحد ممن يشربون للصيد آلات، وهو الآن يعزف على العود والكمان، ويصف نفسه بأنه آخر العنقود في شجرة الميلاد، وفي إحدى سهرات العزف ببيت زينب خاتون قال لطارق: أنا حياتي تشبه هذا البيت وما حوله من بيوت. حياتي ما هي إلا فجوة زمنية كتلك الفجوة بيني وبين إخوتي؛ فالأصغر منهم عمره ضعف عمري، وكفجوة الشمس والقمر يوم مولدي إذ كان أبي في الستين، وأمي دون الخمسين مما حملها على إجهاضي مرارا وهي في كرب من فجوة الأرحام الزمنية، كأنها كانت تعلم أن أبي سيحملني عاما لن يفارقتي فيه ثم يرحل وهو نائم كأنه في حلم ربما يحملني فيه!

وكان بيت زينب خاتون "رحم" فلا يفتأ يذكر أمه فيه، ويعيد حديث إجهاضه كما كانت تعيده هي عليه متأثرة بسؤل الموعودة في القرآن: كلما رأت أبي نائما في حلم الموت تدعن للخلاص مني، وتستدعي

جارتنا لتتمدد لها طواعية على بلاط الصالة، ثم تتوجع ببأس شديد إذ تعتلي ظهرها بجسدها المرمري المفتون بعري يزيد مفاتنه غموضاً، ولعله خفاء من غيب الوله، فقد كانت جارتنا الفاتنة المفتونة تجهل وهي تتهدد بضغوط الإجهاض أنها حامل في فتاتي المصطفاة اصطفاء الموجة الآتية من الرحم، والسارية إلى حيث الزرقة العميقة وأغنية الرياح الأربع. كانت ضغوط الإجهاض تغمر الرحم بفجوات الزمن، أو بأمد الذاكرة المديد حيث اصطخاب الطفولة الزاحفة إليها أينما كانت بالطريقة، أو الشقة، أو الحارة، ثم وهي مراهة تخاصمني، وتقاطعني، وتلومني، وتترقب عودتي من النافذة، ثم وهي تتطامن إلي تتطامن موجات الرحم الوانية في فجوات زمنها، وفي محفل من أثواب شفوف كأنها الزرقة الغائرة بالقلب إلى صفاء من جسدها المرمري كجسد أمها. جمال يصور الفتون مودة، والرغبة دواما، والارتشاف كمالا، وقد تُذكرني بضغوط الإجهاض وتقول معاتبة: "أنت حملتي قبل الألوان فمللت حملي!" أو تدخل بي محيط الرحم قائلة: "أنت متقلب مثل أمواجه!"، أو تُسمعني من نافذة المنور موسيقى النهر الخالد! وقد حضر طارق زفاف أخواته جميعا، وشاهد موت أمه حتى خوت عليه الشقة إلا من حبيبته المصطفاة، والتي لم تكتث لمغاضبات أمها وهي تزحف إلي الشقة، وتمضي به إلى حركة الرياح، وعزفها الهامس لعدارى الشاطئ الرحيب، فيتناول يدها من الباب ليتراقصان، ويستنزفان أنغام النهر وأصداء الزمن، ولا يفترقان حتى يسترجعا رقصة "الألوان" عند مياه سيناء الزرقاء التي صفت بجسدها وبشعابه المرمرية. كانت مسترخية تماما لجبروت البحر وأمواجه الجارية بها إلي غير مستقر أو انتهاء. فوقعة مغلقة على زرقتين: زرقة الأعماق، وزرقة عنان

السماء. كان السحر الأزرق يصفو برواء وجهها السادر المفعم برقة
استجابة، وتطامن يثق في جيروت البحر وأمدّه، وعمقه كأنه أمد
حياتها وأعماقها الهادرة. لامس أصبعه ذراعها فامتقع وجهها. أجراه
يدغدغها فتماسكت ضاغطة جفونها. فأملها حتى رسم بزنها كلمة
تجاوبت معها مغمضة:

- اكرهني بإخلاص أو اعبدني بإخلاص!

- أنت موجة الرحم التي أفضلت الإجهاض!

فتفتحت عينيها هامسة:

- عذاري النهر طمسهن موج البحر!

- أنت برزخ الحب!

فغاصت به في زرقة عينيها:

- أريد أن أرقص!

فيحذرها:

- وجيروت البحر!

فتعاتبه:

- ألا تسمع موسيقى الرياح الأربع؟

- حسبي الآن أنغام جمالك!

- لا تضيع العمر!

- كيف أضيعه وأنت برزخه؟

- اطعني كما أطيعك!

- اغفري لي طاعتي لجمالك!

- أخلص لي كأنني حبك القادم!

سبح على ظهره يطوقها بسياج من تدفقات الماء الرقيقة ترعاها
كما ترعاها السحب المنعكسة في عينيها حتى همست تخيره بين
اسمها:

- أنا موجة الرحم أم أغنية للرياح الأربع؟

- أنت زرقعة تأسر الدنيا!

- ولكنها أسيرة طوافك الآن!

- هل أقبلك؟

- انتظر الموجة الفاترة!

- بحر الهوى جبار!

- سأنتظرك عند برزخ زرقته العميقة!

ولم تمضي أشهر إلا وهي تنتظره عند برزخ الحب في ثوب عروس
تزف لغيره، فقد تزوجها رجل رآها لأول مرة وهي سادرة لموج سيناء
الأزرق العميق، ويمتلك بازارا وشاليها خارج شاطئ البرزخ، ولم تمضي
أشهر حتى خرجت من الشاليه وهي حاملة، ومطلقة طلاق البدعة؛
فعزف لها وجدي ببيت زينب خاتون لحن أغنية: "المهد والولادة"
وشعوها المتعدد إيقاعه بين القلق، والنبض، والخفقان، وتحريك
الرؤوس، والأطراف إلى أن يخف الجسم ولا يثقل عبر فضاء الأرحام،
أو يتجسد المعنى في لفظة من الألفاظ ولو كان حبا، وولها، ثم ترك
آلة العزف ليقول لها: لم يبق من موت أمي إلا هتافها، أو صوت
احتضارها وهي تودعني وسط أخواتي كما ودعتني أنت عند البرزخ:
"كلهم يحبونك!"، ولما عادت إلي الشاليه وهي تحمل ابنها عزف نفس
الأغنية في نفس البيت لصديقه طارق، ثم ترك آلة العزف ليقول له:
لم يبق من حبها إلا برزخه الذي يفصل بيننا كما لم يبق من موت

أمي إلا هتافها: "كلهم يحبونك!". كآباء في ضعف عمري أحبوني فكلفوني طاعة الأبناء. أعطوني كل ما احتاج، وأطعتهم في كل ما أمروني به، فلم احتاج إلى شيء، ولم يبق عندي شيء أعطيه! العطاء استبداد إلا أن يكن عطاء المولى للعباد، وطاعة المحبة أفقر من طاعة البغضاء إلا أن تكون الطاعة رحمة! "كلهم يحبونك" هكذا يحب العرب العرب، ولكن بأي لغة يتحابون؟ بلغة القرآن؟ أم لغة التوراة؟ أم لغة الإنجيل؟ أم بلغات الفرق، والجماعات؟ كنت محط رعايتهم بلا استثناء، وكنت محط ندائهم بلا استثناء؛ لذلك تمردت على كل صفاتهم النبيلة كما يتمرد العرب على كل صفة نبيلة يتوارثونها، وبزواجهم تمردت على صفاتهم المستهجنة، الجبان منهم تمردت على جبنه، وأبدت كل برص يشاركني وحدتي في الشقة دون أن أراقص أذيا لها المبتورة رقصة الألم المجرى من الأسماء والهوية، ومن التشيع، والمعتقد، والكسول منهم تمردت على كسله وخطط مدينة بالعسل الأسود كأنه بترول، ثم سميتها ببلاد الكويت، ولكن لم يطلع عليها أذانين: أذان فجر، وأذان ظهر حتى كانت في بطون النمل شفاء لمن أراد خراب النسل وقد أعياه الخراب دهورا، والمحدث نعمة تمردت على نعمته ثم تحزمت بالعقال وراقصت الغواني رقصة العرب!

قال له طارق وهما راجعان من زفاف أخته بعد أن شاركتها في وحدته سنوات ببيت حارة أم الغلام:

- كنت تعيش عزلة السياسية في الوطن فأمسيت تعيش عزلة الحرية في البيت!
فقال:

- وأنا اعزف لأختي لحن زفافها رأيتني أتسلق حائط البيت وقد سمعت تشجيعا لأخوتي منقطع النظير، ولكني لم ابلغ أبدا نهاية الحائط كأنهم يريدون لي التسلق كغاية في ذاته!

ثم صمت ليقول:

- سياسة العرب فيما بينهم مثل سياسة الأسرة قد يطغى بعضهم على بعض بأسمى المبادئ كالدين والحب!

فقال طارق:

- وكثيرا ما تفسد السياسة غاياتها النبيلة كما تفسد الوسائل الغايات!

فردد عبارة أمه:

- "كلهم يحبونك!"، وتأكد لي قائلة: أخواتك قصدوا إبعادك عن المرض، وأنت قصدت الاقتراب من الشفاء. الغاية واحدة بينكم ولكن الوسيلة اختلفت!

وطالما سمع طارق مثل هذه العبارات من والدته فقال يفكر معه:
- للمرض مرارة وللدواء مرارة، أما الشفاء فلا مرارة به ولو تجرعنا المرض والدواء!

وأحس طارق انه لا يرغب في الذهاب إلى بيت أم الغلام، ولا بيت زينب خاتون، فصار به إلى بيته المواجه لسور القاهرة، ولم يكد يجلس حتى عزف إيقاع أغنية: "الخروج إلى الجماعة جزء من الكل". وفي الليلة التالية عزف بالجرس موسيقى "الوطن الأكبر"، ثم تسأل:

- كيف جعل الغرب للعرب عاصفة صحراء، وتغلب صحراء؟

فقاطعه بائع الذرة مناديا ومنغما صوته المتحشرج:

- يا اضعف من العرب يا عرب!

في قصة "حائط الغراب" كتب طارق عن صديقه يقول: لا عزلة في الرقص، ولا ذهاب إلى الغيبوبة وإنما خروج إلى النشوة. آخر عنقود في شجرة العرب يتدل متأرجحا في عزلة الأرحام، وعزلة من سمائهم المتهالكة المكشوفة. بيت العائلة في حارة أم الغلام كبيت قبائل العرب في الرمال. عزلته الواقعية محمية خربة تتوحش فيه الحياة، وتتكاثر كأن القتل قتل. جحافل من النمل والصراصير والأبرص والعناكب وحشرات مألوفة، وأخرى غير مألوفة تتوافد، وتتطاير، وتزحف من المنور، والنوافذ، والمطبخ، والأسقف، والأركان، وقطع الأثاث، وقد بد التفريزون كحجر جيرى مغزول بخيوط عناكب متصلة بالسقف، ومتدليلة بفرائسها، ويدور بها قصف النوافذ في عاصفة صحراء، أو عواء ثعالب، وينحصر رنين التليفون كما ينحصر أنين مريض غير عابئ بالشفاء والاعتلال، وينام على مكالمة أخته الكبرى، ولكنه يقوم في الحلم قومة واحدة، ويرفع السماعة هاتفا:

- أخواتي؟

فيهاتفون به:

- قم إليه، صرصور يرتاع أسفل مائدة السفرة!

فيهاتف بهم:

- لا! إنه يرتاع أسفل موائد العرب!

فينهرونه:

- أسرع!

فيسرع إلى حذاء أمه، وبخفة سفاح ينبطح قاطعا طريقه فيفر خلف قائمة مقعد. ناوشه عن يمينه فدار بين القوائم مشتتا فزعا وهو يطارده زاحفا، ومتقلبا حيثما تشتت، ودار، وتتوال الضربات عنيفة هوجاء حتى بزغ جناحاه. ضربه فطار، فلهث يقتص أثره وتهويش الحذاء يجلد الهواء خلفه، ويزج به ليعيث في جلسة أخواته وهم بين ضارب للصرصور بجريدة وكتاب، أو فارا بعشائه، أو مختبئة منه في لحاف، وأخرى مشتتة صارخة، ثم أمهله حتى علق بشاشة التلفزيون كجنين يعلق برحم أمه، وهنالك أطلق الضربة المباغلة المنشودة فهرسته، ومزقته في مخاضه، بينما استهول أخوته إبادة الصرصور على الشاشة كأنه قد أباده في أحداق أعيونهم، فتصايحوا به:

- الله يقرئك!

- ما بالك مشدوها إزائه!

- أزجه!

- ليس بيدك!

- أعطه ورقة من هذه الجريدة!

- الجرائد القديمة عنده فوق الدولااب!

وبفراغ أمه من صلاتها صمتوا. أخذت منه الحذاء لتشاركه النظر

إليه وهو يستجمع وهن جناحيه من المخاض حتى هوى بينهما.

كان يغفو ليبيكي أمامه، وتصيبه قشعريرة الألم من تشنج أطرافه، وتلون مخاضه بألوان أشعة التلفزيون. لقد عرف أين يموت، وعرف هو أين يقتله، فهل عرف الغرب لم يمتزج غرين النهر بمخاض الإبادة؟ وهل عرف العرب لم ترع الحشرات أسفل موائدهم؟ كان البرص أو صوته يستنفر البيت العامر، وإذا ما سلط عليهم نظرة الفرع المُشع،

أو أسلم مخالبه ريح الجدران ليندس خلف حُجب الأمان تفش في أخواته عدوى الهلع كأن البرص مريض بهلاوس البشرى، أو يقع تحت تهديد مستمر يحفظ بعينيه وقلبه ومن ثم كان اعتقادهم أن من الإنسان برصا، أما هو فقال لهم: "البرص صورة قبيحة للخجل، وانعدام الثقة بالنفس" فهللوا: "يا سلام!"، وكلما كلفوه بقتله ابهرهم مهارته في اصطياده، واستدرجه من خلف حُجب الأمان، وطغيانه في تيئيسه، وحصاره أينما توارى، وتخفى، ومتى جحظت عيناه وقلبه كأنه قد خبر انهيار البرص المحتوم، ورغبته في اليأس، ودون أن يشعروا اكتشفوا تشابههما في العناد، والانهيار، واليأس، والدأب، والخجل والفجاجة؛ غير أنهم استمروا في تكليفه بالقتل حتى أتقن رقصة الذبول المبتورة مع كل برص قتله، وما لبث أن تكالبت عليه أعراض الافتراس كالتقيؤ عند كل طعام، واعتقاده في "لا مساس"، وتسريح البراغيث، والذباب، وملاعبة الصراصير، وولعه بحجب الأمان، وحُجب الخجل، ولا ينام إلا هو يستيقظ على زن صراخ فيدير وجهه إلى صورة أبيه، ويقوم قومة واحدة من الفراش إلى فجوة زجاجها المكسور، ويحرق بذبابة كبيرة متدلية بخيوط عنكبوت، وما تفتني تصرخ بجناحيها، وتتأرجح مرتظمة بجانب الإطار، وعاجزة تماما عن الإفلات من فجوة الزجاج. ما أهون خلاصها عليه إن أراد، وما أصعب التخلي عنها إن أراد، ولكنه عجز مثلها حتى أرخت جناحيها بين عيني أبيه. تركه يشاهد إتمام غزلها في انطفاء الأبد، وتثاقل إلى الفراش يتمدد عليه فأعش بصره أضواء تفيض من مركب الشمس، وقد اجتاحت مقدمتها المدببة تدفقات الموج الجاري ففتتها صخورا بيضاء، ويتدرج ألفى اندلع الضوء حتى خبت هالته، وزايلت الهالة أشعة تسلطت علي أجزاء جسده، وإذ به بظهر

المركب في دائرة من أخواته وهم في أزياء عرسهم ينفضون أذيال
البقر فتنتثر منها الرمال، وتتساقط على جسده بينما دقات الطبول
الخفية ترهبه، وتراقصه كجان رقصة الدائرة التي سادت في كل مكان،
وتخرج به من حبة رمال إلى حبة رمال، وتشف جميعا عن بللورات
أرحام كقطرات فولاذ. ارتعش، وترنج، وجذبه مدار الكواكب الإحدى
عشر. دار حولها يستنزف قواه في غشاء رحم لا يجمع الشمس
والقمر، ولما تهاوى على أعشاب الأمم هتف العالم: "يا بشرى! هذا
غلام القتل بالأرحام" وهتف أخواته: "فلنشتريه بثمن بخس!"; فيقوم
قومة واحدة، ويبصر من ظهر السفينة أعواد الغاب تاهتز بضفة
النهر، ثم انتفتحت، وانشقت عن توائم أرحام، وقد حال طمي الشاطئ
بينهم وبين بطن المرأة المعشوشبة بنبت الإبادة، فيرفع هو بلور
رحمها للشمس والقمر فبد في ظلالهما جنينها مكتملا، ومتجمعا على
ذاته. همس له:

- هيا نرقص رقصة الأرحام!

فيفتح الجنين عينيه على حائط يرتفع بسرعة أعيته عن متابعة
ارتفاعه. سألته:

- ما هذا الحائط الذي حجب ظلال الشمس والقمر؟

فيقول له:

- انه حائط حدود الدم!

فيسأله:

- ومن بناه؟

- بناه العرب للعرب!

فيعود إلى الرحم قائلا:

- وماذا سيبنى الإفريقيون للأفريقيين؟

ويترامى إليه صوت المذيع من عربة الذرة، ويحس بسفينة الشمس تميد فلا يسقط من ظهرها إلا وأعواد الغاب ترجمه بطول مجرى الإبادة؛ فتصرخ القرد، وتهيج الوحوش، ويبصرار مميت يتسلق حائط الإعلام بينما الرميات تتصوبه عنيفة هوجاء إلى أن سكن كأنما يتصد للرمية التي اخترقته، وهوت به حيث يختلج، وينترع ألمه كروح تخذ، وتسكن به أفئدة الأجنة، وتغروق بعيني أمه، ويظهرها ماؤها المنهمر، ويحيى هو بكرب نظرتها لبطن المرأة المنغوسة بطمي النهر. ترد أسفل حائط الإعلام مصابا بقشعريرة الألم، وتشنج الأطراف حتى تلون مخاضه بألوان أشعة التلفزيون. لقد عرف أين يموت، وعرف الإعلام أين يقتله. المجرى ظلامه شاحب مريب تتشعب فيه أعواد الغاب، وتحاصر أجنة الأرحام وهم بين جثث ملتحية، وسترات واقية، وأعلام بلدان، ورايات حروب ما أنزل الله بها من سلطان. ولكن جنين المرأة المغتالة تجمع على ذاته لموجة النهر العاتية فطفا كسهم، وانجرف في غيب الغاب. جذب الحبل الصوري فهتف الوارد: "يا بشرى هذا غلام"، وهتفت أمه: "كلهم يحبونك!".

في الخليج الواقع عند حدود الدم تغير أسماك بحار، وأنهار العرب جلدتها بطريقة غامضة، وتعمل مرشدة لسفينة فضاء، وتعلن عن مجيء عملاق وحشي ذي قدمين ناريتين، ولسان إشعاعي يتكلم كلام الدين وما في ظاهره من رحمة، وما في رحمته من فتنة أشد من القتل، فيتكدس الضباب في فضاء الإعلام، وتصعق ضمائر الأوطان، ولا يبقى إلا هذه الحركة التي توغل بها الرعية في فجر البداية حيث يكون أول النور عتمة وتعب، وآخر الظلام ضوء وراحة، ويسفر ندى

الأنهار عن براعم لزهرة اللوتس، والسفانا، والهلوك، وتترى من براعم
سمراء، تجتاز الشلالات الستة، وأشعة الفضاء، وتجتاز حدود الدم
وحود الماء، ولما يقعدون عند الشمس المرتفعة من مياه الحافة
يرسمون خريطة القارة بالظمي البكر كأنها صخور القارة الأم،
وسيد هشون من قدرتها الإلهية على التشكل، وسيرون كهنة بذقون
تشتعل من وهج الشمس، وسياسيين، وشيوخين، ورأس ماليين،
وذوي طريق ثالث ورابع، وذوي فوضى خلاقة لا يجروون على بناء
حوائط أزون، وحوائط ماء ودم ودين، وحوائط غربان تفصل الرعية عن
الراعية، والدين عن الدين، والأرض عن السماء، والحضارة عن
الحضارة، وسيرون بيوت الرعية حافة بالأنهار وقد خرج أهلها
يحتفلون بأعياد الأجنة، ويمركب الشمس، ومواكب الحضارات،
ويمجيء ذلك الطفل من رحم الأديان لأنه أغلى من جميع كنوز القارة،
وأغلى من حرية لوحة الفسيفساء الأوربية، وأغلى من ديمقراطية
أمريكا!

38

لم يبق إلا قليل من الليل القديم، ومن عمر قديس الإطلاق الذي
جعل من موسم هجرة الأسماك محفلاً لصيد الإطلاق على الجسر؛
فمتى صامت أسماك القارة صيام الهجرة يكون الصيد "فلتة"، أو
مصادفة تختارها الأسماك بغريزة غير غريزة الجوع، كأنما هي غريزة
القلب في الإنسان حين يؤثر "أبد الفداء على شبع الفناء.."، ويقول
لصائدي الجسر: "الأجنة في الأرحام مثل الأسماك في الماء، فإذا كانت

الولادة غايتها الحرية فالصيد غايته الإطلاق حتى لو صنع الإنسان آلات للصيد، وعجز عن سد جوعه أو أسرف في شره شبعه!"، ويظل برفقة الأسماك طوال العام دون أن يحمل لافتراسها آلة صيد، بينما آلات الصيد فوق الجسر شرعا، وبحلول موسم الهجرة يجلس الصائدون برفقته، ولا تشرع لصيد الإطلاق آلة غير آله، وقد يطول الصبر بالصائدين موسما وراء موسم إذ يترقبون تلك السمكة الصائمة صيام الهجرة والفداء، أو ذلك الصيام الذي تختار فيه الأسماك الإنسان، ثم تصعد إليه من ظلام الماء وهي ترتعش في مخالب الصيد ارتعاش الموت والحياة، وليس ارتعاش من تطلب النجاة. المهاجرون لا يطلبون النجاة وإنما تطلبهم النجاة، فالسمكة المهاجرة لا تموت حتى تضع بيضها، وقد تقتل في مسالك الهجرة! كان صيام الهجرة يجلل سمكة الإطلاق بآماد من مواسم للهجرة توارثتها، وآماد ترتعش بها ذلك الارتعاش الذي يقوم له كل صائد بالجسر، ويشخصون إلى الارتعاش الحي وهو يصور لهم الموت كلحظة خاطفة من عمر الحياة وأبدها. كانوا يصدقون فيما بينهم وبين قلوبهم أنهم يشاهدون لأول مرة الأسماك وهي في مخالب الصيد، أو مخالب البداية في سحرها وأبديتها. البداية التي تحمل يرفقتها إلى حيث تضعها ومن فورها تموت؛ لذا لم يستبدلوا صبرا بصبر تلك السمكة الصائمة، بل لم يقارنوه بصبرهم الذي كانوا يصبرونه منذ شرعوا للصيد آلات فوق الجسر. يقول أحد الصائدين: ما صبرناه في سبيل تلك السمكة الصائمة المهاجرة موسما وراء موسم هو ما يعظنا بأن العبرة في الصبر ليس في مدى زمنه وإنما في مدى حينا للصبر؛ فرب صابر ليس له من صبره إلا نقمة العجز، أو ردة التعجل وإسراف الجزع!

وكلما انقضى موسم للهجرة دون أن تصادفهم سمكة الإطلاق صبروا مثل صبرها وهي تخوض في هجرتها غمار الزمن، وأهوال الافتراس بغريزة التضحية الموروثة ميراث النسل، ومن ثم كان تعلقها بمخلب الصيد، وخروجها إليهم من ظلمة النهر أحياء لذكرى تلك السمكة الأولى في هجرتها، والتي ضحت بنفسها في سبيل ما يولد بعدها من الأسماك، لذلك كانوا يرونه وهو يصيدها بسبابة قلبه وشعوره، ولا تراه الأسماك "كشراك طعم"، وإنما تنجذب إلى شعور قلبه كأنه مسار من مسارات الهجرة، أو تيار من تياراتها؛ فإذا ما استشعر أصبع السبابة جذبته في الخيط أخرجها من النهر، ولا يمنح إطلاقها لأحد من الصائدين إلا من يعاهده على إطلاق أسماك القارة في غير موسم الهجرة، ولا تنقضي لحظة صيدها إلا وهي مطلقة مع تدفقات النهر، ومنغمة في آماد الهجرة، وطالما قارن لصائدي الجسر بين لحظة صيدها وهي مرتعشة في مخالب الصيد ارتعاش الموت والحياة ؛ وبين رقصات القارة السمراء التي يرتعش فيها الجسد في غير تعب ولا سكون، ويترك وجدي يتخير لهم ما يشاؤنا من الرقصات ليعزف إيقاعها، ومنها رقصة تسمى "مكالمة مع الروح" أي روح العالم، وروح الغابات حيث التدفق الحر، والتماوج السريع الذي يدخل به الجسد مركز البدء.. فإما بداية، وإما نهاية. لا عزلة في رقص الإنسان، ولا في ارتعاش الأسماك التي تجمع الموت والحياة في مخالب الصيد. فإما بداية، أو نهاية، ويقول صائد الإطلاق: "إذا ارتعشت الأسماك في مخالب الصيد فهي لا ترينا موتها وحياتها كلحظة فانية، وإنما هي ترينا الموت والحياة كأزل وأبد؛ أي ترينا الحياة كماض، وترينا الموت كمستقبل للحياة! من كانت البداية غايته سُخرت له النهاية حتى لو

تحللت الأسماك المهاجرة في موطن مولدها سمادا لنماء الغابات، أو تحلل الإنسان في قبره ترابا تخصب به الأرض، فذلك يعني أن الحياة هي التي تعمل لا الموت، وإنها تسخر البداية والنهاية لغايتها. حين تتحلل الحياة وعناصرها فهي تتحلل كحياة، وليست كموت! ويشير من فوق جسر الصيد إلى حيث يضرب النهر في مجاهل الهجرة، كأنما يشير إلى الأنهر المتعددة التي تهاجر إليها اسماء السلمون، ويقول: إلى هناك تهاجر جحافل السلمون. إلى موطن المولد، وهو ذاته موطن الممات، وهكذا يجتمع الموت والحياة، أو البداية والنهاية يجتمعان في صراع بقاء، وليس صراع فناء وإلا ما تحللت عناصر الجحافل النافقة لكي تحيى بها الغابة المترامية، وكل من سبح في المحيط الفسيح! وكان يرى بعين الحقيقة دائرة الضوء العملاقة التي تشكلها جحافل السلمون كحصن للهجرة من تلك الغارات التي تتخطفها من فوقها، ومن أسفل منها، ومن عمقها. الطيور، والقروش، والحيتان، والدلافين، وفقمات البحر، وآلات صيد الإنسان، وسرعة الماء، ومنحدرات الأنهر.. كلها تتخطفها من حيث مكرت، ومن حيث دبرت بينما الجحافل المهاجرة لا تتثنى عن يقين الهجرة، وكأنما الاختطاف، والفتك بها هو طاقة حركتها، وغاية عزمها، أو حقل للهجرة يرشدها إلى حيث يكون اليقين، وتنعكس الحقيقة، وينتشر ضوءها بامتداد مجارى أنهار القارة؛ فيقول لطارق كلما ذكر له النهاية المستعصي على القارة امتلاكها:

- دائرة الضوء تلك التي تشكلها جحافل السلمون المهاجرة هي ظلال الحقيقة في القارة السمراء، أوهي ظلال من صراع العزلة، وصراع

الخروج، أي عزلة أبنائها في الغابات وخروجهم منها، أو صراع
التحصين من كل ناب يتخطفهم، وصراع الهجرة إلى حين العودة!
فيقول له طارق:

- صراعات القارة السمراء تتحصن بضوء البداية كلما تعددت
النهايات، كنهاية الاستعمار، ونهاية الاستثمار، ونهاية صراع الأمراء،
وصراع الحروب الأهلية، وصراع ثورات تصنعها أجهزة المخابرات،
والإعلام كما تُصنع أفلام هوليوود!
فينظر إليه نظرة مستشرفة للغاية قائلا:

- لو لم تهاجر جحافل السلمون ببيرقات البداية ما انتظرتها الدببة
عند شلالات النهاية، ولو حيل بين هجرتها وموطن الممات ما تجدد
نسلها، وما تجددت حياة الغابة المترامية والمحيط الفسيح، وما تمثلت
لنا قصة الفداء، وحكمة الصيد؛ إذ لو كان للموت إرادة غير إرادة
الحياة ما بلغ المهاجرون الغاية من هجرتهم، ولو كان الأنبياء هم
المهاجرون، وليس الكائنات المهاجرة في الماء، والأرض، والسماء من
طيور، وأسماك، وسلاحف، وغزلان، وضفادع، وخفافيش، وفقمات،
وعصافير، وحمام زاجل، وقصاص الماء!

وكان يشبه مسير طارق اليومي الذي لا ينتهي بمحاذاة النهر
بالهجرة اليومية لعوالق الماء في المحيطات، حيث تسبح لمئات الأمتار
تحت الماء ثم تعود خلال الليل إلى السطح؛ فهو مسير الانغمار مع
التدفقات الجارية في وحشة زوالها وصلابة أزلهها، أو مسير هجرة
كهجرة التاريخ في ضمير الإنسان، وهجرة الكون المتمدد في فيض
شوقه الإلهي، وقد خصص له مقعدا في سيارته، وملتفت إليه حتى

يفرغ من منحدر الجسر، ثم يقول في إشارة إلى أنه لا يملك نهايته
مثل القارة:

– ألا تحضر من السيارة مقعد المسير!

وقد يهيئه له إلى جواره وهو يتربص وصوله، ثم يرد تحيته، ويقول
في إشارة إلى عمره الطاعن:

– وهكذا قدر لك وأنت الشاب الفتى أن تلتقي بالموت في هجرتك
اليومية!

فيجلس مرددا ما تفاهما عليه منذ ليلتهما الأولى التي صادفه فيها
على جسر الصيد، وكان حينئذ طالبا بالثانوية الأزهرية، قال طارق
لصائد الإطلاق الذي يعتقد أن إرادة الدوام واحدة في الموت والحياة:
– أنت بدايتي كما يبدأ الموت بالحياة فهكذا تعلمنا الكتب السماوية
والكائنات المهاجرة!

39

وللحب ما قال في رسائله اليومية على أثير الهوى، أو على أثير
حضارة الغرب. كانت عذراء الحب تنتظر رسائل طارق اليومية من
هاتفه المحمول كما تنتظر موعدا موسوما بينهما، أو كما تنتظر موج
البحر الذي بينهما وأصداء تيه الرمال، في كل يوم تقرءا قال لي
الحب: لمسها حقيقة وأملها نصيب! قال لي الحب: أنتما الأسيران وأنا
الطلق! قال لي الحب: أملها حلم يتناوب فيه حمام الحرم الوقوف على
قلبها بينما يتناوب حمام البقيع الوقوف على قلبك! قال لي الحب: أنت
أصداء قلبها وهي أصداء حبك! قال لي الحب: راهبة الحب تلك هي

عيدك الأول! قال لي الحب: لا شيء إلا وهي بينك وبينه! قال لي
الحب: أيهما لسان الآخر جمالها أم هاتف قلبها؟! قال لي الحب: حتى
الوطن هي ما بينك وبينه! قال لي الحب: في الحلم لمست منها
الحقيقة فأني شيء تلمسه منها في الواقع؟ قال لي الحب: طفلك هذه
سحر من أنوثة! قال لي الحب: ويهتف قلبها إني أحب فيك مصر! قال
لي الحب: قلبها الراهب يغار على طهارة الحب لا طهارة قلبك! قال لي
الحب: ستعطيك سعادتها، وتعطيها سعادتك حتى يكون الحب شيئاً
غير السعادة! قال لي الحب: إلى متى سيبقي الحب على عذريتها؟
قال لي الحب: ماذا في سحر حبها إلا شعورك الأول بها؟ قال لي
الحب: ويصمت بها حيائها وهو ما يكلمك بالأسرار! قال لي الحب:
كلما انتظرتك هناك طغى حضورها هنا! قال لي الحب: وبادلتك غيرة
من غرور الحب لتصطفيك لنفسها، وبادلتها غيرة من إثارة الحب
لتصطفيتها للحب! قال لي الحب: قلبها هو قلبك فكيف تغلو بكما
الغيرة؟! قال لي الحب: لاشتهائها ثمار للقلب وثمار للجسد! قال لي
الحب: ستعرف منها سر الحب لا أمله! قال لي الحب: وترسل إليك
شوقها الشغوف وشوقك على حدود الرمال يوجل به الشغف! قال لي
الحب: تلك الراهبة على حبها ستحبها حتى تكون طفلة قلبك المدللة!
قال لي الحب: طفلة قلبك المدللة لها مخالب تنهش بها القلب! قال لي
الحب: تنتظرك هناك لتأسرك هنا! قال لي الحب: وينتهي بك الحلم إلى
حلم وهكذا الحنين حلمه لا ينتهي! قال لي الحب: النظر إلى ملامحها
كالشعور بقلبها ديمومة بداية! قال لي الحب: وتظماً وأنت على مورد
الحب ويرويك ندى جمالها! قال لي الحب: وقد يأتي الفراق بشعور
جديد للحب! قال لي الحب: حبها خيال يعرف الحقيقة! قال لي الحب:

وتفتديك، وتفتدي الحب والقبيلة بإيثار الراهبة على حبها! قال لي
الحب: حين ترتوي هي ترتوي أنت! قال لي الحب: وفي نظرتها ظمأ
يروي! قال لي الحب: الشوق إليها سفر! قال لي الحب: وتلمسها
وهي بعيدة فيغيبك الحنين عن نفسك! قال لي الحب: افتتان حياءها من
عذرية حبها! قال لي الحب: ويقف بك الشوق عند شغف عينيها! قال
لي الحب: حين تغمض عينيها عليك أنت الذي تحلم! قال لي الحب:
سراب رمالها قطرات ندى تروي! قال لي الحب: لشاطئكما مد
كالطوفان من جاذبية الهوى! قال لي الحب: الحب في ملامحها شغف
من حياء! قال لي الحب: حبها ذكرى لا لقاء! قال لي الحب: هي
تخاف النوم على شاطئكما وأنت تخاف اليقظة! قال لي الحب: وتشغف
بضمها إليك وهي شعور قلبك الذي يضمك إليه! قال لي الحب: ماذا
في سحر نضارتها إلا نضارة الحب ونضارة قلبها! قال لي الحب: كلما
انحصر الأمل تجسد فيها كأنها أمل الحب! قال لي الحب: وتقرأ تحية
صباحها فيسمع قلبك أصداء صوتها! قال لي الحب: استرح قليلا حتى
تتعب من جديد! قال لي الحب: الشغف في عينيها يأسر الحب ولا
يحررك! قال لي الحب: وتسهب عنها بذكرها! قال لي الحب: وتفقد
فيها الأمل وهي الحاضرة أبدا! قال لي الحب: وتصبو إلى سرورها
كعاشق وتريد السعادة لها كأب! قال لي الحب: شوقها إليك حب
وشوقك إليها حب آخر! قال لي الحب: نظرتها دواء للقلب وعلة
الشغف! قال لي الحب: وبينكما شاطئ هو البحر! قال لي الحب:
وتصبو إلى الشاطئ البعيد كلما لمس الموج أقدامها! قال لي الحب:
وترسل إليك البحر بحنينها! قال لي الحب: حنين البحر بلا شاطئ! قال
لي الحب: ويرويكم حلم ويظمأ بك واقع! قال لي الحب: وتبقىك على

الشاطئ وحيدا فتلمسها وكأنها لم ترحل منه! قال لي الحب: وبضيق
بكما الحاضر وهو أمل حبكما! قال لي الحب: الأمل في عينيها هو
الحب! قال لي الحب: ماذا في فتنتها إلا طفولة تثق فيك، وأنوثة
تشغف بك! قال لي الحب: حبيبتك هي من إذا نظرت إليها عرفتها وإذا
نظرت هي إليك لم تعرف سواها! قال لي الحب: إذا رأيته بقلبك
ولمستها بخيالك فأنت من الشوق في محال! قال لي الحب: سوف
ينبض بك جسدها المذهب نبض الحياة حتى يخفق قلبك لصورته
ومعناه! قال لي الحب: لن يبق في قلبك إلا هاتف قلبها الذي يناديك!
قال لي الحب: خصامها تلهف عليها، وعتابها إشفاق عليها، ورضاها
حب جديد! قال لي الحب: تلك الراهبة على حبها ستخرج بك إلى تيه
من رمال الحب! قال لي الحب: حياء رموشها من صبو الهوى! قال لي
الحب: صبو رموشها من عذرية الهوى! قال لي الحب: بين حيائها
والاشتواء سكرة الحب! قال لي الحب: قد تلهمك السمو ولكن هل
يعصمك ذكر الفراق! قال لي الحب: بعدها عنك وجع في القلب وبُعدك
عنها اغتراب عن القلب! قال لي الحب: في كل ملمح من ملامحها
شعور للحب! قال لي الحب: وتعطي وكأن لا أمل لها في الحب إلا أن
تكون هي أمل الحب! قال لي الحب: هي من تنتظر وأنت من يهاجر!
قال لي الحب: ويتدفق نداها في أوصالك فتعرف أنك كنت ميتا! قال لي
الحب: وترسل إليك الصباح ليعود إليها بلهفة الوداع لا لهفة اللقاء!
قال لي الحب: طائر حبكما المهاجر ينتظركما مع حمام الحرم! قال لي
الحب: وتعطيك كل ما تملك وكأن الفراق سيأخذ كل ما أعطت! قال لي
الحب: وقد ترضى منها بالغياب ولا ترضاه من القدر! قال لي الحب:
وتغيب عنك فتحس للحنين ذكرى لا زمان لها ولا مكان! قال لي الحب:

هي عيدك ولكن هل ستضاء له شموع؟ قال لي الحب: ماذا في حضورها إلا طيف لا يغيب كأنه الزمن! قال لي الحب: لقاءكما ذكرى فهل ذكركما لقاء! قال لي الحب: لحكما شاطئ واحد تبدأ منه الأمواج! قال لي الحب: كلما نويت البعد عنها اغتربت عن قلبك! قال لي الحب: أملك فيها راهب مثلها في تيه الرمال! قال لي الحب: ستحبها بقلبك، وتشتتها بعقلك، وتدوم معها بخيالك! قال لي الحب: شعورك بها مودة وتفكيرك فيها إعجاب! قال لي الحب: الأمل في نظرتها حب يولد من حب! قال لي الحب: كلما فقدتها في الحلم وهي بين حمام البقيع أخذك الحلم لتبحث عنها بين حمام الحرم! قال لي الحب: يوم زفافها ستبكي كأم أنجبت حبيبها!

ومن رسائل هاتفا: صباح العيد يا عيدي! أنت يا أغنية النيل كم أحبك؟ أريد أن أضع يدي على قلبك. أريد أن انظر لعينيك، وأن أقول: بحبك! أنت رثتي الثانية أتنفس منها وتمدني بالحياة، وأنا ولدت مع حبك! أنا امرأة تحملك في قلبها كوطن له الانتماء فكيف تحدثها عن بائعة الجبن وصدرها المتفزز؟! صباح الخير يا سعادتي! الشجر يسأل عنك؟ وأجبتة أنك سألتني الوداع والأشواق منتصباً! من أمنياتي المجنونة جداً أن أقيظك، وأطلب اللجوء لصدرك، ومن أمنياتي المجنونة أن أسألك عن حقيقة نبأ حيرتك في ابتعادك وأن تجيب: لا يا حبيبتي هذه أنباء كاذبة! فما يكون اليوم وأنت تغيب فيه، وقلبي لا يقرأ رسالة الحب، وحش الليل يتسلط علي؟ ما تكون الحياة وأنت في حيرة من أمر قلبك؟ أنويت البعاد؟! كف عن قول مثل هذا. لا أفهم لم تريد انتزاع قلبي بكل هذا العنف؟!

صباح الخير لأنفاس رجل احتلني. أحب أن أقول الآن "حبك"، وأسمعها بصوت شفئك وأنت تأخذها إلى حيث أحب، وهذا القلب الصغير كيف أقتعه بأنك نائم الآن؟ لأنك بصدي اختلس اللحظة ممن حولي لأجدوني داخل نفسي في ضوء بلا شمس! ألا ترتشف فراشتك بعض من رحيق حبك الآن؟ لا تذكر البعاد وأنت اقرب إلي من قلبي. احبك بالصورة التي تجعل البسمة رفيقة وجودك في زمن الذاكرة. بسمة ترافق حضورك، وقد تأتي كابتسامة باكية! حبيبك مثل سمكة تموت إن أخرجتموها من بحر حبها.

صباح الخير يا عصفور قلبي، منذ سمعت صوتك الليلة ولا اشعر أنني أعيش على الأرض. قلبي يجري بي إليك. قلبي يئن، ووالله! انه لا يريد شيئا أكثر من لقياك. فمثلي افشل من أن تقدم عذرا سخيلا مهما كان صادقا. رؤيتك كانت سببا لتأنفي، وصوتك طوق نجاة من حيني إليك، وغرقي فيك. أقف أنا والليل صفا واحدا في انتظارك، وعندما تضيق بي اللحظة يركض في صدري سؤال: متى تستقيم لي الحياة؟ فأنا احمل حبك كرسالة عظيمة، ولهذا السبب بالذات خلقت. بطريقة ما تشبه الإيمان أخذ صباح الخير يا حبيبتي من ثغرك! يتسلل صوتك في دمي، ويسكن أروقة الروح. اشم به رائحتك واقبل أنفاسك! حاجز صمتي هش يتساقط أمام كلمة منك، وحاجز صمتك منيع افشل في ثقبه! أنا حين أحببتك ذهبت حكمة عقلي مني، ولم اعد أفكر بشيء إلا في كيفية الوصول إليك، وكيف نطوي المسافات بأقدامنا كما طوتها من قبل قلوبنا! وقع الفجر في قبضتي لحظة أتت عيناك في عيني. ما حاجة لي بالشمس وأنت تشرق هنا بقلبي. قلبي ممتلئ بك، بل هو مصاب بالتخمة وهذا سبب كاف حتى افقد عقلي! أنت تشرق

بقلبي. ألم أخبرك أن كل شي بجسدي نضج معك ولك؟ في الصباح أنا أفضل الاستسلام. أنا ارض لینه لك. بي شوق عارم أن أنفى بصدرك. أنت حب هز سلام امرأة صالحة! صباح يأتي بك يستحق عناقا وقبل.. تخيل! المتوحشة الآن تتسلى قلبك، وتنتزع من ذاكرته كل النساء التي عرفت، فلا تلهيني عما نويته من نزع لذاكرة قلبك، دعني ومهمتي. آه! تلك الذاكرة الاقتراب منها احتراق، فلا دخل لي بها وخبثي في جيب قميصك فقط! أنا منذ ساعة مغيبة عن كل شيء إلا عن صوت قلبك. آه منه لا يرفق بامرأة فقدت عقلها. امسك بطرف الصباح وشجر البرتقال معي يغني، فهات فمك لي بعض ألحكي معه!

دائما تذكرني بالفراق، فهل تراني أنساه؟ أنت هو فتنة الصباح. ضمني إليك أريد أن أنتفسك! جسدي يتحول لك معبدا. ابتهل فيه.. تضرع، واخشع فسوف أسمو بك حتى وأنا لا اخفي عنك شوقي الجامح! احبك زوجا. احبك أبا لأولادي ولن أطلب الله بأكثر من هذا الحق فيك. لم يبق شيء هنا لم يشهد عذاب حبك. الشجر، وخيوط الشمس، والرمل، والصخر كلها أشياء شهدت حبي لك!

"أحبك" مضى عليها ساعة من الزمن وهي نائمة على فمي الدافئ، ألا ترتشفها الآن؟ قلبي الممتلئ بك يفقدني عقلي تماما. احبك سأقولها للصباح! لو كان لي أن اختار شيئا هذا الليل لاخترت أن أكون شجرة. ليلة البارحة كانت طويلة قضيتها في الطواف حول بيتك بحثا عن ثقب أتسرب منه إليك. أنا احبك رددت علي أم لا! افتقد رسالة الحب. تعال أرجوك لنهني هذا الخصام. لا تنتقم مني بالمسافة.. مشتاقة لك حد أن قلبي يئن! أقسم إنني لا اعرف كيف احتمل وداعك حتى وإن كان على لقاء. صوتك غيمة بيضاء تمطر

قلبي جنونا يصعب توديعك بعدها. النوم الذي يُسرقك مني الآن ينظر لي ويرفع حاجب عين واحدة.. يا إلهي انه يتحداني! افتقدك! ديار حبك أزرها كل صباح بربيع قلبك فهات ثغرك ارتوي فيه وأظماً. لست محتالة. فقد تسللت لقلبك بدافع الحب، وأفكر في التهامك بدافع الحب، وإلا أفسح لي مكانا الآن في فراشك أتوسد فيه صدرك. أنا امرأة الصباح الطائشة إن لم تضمني الآن لصدرك كيف أنام؟ من على نافذة حبنا كنت أرقب بزوغ الفجر، وأيقنت أن لا شيء ينافس جمال هذا الفجر إلا جمال ظهورك في حياتي! سأقول لك ذات يوم وأنت معي هنا على النافذة: "بحبك" وأقسم لك إنني لن آخذ ردها إلا من فمك! لهذا الليل وحشة غريبة! أنت هنا وأنا هناك وبيننا هذا الليل الموحش. ضمني إليك لأنام، وتزول عني وحشة الليل، فللفجر حديث لا ينطق إلا لك، ولا يدفني إلا بك!

أحببتك بنبل لا يعرف حبي طريقا للطعنات مهما حدث، وإن عافته نفسك رحل بهدوء دون جلبه، وإن أحبب أنت الرحيل ارحل حيث تشاء أما أنا لن أفعّل. سأنتظرك، ولن أتركك ولتفعل بي غيرتك ما تشاء! الشجر استيقظ! من يقنع شجرتك انك نائم الآن؟ اذكر ذلك الصباح. اذكر كيف استيقظ الطريق لك، وكيف رقصت لك أشجار البرتقال، وكيف استحالت حبيبتك عصفورة ملونه تشدوا لك؟ ما رأيك لو تخرج معي تحت "رشاش" المطر.

ترى هل أخبرك الليل برغبته في الزواج مني على أن أبقى في انتظار لا يأتي بك! وأقايض حزنك بكل ما املك من أشيائي الحبيبات حتى أظفر بابتسامة قلبك. بقدر سعادتي الآن وحشتني!

أنا لا أستطيع النوم ومسافة الليل بيننا. أول شخص يمر بذهني
 فور استيقاظي من النوم هو أنت، وأنت سبب سعادتي وحزني!
 صباح الخير يا قبلة الصباح، يخطر لي أن أتذوق الصباح من
 ثغرك! ماذا تستحق حبيبتك وهي تقبل عينيك النائمتين، وتهمس:
 صباح الخير لصوتك الذي مازال عالقا بقلبي منذ عناقهما الأول؟
 كيف تركتني هكذا مع خواطر تفجعني قبل أن تفجعك؟ أنا لا
 أحبك! على أي حال لم يقتلني إهمالك وريبتك. هات يدك يجب أن
 تشاركني جلدي! أخبرك خلف كل دعاء من قلبي. قررت يوما أن أبحث
 عن الحب فلبت الدنيا النداء وجعلت بيني وبينك جبلا وبحرا! لي ما
 اختاره قلبي من انتظار، ولك ما اخترته من غياب. مؤمنة أن لا فرق
 بين كلمة "أحبك" في الرضا وكلمة "أكرهك" في الغضب كلتاها تجري
 في نهر الحب، فتعال بعثرني بقبلة، وجمعني بعناق. يا غيمة تفيء
 على قلبي، يا لحن المطر أحبك. الليل بارد وصدرك مأوي! لو كان لي
 بيتا معك لحضنتك الآن، وقبلتك، وأيقظتك لصلاة الفجر. لم أنم بعد،
 وتمطر الآن، ألم أخبرك أن لك رائحة المطر؟ تعال أقيظك. أقبلك،
 وبعدها نرقص، ونغني، وتشرق شمس عامك الجديد!

40

أين قديس الإطلاق ليقراً شهادة قداسة البابا شنودة على العصر إذ
 يقول قبل وفاته بأيام في وصف ما ابتليت به بلاد المحروسة:
 خيالات!. كل ما يحدث خيالات لا تدوم! أين هو ليقراً ما كتبه طارق:
 ورحل قداسة البابا. رحل ذلك الراهب الذي جعل من الرهبنة حياة،

وجعل من الدير قلبا عامرا ومن الدين وطنا يعيش فينا. رحل ذلك الوجه والأمة كلها تستبقيه. رحل كما يرحل القديسون. رحل وهو ساهر على ضمير ابن الإنسان!

كان طارق قد أرسل هذه الكلمات إلى قديس الإطلاق ولكن لم يكن هاتفه متاحا، وقد اتصل به غير مرة هو ووجدي والشيخ آدم، ثم ذهب طارق وحده إلى الجسر فوجده خاويا على نهر الحضارة التليدة! لا أثر لصائد أو عاشق. حتى بائع الذرة وعربته التي استوطن بها الجسر قبل أن يُرفع به أعمدة إنارة لا أثر لهما. أين هم؟ بل أين صخرة الصيد التي تتحطم عليها آلات الافتراس؟ أختفي بغير أثر وهو من أطلق نفسه من الأسر في حرب الأيام الست؟ كم جيل عاصر برزه على قمة الجسر المقوس؟ وكم جيل صار في منحدري الحضارة: منحدر الصعود، ومنحدر الهبوط؟ كان يذكر تسخير العلم في تطوير السلاح ويقول: الحرب قد تحرر وطننا ولكن السلام هو ما يحرر ضمائرنا. أنظر بضمير حر إلى السماء لحظة القصف المريع وسوف توقن أن القاتل هو من يطلب النجاة من القتل، وفي سنوات الشيخوخة كان يعرض زراعه المرتعش كشرع للجسر مخاطبا نفسه: "كل إنسان يولد ومعه صائده وكل حياة تولد ومعه الأبد!"، ومن فوق جسر القارة يوصل تاريخ الاستعمار بتاريخ الحروب الأهلية، وتاريخ القتل بالأرحام، والقتل بالدين ثم يقول: لانهار اليابسة شواطئ النجاة وكل انهار القارة مباءة للصراع، أو سلة للصيد مكدسة بجثث الأرحام المتناحرة! يقين الهجرة لا ينقطع إلا على جائع، أو صائد هو جزء من آلة صماء وليس جزءا من قلب حي. للقتل نظرة، القدرة فيها على فرائسنا عجز، وحريتها ابتلاء. لا غاية لحريتنا أسمى من أن نرى

الحرية ضميراً يوقن بالجزاء، وحين ذهب العالم ليحرر الكويت قارن بين سقوط سور برلين وصعود أسوار العرب بين قبائلهم، ونحلهم، وحدودهم، ثم قال: سيكون للعرب حوائط غرائب يكون عندها كما يبكي بني إسرائيل عند حائطهم! كان قد كتب على صخور أودية سيناء وهو يحج في طريق العائلة المقدسة: "من رد العدوان بعدوان قد يحافظ على حياته ولكنه لا يحافظ على الحياة"، ولما رجع من حرب الساعات الست حج ماشياً على قدميه، ثم كتب على صخور الأودية: "من سكن للعدوان لم يحافظ على حياته ولم يحافظ على الحياة!". قال له وجدي بعد أن قرأ عليه إحصائية بحروب القارة الأهلية:

- أجنة القارة كأسماك القارة لا يعصمها ماء ولا هواء، ولو كان ماء أرحام وهواء انهار!

فردد له ما كتبه على صخور الأودية:

- كل من قتلوا في الحروب يحيهم الموت في الضمائر الحرة ولو كانت ضمائر الأعداء!

فقوض وجدي سلامه:

- وربما دفنهم القتل في الضمائر ولو كانت ضمائر ذوي الأرحام!

فقال طارق لصديقه:

- لا تصدق أن حامل السلاح حر، فقد نحمله في سبيل الله وهو كره لنا!

وتبسم قديس الإطلاق لوجدي يقول:

- وربما تحدثت جثة لقاتلها قائلة: أنا من اخترت مصيرك وليس

أنت من اختار لي المصير!

فنهض وجدي يرتفق سور الجسر ويقول على طريقة صديقه:

- من يصدق أن القتل بالدين سيستنزف أموال وأولاد العرب كما تجري أنهار القارة بحروب الأهالي، وصراع الأرحام، وتجري بكل ما في الخير من شر، وكل ما في الشر من رماح؟

ونفذ قلبه إلى النهر الجاري يناجيه: للقتل عند العرب رب منبري
يُأجر على فتاواه بالدولار، والريال، والدرهم، وصكوك الغفران، ولحضارتنا
قمة مقلوبة للصراع، سيعلم كل سائر فيها أن المُنحدر منها كالصاعد
إليها تشده جاذبية الثروات، وجاذبية المُلك، وجاذبية الطاقة العمياء!
لو يُأبد القتل الحياة كما يَأبد الصراع الأحقاد. ستقول دول المنبع من
أين يبدأ النهر، وتقول دول المصب إلى أين ينتهي، وسيقول أمراء
الحروب تلك حدود وهمية، وتقول الشعوب تلك حدودنا القبلية، وحين
تسيل الدماء وسط مدن العرب، وعلى حدودهم ستقول العرب للعرب يا
ويلتنا، أعجزنا أن نكون مثل غراب الشمال ونواري سوءة أخوتنا كما
يوارىها سلاح الشمال، وما يقوله إعلام التجسس غير ما تقوله مصائر
الشعوب! وتنبه على هتاف بائع الذرة:

- يا أصبر من الإنسان يا سمك!

وقال الرجل متذكرا الغلام الملتحي والصاعد في حائط الغراب:

- للدين كرات في دم العرب لا هي حمراء ولا هي بيضاء، ولا هي
شيوعية ولا هي سنية، ولا هي جماعة إخوانية ولا سلفية!
ثم ناد:

- يا كرات الدين أين أنت من جرائم الجماعات والفرق؟

لم يتح لطارق أن يسمع صوت قديس الإطلاق للمرة الأخيرة، أو يسمع رأييه فيما يسمى "ربيع العرب"، وما يسمه بعضهم: "بالربيع العبري"، أو "ربيع الفوضى الهدامة"، أو "ساكس بيكو الجديد" الذي يرجع على التقسيم السري القديم للمشرق بين المحتلين، وتحديد مناطق النفوذ، وحين أرسل إليه كلماته في رحيل قداسة البابا ولم يتلقى ردا؛ أغلق هاتفه ليهتف بالنجم المضيء في ظلال الليل القديم: اعتقد معه أن مكوثه الدائم برفقة الأسماك نشيدا قاريا سينشده لا محالة العائدون من هجراتهم وبياتهم الشتوي، وكذلك من كتبة لهم النجاة. نشيد كفيضان يفتت صخور القبائل المتناحرة، وجلمود دول السدود، ودول حدود الدم. نشيد يقضي على فتنة الملك والدين، ويقوض حائط الثروات. عود على بدء كهنة الحضارة القديمة في أزياء الحضارة الحديثة يخرقون البلدان بتنظيمات سرية، ويشيدون للثروات حوائط تعبر القارات، وترتفع إلى أوزون السماء حتى يعزلوا الرعية عن الرعية، ومن قبل شيّدوا حوائط غريان على حدود الأنهار، ووراء القصور والمعابد والقلاع حتى يعزلوا الراعي عن الرعية. أثينا السمراء كإفريقيا البيضاء التي عبرت بالحضارات كل بداية، فهي جيولوجيا ملتقى صخور القارات، وثقافيا جسر تلتقي بقمته سائر الحضارات، ولكنها قمة مدببة جهاتها الأربع منحدرات لكل صاعد إليها، وكل هابط منها. إنها القمة التي يتصارع الأقوياء أسفلها، أو في هاويتها كأنها جحيم الثروات والمعتقدات، وربما بدت تلك القمة لرب من أرباب الأوليمب قمة مقلوبة في قلب القارات. يا أرباب الأوليمب، كم رب من

أرباب الألب بشرته بلون الصخور النبيلة؟ ومن منهم كان محايدا في صراع السلاح والمال، وصراع السياسة والاعتقاد، وصراع سدود الماء وحدود الدم؟ ومن منهم كشيطان الفن تجري بقاريه انهيار الحضارات؟ ويا حائط الغراب، نهر أربابك من غرور قوة، وهوس اعتقاد، ويا حائط الثروات، صخور القارات ملتقى بحار، ومجاري انهيار حضارتها من وحي ضمائر وشريعة سموات! كان قديس الإطلاق يسأله مداعبا:

- ألا تسأل أرباب الخيال الفني بجبل الأوليمب المقدس، أو حتى جبال الألب البيضاء أيا منهم يشك في أن الصخور التي هاجرت من قبل كانت في صهارتها قوة العودة، وأن القارات المنفصلة ستلتقي في زمن قادم؟

فيذكره طارق بكلامه:

- ومن من تلك الأرباب مثل قديس الإطلاق يوقن أن الهجرة هي غاية الحياة، وهي أول الأبد ومنتهاها؟

فيدعوه وأرباب جبل الأوليمب والفن إلى الاعتقاد معه:

- أن كل من كتبة لهم النجاة على حدود الدم سوف يعودون! وسأله وجدي كأنما يرفض دعوته:

- ومتى يعود الناجون؟ أيعودون مع الصخور التي تنذر عودتها بفناء الأرض، وانفطار السماء؟ أم يعودون بدماء الثأر الآسن؟ فيقول له باسما:

- للسماء رب يسكنها، ولالأرض مهاجرون توسع لهم السماء والضمائر!

وتوالت على طارق رسائل "القيس" من تلاميذه، فكتب القروي شو من انجلترا يقول له: في الحرب القدرة حاربت أمريكا الحرية بالقارة

الجنوبية منها بأنظمة ديكتاتورية، وكان رجال مخابراتها يشهدون تعذيب النشطاء من حجرات مجاورة لحجرات التعذيب، والإرهاب الذي حاربت به نفسها في الحادي عشر من سبتمبر هو الآن ما تحارب به الأنظمة في الشرق الأوسط الجديد، والنشطاء الذين تركتهم في الحجرات يتنفسون من مؤخراتهم خنقا بالماء؛ هم النشطاء الذين ستطلقهم في ميادين الربيع يأكل بعضهم بعض! وكتب الشيخ مالك من أمريكا يقول: الانقلاب الناعم على مبارك أشد فتنة على مصر من فتنة الربيع؛ ليس لأنه سلاح من يهتفون بسقوط حكم العسكر، وإنما لأنه سلاح الموجة الأخيرة من ربيع الغرب! وكتب الحاج مراد من الفوقاز يقول: الآن هو ظرف الزمان في لغة العرب، وهو عصرهم الذي سيعيشون فيه خسران الدنيا والدين إذا ما قيل لهم أن "الآن" هي كلمة ربيعهم السري! ومن الهند كتب الشيخ مبارك أحمد يقول: دخلت بقرة من تلقاء نفسها مسجدا فوقف ينتظرها ببابه رجل يعبدها طليق الذن، ولما خرجت من تلقاء نفسها كان وراءها رجل يذبحها طليق الذن! وكتب الحاج على من إيران يقول: في الربيع الفارسي سيحرص السني على قتل الشيعي كما حرص الشيوعي على قتل السني في ربيع العرب، وفي خريف المشرق الجديد قد يقاتل معا فرسان مالطا وفرسان الإخوان! ومن صعيد مصر كتب حفيد شيخ الأزهر يقول: رأيت جدي يدخل على طلاب الأزهر خيمة الامتحانات ولم يكن بها أي مراقب؛ فظنه الطلاب من سيراقتهم وإذ بطالب يسأله: أو تحب مصر أم الأزهر؟ فقال الإمام: النبي عليه السلام كان يحب مكة ويحب الإسلام! فقال الطالب: ولكن الأرض يرثها العباد الصالحون! فنظر إليه الإمام مليا وقال: لا ميراث لقاتل في رحم أو قاتل في وطن! وكتب الشيخ

موافي من المنوفية يقول: وسيذهب الزبد جفاء ويبقى ما ينفع الناس ولو كان الزبد يهدر ثورة! وكتب الدكتور الشهري من السعودية يقول: من البلية أن العرب يفهمون أن الغرب يعتبر كافة أنظمتهم الحاكمة نظاما واحدا يجب الخلاص منه، والأشهر من البلية أن الأنظمة الحاكمة هي ما يطغى بعضها على بعض في الخلاص من بعضهم البعض! ومن بازاره في خان الخليلي كتب عاكف يقول: إذا رجع السائحون إلى مصر سيعلمون أن شعبها ليس مجرد شخوصا تنحت على جدران المعابد، ومقاصير الموت، وسفن الشمس، أو شعبا يعلق على أشجار الربيع! ومن سطح بيته بدرج سعادة كتب الشريف يقول: سيعبر المال بالغرب أقطار السموات والأرض بينما نفس المال يتقهقر بالعرب عن حدودهم! ومن جبال أبها كتبت عذراء الحب تقول: ما رفعوا السلاح باسم الدين إلا ليدخلوا به مكة، ولم يحجوا إلا في سبيل تلك "الرابطة" التي سيفرقون بها الدين كل مُفرق! بينما كتب طارق على صفحته يقول: كل من استعلى بالربيع سوف يستذل به، وكل من غنى له سيبكي به، وعما قريب سيرفع التاريخ برقع الحياء عن الوجوه فيلبثون أمامه بغير برقع الوطن! ومن ميدان التحرير كتب عماد يقول: من يصدق أن جسر الحضارة خاوي على النيل كما خوت مصر من رجال الآمن في عيدهم الذي استشهدوا فيه؟ لقد كسرت عظامهم لثلاثة أيام، واستبيح استشهداهم في سبيل الربيع الذي سيمتد بالعرب كريب المنون حتى يسمع أهل المحروسة عن مرتزقة الماء الأسود، أو "البلاك ووتر"، ويرصد لأستاذه خريطة التكتلات قائلا: ستجد في الميدان تكتل ضد التوريث، وتكتل أعداء الحزب الوطني، وتكتل الانتهازيين، والطماعين، والموتورين، والمظالمين، وتكتل النشطاء،

وجماعات الضغط والحركات، والائتراس، وتكتل الجواسيس، والطبقة المنبئة من ذوي الضفائر، وأولاد الشوارع، وتكتل الناصرين والاشتراكيين، وتكتل قضاة من اجل مصر، وتكتل النقابات المستأثر بها، وتكتل المعارضة الرسمية والمعارضة المنبوذة، وتكتل المستبعدين في الانتخابات الأخيرة، وتكتل رجال الأعمال، وتكتل الدكتور زويل مستشار الرئيس الأمريكي، والبرادعي ألعوبة البرجماتية، وعمر موسى دبلوماسي الظل، وتكتل المشاهير من الدعاة، والفنانين، واللاعبين، والإعلاميين، وتكتل الإخوان، والسلفيين، وكل ذي ملة، ونحلة، وفتوى. تكتلات حرجة وأن كانت منظمة تنظيما سياسيا، وعقائديا، وسريا ولها حجرات تشرف على الميدان، وشركات سياحة تتخلله، وأقمار صناعية تبت لها بثيها، ثم نقل إليه صيحة الإخوان ودعائهم الذي زلزلوا به الميدان: "قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُدْلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"، ولما نزل طارق إلى الميدان وجد جميع التكتلات مستميتة على الأرض حتى أنهم حفروا مراحيض كما تحفر أنفاق الحدود، وقد أرتفع بهم سقف المطالب إلى غير حد، أو إلى حد مجهول ما لبث أن أسفر عن كلمة السر للربيع: "الآن"، وقيل أن من حمل لوائها "ألعوبة البرجماتية" الذي غادر البلاد في منتصف الربيع ثم عاد في منتصف الربيع ليردد كلمته المعلنة، والمتردة في عواصم أوربا وأمريكا: "أرحل الآن". قبل أن يغادر طارق الميدان سألته عماد:

– أهي مصادفة أن تكون الغلبة في الميدان لذوي اللحى، وذوي الضفائر، وذوي الأموال؟
فقال ساخرا:

- وكل ذي عاهة سياسية وغير سياسية!
- أشار إلى التكتلات الحرجة قائلا:
- أتصدق أن كلمتي "الربيع العربي" لم تختتم بختم شعوب المنطقة وإنما قد ختمت بحبر المخابرات السري؟!
- فقال طارق بيقين سمكة مهاجرة تجتاز كل شرك القتل ولا تقتل باختيارها حتى تسلم نسلها بداية جديدة هي الحياة:
- سوف يعلمون متى ستخرج الشعوب أختامها!
- ثم نظر إلى ما شرع في بنائه من المراحل وقال:
- إذا خرجت لهم من الميدان "دابة الملك" لن تختفي حتى تتكلم بثلاث كلمات غير عربية. أولها كلمة: الآن، وثانيها كلمة: يسقط حكم العسكر، وثالثها القتل بالماء!
- فسأله:
- أو تقصد أن ظهور دابة الملك لهم من علامات النهاية لكل من فتنوا الناس في دينهم؟
- بسم قائلاً:
- ولكنها من العلامات الصغرى لا الكبرى!
- عاد يسأله:
- متى سنكتب رواية: "تبوءات قضيب الملك"؟
- فقال:
- حين توشي أشجار الربيع الموات بمن يختبئ خلفها من الجواسيس، وقتلة المتظاهرين!

- عربة صيد حصانها فى لفائف كتان (رواية)
الحضارة للنشر - 2010

- بنات الماء (رواية)
الحضارة للنشر - 2011